شريبط أحمد شريبط

دراسات و مقالات
في الأدب الجزائري الحديث







منشورات : المكتبة الوطنية الجزائرية

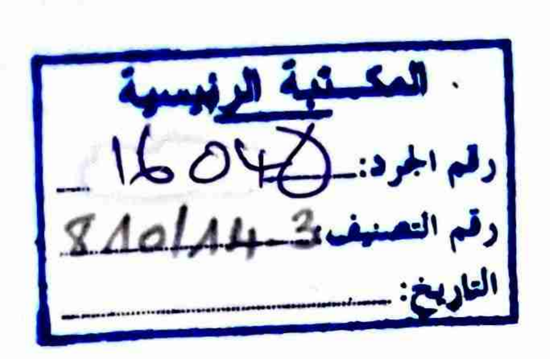
شريبط أحمد شريبط

أستاذ مكلف بالمحاضرات
قسم اللغة العربية و آدابها
جامعة عنابة

دراسات و مقالات
في الأدب الجزائري الحديث



منشورات المكتبة الوطنية
2007



الإهـــداء

إلى لينة

الغيمة

التي جاءت بعد أن

نضبت سواقي الحياة .

شريبط أحمد شريبط

مقدمة

ما زلت أومن بأن أي جهد يبذل في سبيل التعريف بالأدب الجزائري، وبأعلامه المحدثين والقدماء ، لا يخلو من فائدة جمة ؛ ذلك أن المتون الإبداعية على مختلف أجناسها ، وأشكالها ، ومراحل تطورها قد لقيت إجحافا كبيرا أثناء الاحتلال الفرنسي لبلادنا ؛ إذ عمد طوال قرن وربع القرن إلى طمس ومحاربة مظاهر الحياة الثقافية في الجزائر ، مغلبا عليها الأشكال والرموز الاستعمارية.

ولولا بروز بعض الجزائريين المخلصين ، من مثل الأمير عبد القادر الجزائري ، ومحمد راسم وابن شنب ، وابن باديس ، والإبراهيمي ، والميلي ، ومفدي زكريا ، ومحمد العيد آل خليفة ، وأحمد رضا حوحو وغيرهم ، لأضحت الجزائر حاليا فرنسية اللسان ، وغريبة الروح، لا يصلها بماضيها العتيد غير الكتب التاريخية .

كما كان للجيل الثقافي الذي برز بعد الحرب العالمية الثانية (1939 - 1945) دور فعال في ظهور أجناس أدبية جديدة لم يسبق للأدب الجزائري أن عرف مثلها ، وأهم هذه الأجناس الأدبية الرواية ، والقصة القصيرة ، والدراسة النقدية ... الخ .

وقد كان لبعض أدباء هذه المرحلة دور أساس في رسم معالم الأدب الجزائري والتأريخ له ، كما كان لبعضهم الفضل الأكبر في تطور هذه الأجناس الأدبية .

ووجب هنا تعداد - بكل فخر واعتزاز - الأسماء الأدبية التالية : عبد الله خليفة ركيبي، وأبو القاسم سعد الله ، وصالح خرفي ، ومحمد الصالح باوية ، ومحمد الأخضر السائحي ، والطاهر وطار ، وعبد الحميد بن هدوقة ... وغيرهم .

كان أيضا لجيل السبعينات الأدبي إسهام عميق في تنوع اتجاهات الإبداع الجزائري ، وثراء أشكاله ، وغزارة تجاربه . وقد كانت المجلات ، والملاحق الأدبية في هذه الفترة تنشر شعر محمد مصطفى الغماري ، ومحمد بن رقطان ، إلى جانب عبد العالي رزاقي ، وأزراج عمر ، وأحمد حمدي ، كما كانت تنشر قصص الطاهر وطار ، وعبد الحميد بن هدوقة ، إلى جانب قصص عبد الله بن ضيف ، وأحمد منور ، ومرزاق بقطاش ،

ومصطفى فاسي ، وعمار بلحسن ، والأعرج واسينس ، ومحمد الأمين الزاوي ... وغيرهم .

فهذا الإيمان بمسارات الأدب الجزائري ، وجدية نصوصه المكتوبة بالعربية والمكتوبة باللغة الأجنبية (الفرنسية) هو الذي دفعني إلى أن أجمع هذه الكتابات النقدية ، التي تعود إلى مراحل متنوعة من تجاربي النقدية ، وهي تعكس أيضا شغفي بخدمة الأدب الجزائري ، والارتقاء به إلى المنازل التي يجب أن يصل إليها ، وأن يموقع مكانه الصحيح ، ضمن منازل الأدب العربي الحديث والمعاصر .

وقد قسمت هذا الكتاب إلى قسمين :

1 - جعلت في القسم الأول مجموعة من الدراسات الأدبية .

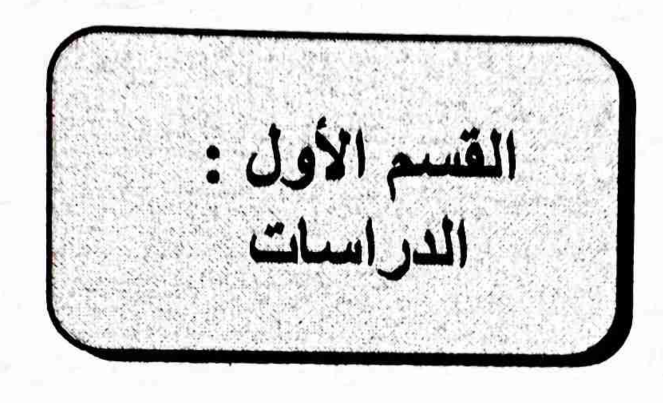
2 - وجعلت في القسم الثاني مجموعة من الكتابات النقدية رأيت أنها أقرب إلى المقالة منها إلى الدراسة الأدبية .

وكل ما أرجوه من هذا العمل ، هو أن أكون قد وفقت في اختيار السبيل التي أسير فيها ، وهو دون ريب سبيل رواد الأدب الجزائري الحديث الدكاترة محمد مصايف ، وعبد الله خليفة ركيبي ، وأبو القاسم سعد الله ، وصالح خرفي ، ومحمد ناصر ... وغيرهم .

فإليهم جميعا جزيل شكري ، وعميق امتناني ، وأدامنا الله في خدمة اللغة العربية الفصحى ، وخدمة أدبها .

شريبط أحمد شريبط

عنابة في يوم الخميس 24 / 02 / 2000


القسم الأول :
الدراسات

1 - فقيدة الأدب الجزائري الحديث المرحومة زليخة السعودي (*)

وهكذا يرحل العظماء :

صوت أدبي نسوي ، بدأ يكون لنفسه مجدا أدبيا في أواخر الستينات ، ولولا سرعة سلطان الموت في اختطافه بعد أن برز كصوت أدبي في بلادنا ، وأكثرها معاناة ، إنه صوت الأديبة المرحومة : زليخة السعودي ، التي ودعت عالمنا في سنة 1972 ، إثر حادث مؤلم محزن بين الموت والحياة ، النور والظلمة ، مرارة الوداع ، وحرارة اللقاء ، أثناء عملية وضع بالعاصمة صارت زليخة سربا من الأطيار ، مختلفة الأشكال والألوان : أبيض ، أخضر ، أحمر كان الزورق في الاتجاه الآخر بسرعة يقطع الأميال .. المسافات البعيدة ، وفجأة اختفت ، خلف الغيم الكثيف إلى الأبد ، فجأة انقطعت كل أوتارها عن التغريد ، وكل أجنحتها عن التحليق .

تركت لنا الأديبة زليخة السعودي نتاجا أدبيا متنوعا : قصة ، مقالة موزعة بين مجموعة من المجلات والجرائد (أمال ، الجزائرية ، الفجر ، الأحرار ..) . وقد حدثنا أحد معارفها أن لديها مجموعة من المسودات تحتوي على تجارب كثيرة من إبداعاتها الأدبية وآرائها : خاصة الآراء التي تدور حول حرية المرأة ، ووطنيتها ، وإخلاصها . وبعد مراجعة الوثائق التي استطعنا الحصول عليها بمساعدة بعض الزملاء ، تأكد لنا أن الأديبة زليخة بدأت الكتابة والنشر قبل الاستقلال، كما أنها كانت تتميز بغزارة الإنتاج الأدبي وتنوعه، وتميزه بالحدة والجدية وعمق النظرة ، ودقة التحليل، وهي شديدة الشغف بقضايا المجتمع الجزائري وإصلاح وضع المرأة، مجموعة المقالات، التي نشرتها في مجلتي « الفجر » و« الجزائرية » تكشف عن وعي كبير بهموم ومشاغل المرأة الجزائرية .

« وفي الوقت الذي كان الصوت النسائي في ميدان الكتابة الأدبية يكاد يكون معدوما في هذه الأثناء ، برزت زليخة السعودي كأقوى ما تكون الأصوات الفنية الأصيلة ، تحمل في نفسها الشاعرية الطيبة بوادر الوعي الثوري التقدمي، مؤمنة بضرورة تغيير العلاقات الجدلية التي تسود المجتمع الجزائري ».

---

* - صدر هذا المقال في جريدة النصر ، في سبع حلقات ، في الفترة ما بين 22 - 29 مارس 1981.

إن اهتمامات زليخة متنوعة ، وتجربتها الأدبية دائمة الخصوبة ، أرض معطاء ، حدائق غريدة ؛ كتبت القصة فأذهلت القراء ، وشدت الأنظار إليها ، في قصصها يغلب الأسلوب السردي ، لكنه شديد الفنية والتماسك.

ومقالاتها الاجتماعية تفصح عن ثورة شديدة الغليان ، وعن مقت كبير لظواهر التعنتر والخلاعة .. إنها إنسانة ثاقبة ، حادة القصد ، رهيفة الإحساس ، سريعة التأثر ، وإن قلمها دائم التدفق .

وحسب المعلومات ، التي استطعنا جمعها ، إن زليخة السعودي قدمت مجموعتين قصصيتين واحدة أعلنت عنها مجلة أمال في عددها الأول، الصادر في شهر أفريل 1969 ، حيث قدمت أسرة تحرير المجلة الكاتبة بهذا التعريف « زليخة السعودي أديبة جزائرية ناشئة من نواحي خنشلة وقد زاولت دراستها باللغة العربية ، وقد اهتمت بكتابة القصة القصيرة ، ولديها الآن مجموعة سوف ننشرها عما قريب ، وقد أخذنا لها قصتين (من البطل) و(من وراء المنحنى) ، وتمتاز قصص السعودي بدقة الوصف وبتصوير جميل لأشخاصها، وقد رأينا أن نترجم لها قصة (من وراء المنحنى) وننشرها باللغة الفرنسية حتى يستفيد منها قراؤنا بالعربية وكتابنا بالفرنسية ..».

والمجموعة الثانية أعلنت عنها جريدة الأحرار التي كانت تصدر في مدينة قسنطينة، والتي كان يشرف على تحريرها الكاتب الجزائري المبدع الطاهر وطار ؛ إذ أورد في أحد أعدادها ما يلي : « تلفت .. الأحرار .. نظر القراء الكرام إلى تعدد الأبواب التي تطرقها الكاتبة ، فبعد المقالات ، ها هي القصة مع الملاحظة أن للكاتبة مجموعة أقاصيص تحت عنوان " أحلام الربيع " ستفاجئ قراء العربية في كل مكان بميزاتها القيمة ، وهي في مكتبة "الأحرار" في انتظار بروزها إلى النور » .

وعرف عن الأديبة زليخة أنها كانت تقوم بنشاط سياسي كبير ، خاصة بين النساء ، وقد كانت خطيبة قديرة في كثير من المواقف .

مدة طويلة ، والصمت والحصار ، والجدران تطوق زليخة .. تسع سنوات ، والعناكب تشيد لها صروحا ، حول نتاجها ، ولا يزال ملف زليخة مغلقا ولم تمتد إليه الأصابع العطوف .. ألهذا الحد نحتقر أدباءنا ، ونخون أرواحهم ، حتى وهي تتطهر في أعماق الأعماق ؟ .. آن الأوان لأن

نتحرك جميعا، لنغسل وجوهنا بماء الإخلاص والوفاء ، ونتعطر بعطر الفجر ، ونعطي لكل ذي حق حقه « وماتت في الجزائر الأديبة زليخة السعودي ، ولم تنعها غير مجلة واحدة ، وفي عشر كلمات تقريبا » .

سأحاول في هذه المرة أن أفتح ملف شهيدة الأدب الجزائري الحديث زليخة السعودي فلعل بعض الأقلام تتحرك أو تنفض عنها غبار الحقد والضغينة ، أو عسى بعض الجهات المسؤولة عن الثقافة في بلادنا تتحمل شرف هذا الواجب ، وتسعى لجمع نتاجها الأدبي المنشور ، وتطلب من عائلتها أن تسلم لها بقية نتاجها، وفي الأخير يقدم كل إنتاجها للطبع .. وبذلك نكون قد أعدنا إليها بعض حقوقها ، بعد أن أخذنا منها أقدس واجباتها .

لقد تجمع لدينا من إنتاج الأديبة زليخة السعودي الأنواع التالية:

I - القصة :

1 - « عازف الناي ، صور من بطولتنا » ، نشرت هذه القصة في مجلة الفجر ، العدد الصادر يوم 15 / 12 / 1962 ، وهي مجلة نصف شهرية كانت تصدرها اتحادية الأوراس لجبهة التحرير الوطني .
2 - « من البطل ؟ » نشرت هذه القصة بمجلة أمال ، العدد الأول ، الصادر في أفريل 1969.
3 - « من وراء المنحنى » نشرت بمجلة آمال ، العدد الأول ، الصادر في أفريل 1969 .
4 - « عرجونة » قصة طويلة نشرت في مجلة أمال ، العدد 6 ، مارس أفريل 1970 .

II - المقالة :

1 - « المرأة والحرية - تكوين الشخصية » ، نشرت هذه المقالة بمجلة الفجر ، العدد 5 ، الصادر يوم 15 / 12 / 1962 .
2 - « أسرتنا - على هامش قانون الأسرة ، وهذه النظرة الاستبدادية » مجلة الجزائرية ، السنة الثانية ، العدد 21 ، جانفي 1972 .

III - الشعر :

« أغنية جرح » ، وقد أهدتها الأديبة زليخة إلى أخيها محمد الذي اغتيل في فترة الاضطرابات السياسية التي أعقبت الاستقلال.

وهذه الآن دراسة تحليلية لإنتاجها الأدبي الذي بحوزتي ، وأَعِدُ الإخوة القراء أنني سأواصل جمع إنتاجها وتقديمه.

القـصـــة :

- عازف الناي، أو قيمة عشق الوطن :

تدور أحداث هذه القصة في بداية فترة الحرب التحريرية ، وبطلها أحد الشيوخ القرويين يدعى خليفة ، تحاول القاصة من خلاله تجسيد معاني البطولة التي يتميز بها الإنسان الجزائري عندما يجابه المحن الصعاب وعظمة ونبل تضحيته . فقد كان هذا الشيخ يحب أرضه ويتمتع باحترام الناس وحبهم « عاش خليفة يتمتع بحب الناس ، ويهب هو حبه للأرض السمراء ، الأرض التي امتصت قواه وهو فتى ، وسرى في ثراها عرقه » ، إلا أن الذي كان يشغل بال الشيخ خليفة ويثقل عنه حياته ، عدم إنجابه لولد يحفظ له ذكره ويرثه .

وعندما يندلع لهيب الثورة ، فيدهش الكثير لهذا الانقلاب المفاجئ ، ولهذا الظرف غير المعتاد ماعدا خليفة ، الذي كان شديد العلم بالطقس الجديد وسباقا للجهاد والنضال ضد أعداء الوطن ، والذين يمرغون شرفه في وحلهم ونذالتهم « وتلك كانت حياتهم لا جدة فيها ولا عبير ، حتى اهتزت الأرض ذات يوم حولهم ، فإذا هم في ذهول يكادون أن لا يفهموا ما يقال لهم . أهوال جسام مقبلة عليهم .. ما معنى أن يتجمع الرجال في الجبال؟ أن تجمع البنادق ؟ أن تقفر القرى من الشباب ؟ هذا ما لا يجهله خليفة ، إذا جهله الآخرون اسألوه ليجيبكم .. لأجل أن يخرج الروح ويذهب "القوايد" ، و"القوارد" و"الجدارمية" من بلادنا » .

وبعد أن تتقدم الثورة ، وتتحسن مراكزها في الجبال ، يصير خليفة مسؤولا عن القرية والمركز الأول للمجاهدين « فهو المسؤول في القرية ، والمركز الأول للمجاهدين أيضا فأي شرف أكبر من هذا الشرف » .

وفي ثنايا الأقصوصة ، تحاول زليخة أن تقدم حقيقة الجيش الفرنسي ، رفيق العدوان والطغيان، ورغم هول الإعداد الحربي، فإن الجيش الفرنسي قد تلقى هزائم ، ورد عنه المجاهدون بكل ضراوة وبطولة ، وحققوا انتصارات عظيمة رغم قلة الإمكانيات الحربية وعدم تكافؤ القوى العسكرية . وكان الجيش الاستعماري إذا ما أصيب بهزيمة حربية أمام جيش التحرير ينتقم من الأهالي العزل ، فيقتل الصغار ، والشيوخ ، والحوامل، والحيوان، دون تفريق؛ فكأنه أصيب بالدوار الرأسي وفقد إنسانيته ، فتجلت حيوانيته « إذ جاء يوم أقبلت فيه القوافل العسكرية بالدبابات والطائرات والمدافع ، وجرت موقعة انسحب إثرها الأبطال مكللين بالنصر .. فلم يجد الأعداء سوى أن ينتقموا من العزل والضعفاء .. فتحولت القرية إلى مجزرة رهيبة سالت فيها دماء الأبرياء والنساء .. » .

لكل بطل نهاية عظيمة .. فتلقي سلطات العدو القبض على خليفة وابنه الوحيد مصطفى الذي وهبته إياه سنون اليأس ، بعد حلقة كبيرة من البنات « وكبل خليفة وولده الوحيد ، وخيرهما قائد الفرقة بين الاعتراف أو العذاب حتى الموت .. فهو يعلم أنها المركز الوحيد للفلاقة ، ووعدهما بالإفراج والغنى إن نطقا بالحقيقة وعرفاه بالمطامير التي يخزن فيها السلاح والحبوب والملابس للثوار » .

وبعد أن لاحظ الشيخ خليفة أن ابنه مصطفى بدأ يرتجف من شدة الخوف ، وأنه قد يبوح بكل شيء إلى قائد فرقة العدو « رأى أن يخلص ابنه من حمل العار الذي يلاحقه طوال حياته ، يلوث أعماله الشريفة التي قدمها لوطنه وأبنائه ، فقال للكابتن : " إنني أخشى أن أطلعك على الأسرار ، فيشي ابني هذا للفلاقة فيقتلوني ، فاقتله حتى لا يخبرهم " ، وبرصاصة وحيدة أردى مصطفى قتيلا أمام عيني أبيه السابحتين في الفضاء العريض » .

أعتقد أن الأديبة زليخة قد وفقت في نقل جشع وجبن الأعداء ، وقدمتهم في غاية البلادة والتفاهة والاحتقار والدناءة ، إذ كيف يعقل أن يسلم الشيخ خليفة ابنه الوحيد ، والذي انتظره منذ سنوات بهذه السهولة وهذه البساطة .

وتجلت أنفة خليفة أكثر ، وصدق وطنيته عندما اقتيد إلى المركز ، وفك عنه القيد« وفكت قيوده ، وتوجه إلى الثكنة ، وقال له الكابتن .. أنت الآن وحدك حرا، فأطلعنا على كل شيء .. وستحفظ لك فرنسا سرك ،

ترعاك وتغمرك بخيرها .. فابتسم خليفة هازئا بالضابط الرومي الغبي ، قائلا له : أأقتل ابني الوحيد لأجل أن أخبركم .. إننا قوم يا كابتن لا نخون الأمانة ، فكيف نخون الوطن ؟ فلم أقتله إلا لخوفي من ضعفه أمام وسائل العذاب الجهنمية .. » .

هكذا يكبر حجم الوطن في عيني الشيخ خليفة ، ويعرض كل إغراءات العدو ويترفع عن كل غنائمه وأحواله .. إن قداسة الوطن تنقذه من ملاحقة عار الخيانة « فو الله مزقوني قطعة قطعة ما بحت بشيء يمكن أن يمس شعرة من شعرهم ، فاستشاط الفرنسي غضبا ، وصاح بجنوده : اقتلوا الكلب العجوز » .

هكذا ينتهي الشيخ خليفة نهاية الأبطال ، ويقدم صورة من الصور الرائعة التي اتصف بها شعبنا على امتداد سنوات الحرب والمقاومة .

وقد وفقت الكاتبة في إبراز صورة التضحية التي يتجلى بها الإنسان الجزائري ، كما وفقت في اختيار بطل قصتها ، واستطاعت أن تصب فيه كل معاني التضحية في سبيل الوطن.

فعلى الرغم من أن الشيخ خليفة كان لا يملك من الذكور إلا وحيده مصطفى ، فإنه لم يتباطأ في التضحية به عندما أحس أنه بإمكانه أن يكشف أسرار الثورة للعدو ، وأنه سوف لن يتحمل عذاب الأعداء .

وتختم زليخة قصتها « عازف الناي » بنهاية تحمل دلالات الاستمرارية والتواصل ، وأن الشيخ خليفة الذي يرمز لجيل ما قبل الاستقلال ضحى بأثمن ممتلكاته من أجل أن تعيش الأجيال القادمة منتصرة نشوى بفرحة الانتصار والشعور بالحرية . وبعد أعوام من استشهاده خفق العلم الجزائري فوق قبره حرا طليقا ، وفي كل مساء يجلس أمام القبر الحفيد يعزف على ناي جده البطل - الذي ظل كل مساء صامتا سبع سنوات كاملة - أغنية الحرية والانتصار .

وعلى الرغم من وجود بعض الضعف في هذه القصة من الناحية الفنية ، فإنه يمكننا أن نؤكد أن زليخة تمكنت من نقل الفكرة التي تريد توصيلها ، واستطاعت أن تجسد بعمق روح التضحية في شخص الشيخ خليفة .

فقصة الناي - بدون شك - من بدايات المرحومة زليخة الناجحة والموفقة توفيقا كبيرا وهي من بداياتها التي حاولت من خلالها أن ترسم لنفسها طموحا أدبيا يطفح بحب الوطن ، ونبذ التهاون والجبن والخيانة .

- « من البطل؟ » ، أو يقظة الوعي الثوري :

تعتبر هذه القصة من النماذج القصصية الموفقة التي كتبتها المرحومة زليخة السعودي تصور من خلالها لوحات رائعة من صور نضالنا ضد الظلم والقهر .

يتقاسم بطولة هذه القصة زوجان : الأخضر وربيعة . فالأخضر شاب مفتول العضلات تعلم اللغة الفرنسية في مدرسة قريته "جلال" ، وعندما صار شابا يافعا ، زوجه والده من ربيعة .

وبعد أعوام من حياتهما الزوجية ، يغادر الأخضر رفقة الطيب قريته إلى فرنسا روضة المال والسعادة .

أربع سنوات قضياها في باريس تسكعا خلالها بين مدائنها وأزقة شوارعها ، وقساوة طقسها وغلظة معاملها « أربع سنوات في ظلام المصانع والمقاهي يا صاحبي ، أربع سنوات .. وتشرد بين الأزقة والحانات لم أستطع أن أوفر منها شيئا أجده الآن في محنتي ، كل عرقي الذي سال امتصته الآلات الوحشية ، امتصته الليالي الحمراء الباردة » .

حتى في المستشفيات الرحب الوحيد الذي تتعانق فيه جميع المشاعر الإنسانية ، فإن الجزائري مجرد كلب حقير، تائه في الشوارع الميتة « أدخل المستشفى ، فأرتمي كأي كلب ذليل التقط من الشارع » . وبعد أن يتركه رفيقه الطيب في مشاغله وأحزانه ، وتوغله في ظلمة الحانات وتفاهات الحياة ، يتعرف ذات يوم على " أنا " الإسبانية الأصل ، والتي ولدت في مدينة وهران الجزائرية ، وهو ملقى فوق أحد الأسرة العتيقة يعاني شدة الألم وقساوة الغربة « ويغمض عينيه في أسى وألم أعمق من ذلك الذي يتصاعد من صدره ، وعندما يفتحهما يجد عند رأسه ممرضة في سمرة زيتونة تحاول التخفيف عنه ، ولم يكن يتألم من أوجاعه تلك التي تعرفها ، ومن هذا كان يعز عليه دائما أن يجدها إلى جانبه تبتسم له ، وتحدثه بتلك الفرنسية (الركيكة والتي تدل عن تاريخ حياتها كله) » .

إن اغتراب "أنا" وأحزان الوحدة التي تطرقها بعد أن فقدت آخر شيء تطمئن إليه ، وشدة آلام الأخضر وضياعه ، وشعوره بالذل والإهانة التقت جميعا لتقرب قلبيهما « كل منهما لا يحب موطنه الأصلي ، وقد جمعت بينهما الظروف » . ولم يكن أي شيء يشد الأخضر لبلاده سوى

أسطوانة عربية اشتراها ذات يوم ، هذه الأسطوانة كانت تمثل بالنسبة إليه الضمير الواعي الذي يؤنبه ويذكره ببلاده وزوجته وأولاده وبمأساة أصل قريته وشعبه ، إنها العلاقة الروحية التي تشده بعنف وتحافظ على نقاوة أعماقه ، وأصالة جذوره ، ولذا كان يفرضها على فتاة الاسطوانة ، في أية حانة يدخلها « لم تكن تجيب طلبه إلا بعد خروج آخر زبون ، فتطلق عليها الإبرة وتتركه يصغي ويصغي ، فيعود تدريجيا إلى ما وراء البحر ، إلى القرية الصغيرة يسرح فيها الرعاة على مرتفعات التلال ، يغنون الأغاني ، ويرمون الحصى فتنطلق كسهام تستقر في أحشاء الساقية ، ويحس بابتسامة الحبيبة تمس جبينه المتعب ، وقلبه ينبض في صدره ».

وبعد أن تنتشر انتصارات الثورة ، ويكثف حماتها المخلصون حملات الشرح والتوعية بين العمال ، يبدأ الأخضر في استعادة ضميره ، ويتفقد أسباب ضياعه وغوصه في مستنقعات العبث واللاجدوى « وعلى كلمات الفجر ، استيقظ ضميره كله ، استيقظ في لحظة هائلة ».

ويقول الأخضر ، بعد مدة من استيقاظ ضميره وشعوره بضرورة الالتحام بقاطرة الثورة والمشاركة في تحرير بلده من الاستعمار ، إلى مطارد تلاحقه العيون أينما حل « منذ أيام ، وهو يشعر بأن الحلقة قد ضاقت عليه ، فهروبه من "جرونوبل" ثم هروبه إلى باريس لم يكن يتركه بمنجاة عن الشبهات ».

ويتجلى استيقاظ الأخضر وعودة الشعور الوطني إليه في الفقرة التالية : « إنها مهزلة أن يحب أهل هذا البلد النور لأنفسهم ، ويزرعون في الجزائر الظلام والدماء والموت ، أحس بخناجر حادة تمزق قلبي قطعا صغيرة وأنا أذكر أن في بلادي قرى تحرق ، وغابات عذراء تذهب طعم النار إن في صدري نارا آكلة سودت نظري لهذا البلد ، وأكلت السل ليحل محله سل الحقد نحوهم ».

ربيعة التي تتقاسم مع زوجها الأخضر بطولة القصة ، فبعد رحيل زوجها تظل بمعية ولديها وحماتها آمنة ، ومنذ لحظة الفراق تشعر بمقت شديد نحو آمنة ، لأنها ترى فيها السبب في زواجها من ابنها الذي لا تحبه ولا ترغب في الزواج منه ، بل زوجت إليه عنوة « لم تحب الأخضر ، ولم يحبها ، كانا مجرد رجل وامرأة ، أجبرهما الغير على أن يكون كل واحد منهما قيدا لصاحبه ، كان يتركها ويناجي "زيتونة" التي حرم منها ، وكانت

تنساه ، ويذكر في "خالد " العالم الذي وعده أبوها ، ثم نكث وعده بعد أن مرت سنوات على غيبته ».

وبالرغم من المحن وقساوة الحياة في ظل الاحتلال ، فإن ربيعة تولت أمر ولديها وحماتها واجتهدت في صنع البرانس إلى أن صارت أمهر امرأة تتقن هذه الصناعة في قريتها "جلال" « فعليها أن تسرع حتى تنال الثمن ، فتصنع به غطاء لطفليها قبل حلول الشتاء بثلوجه ، ولم تقبل العمل حتى أخذت أجرة ما تعمله ، وقبلت صاحبة البرنوس ، فلا أحد في " جلال " يتقن عمله كربيعة ».

وتمضي الأيام ، وتتسع بقعة الحرب وانبعاث شعل الوطنية في أعماق الوطنيين ، فتبدأ ربيعة إدراك معنى الثورة ، وضرورة الواجب ، وإمكانياتها التي يمكنها أن تخدم بها الغير « إنني أريد أن أؤدي واجبي نحو الثورة ، حقا أنا أتحمل مخاطرة في جلب الماء الكثير من الوادي الذي تقع على جانبه الأيسر رغم تعقب الفرنسيين لنا وأغسل ثياب المجاهدين ، أغسلها داخل الكوخ وعندما تجف يتكلف المسؤول بحملها إلى الإدارة التي لا يعلم أحد بمقرها ».

وهكذا اكتمل البناء الثوري في الوسط الشعبي ، وامتد إلى أحيائنا وأعماق أريافنا ، وتعاضدت القلوب حول هدف واحد من أجل أن تحيا بلادنا الجزائر ، خفاقة البنود ، نقية الأجواء . وفي مكان آخر من القصة ، تبدع الأديبة زليخة في وصف الحيوانية والهمجية التي يتصف بها أفراد الجيش الفرنسي ، إنهم يتصفون بالصخب ، وهول الأعداد ، وإن روح الشر والانتقام رابضة في أعماقهم يحصدون الأهالي العزل دون تمييز بين المرأة الحامل أو الرجل المسن أو الطفل الرضيع، يبيدون كل شيء ، يخربون ، يحرقون المنازل والمزارع ، والغابات ، تبرأت منهم الإنسانية فصاروا أكثر من الوحوش افتراسا وبطشا .

والأديبة زليخة عندما تعمد لنقل هذه الصور ، فإنها تكون بذلك قد نقلت أشياء واقعية ارتكبها الاستعمار ، وكم هي كثيرة في تاريخه الأسود ؟ نقرأ هذه الفقرة ، ثم نغوص في أعماق طفولتنا ، أو حكايات آبائنا ، أو أقاربنا ممن عايشوا فترة الاحتلال، أو فترة الحرب التحريرية «لكن ضجيجا وصراخا انبعث فجأة يهز القرية وساكنيها ، ولم يمهلها الوحوش لتعرف بنفسها الخبر ، فقد جاؤوا إليها وساقوها مع ابنتها إلى الساحة مع عشرات من ساكني القرية ، كانت العيون الحمراء تلتهب في جنون ، فتحطم

كل ما يقع أمامها ، وتنهال الركلات على النساء والشيوخ والأطفال، فأصبحت الدور خالية ، ولم تتساءل ربيعة عن كل الرجال القادرين أين يذهبون ؟ فهي تعرف مقرهم . هكذا دائما بعد كل معركة لا يبقى في القرية غير النساء والشيوخ ، لكنها رغم مرورها بتجارب كثيرة من هذا النوع تحس اليوم برجفة شديدة في جسمها .

وقيدت أيديهن إلى الوراء، وكان الشيوخ مفتوحي الأعين ينظرون في فزع ورعب أيديهم مكبلة والعساكر المتوحشون الملوثون المجرمون يرتكبون أشنع جرائم عرفتها الأمم ، وهي تحارب لأجل حق مسلوب . لم تفقه ربيعة ما حدث إلا بعد أن وجدت نفسها عارية ، وابنتها تبكي عند قدميها ، ونساء مثلها أفقن يلملمن ثيابهن في رعب وذل ما عرفته أبدا ، وصبايا نزع منهن أعز ما يملكن أمام الجميع، أمام الشيخوخة المهيبة، أمام الطفولة المذهولة إنها لا تعرف معنى كل هذا ، ونهضت ربيعة في ذل ما عاشته من قبل أبدا ، رغم بقائها زوجة مهجورة ، وهي في عز الشباب، كان ثمة شيء يمزق صدرها ، وسيظل يمزقه ما عاشت، العار، العار الذي أرقدها عارية ووحش لا تعرفه يمزقها في مكان عفتها، عندما أغمي عليها ولم تفق إلا عندما تركوها بالعراء وحيدة إلا من جريمة الأنذال ذليلة حتى أعمق الأعماق ».

لقد وفقت الكاتبة توفيقا رائعا في إبراز ما تريد أن تعبر عنه وأن توصله إلى جمهور القراء وإلى الأجيال القادمة ، وحدثتهم بصدق عن جرائم الاستعمار ، وأبشع الأعمال التي ارتكبها ضد شعبنا ، ومرغ شرفنا وأعز كنوزنا في دناءته ، ووضاعته ، ووحله .

عار يظل يلاحقنا ما دمنا نحن لهذا الجرثوم، ولحظة يقظة تحذرنا من أعدائنا في أي مكان وزمان ، لذلك سيطرت هذه الحادثة على كل أحاسيس ربيعة ، وصرفت تفكيرها عن كل القضايا ، وحصرته في هذا العار الذي لوث حياتها ، وترك في أعماقها جمرة لا تطفئها بحار العالم ، إنه زرع في أحشائها جنينا روحيا ، ويجب أن تتخلص منه في أقرب وقت ، لتطهر أعماقها ، ما عادت ربيعة تفكر في شيء ، لا في الكوخ ، ولا في القطعة التي زرعتها وبدأت تخضرّ ، ولا في ولديها ، أخذت تفكر في ما لحقها ، وما لحق غيرها ، وبدأت تنتظر كأنها على علم ، بأن النتيجة ستكون جنينا عدوا ، يتحرك في أحشائها لم تنتظر حتى يتحرك ، فقد عرفت الأعراض وقررت أن تجهضه كما فعلن كل اللواتي أصبن مثلها .

وأسرعت ربيعة إلى بيت " حدة " العجوز العالمة بسر مثل هذه الأعراض ، فتشير العجوز حدة أن تستعمل قليلا من " التوتياء " مع أربعة أقراص من الأسبرين ، تغلي في الماء ، وتشربها فيسقط الجنين حالا ، لكن ربيعة لم تحسن الاستعمال ، فأكثرت من التوتياء ، وعندما شربتها ، طارت روحها الطاهرة مودعة جسدها الهامد البارد « انتهى الأمر : إنها ماتت يا بنيتي !! واهتز عويلها يشق القرية ، فأقبل أهلها فزعين ، قالت العجوز حدة ذلك لنزيهة ، وهي ترى ربيعة ملقاة جثة هامدة على الحصير البالي وطاسة التوتياء ما تزال لها بقية » .

هكذا كانت نهاية نهاية درامية ، تخلصت من خلالها من كل جرثوم تركه في أحشائها الأنذال .

وإذا كانت نهاية ربيعة تبدو انتحارية وأن الأديبة المرحومة زليخة السعودي حاولت أن تتخلص منها بأية طريقة ، وكان الأجدر بها أن تبحث لها عن نهاية في مستوى وعيها الثوري وتقديرها لقيمة وطنها وشعبها ، فإنها وفقت في اختيار نهاية الأخضر التي أكدت من خلالها على تطور الوعي وتجديد حب الوطن ، فكانت نهاية في مستوى التضحية البطولية « كانت النيران تمتد إلى خزانات البترول ، فما مرت دقائق إلا وارتفعت إلى أعالي السماء ، واستمر الأخضر يرقبها في نشوة وعلبة الثقاب التي أشعل بها القنبلة المحرقة ما زالت في يده !! سيهتز ديغول وتهتز فرنسا ، سيسمع العالم أن الثورة الجزائرية ليست مجرد عصابة للمتمردين! كان زملاؤه القلائل قد تفرقوا إلى أمكنة مجهولة، وهو وحده سقط صريعا تحت نيران مسدس عدو وجهه إليه ، وهو يحاول الإفلات بعد تطويق المكان » .

هذه باختصار قصة « من البطل ؟ » هل ربيعة هي التي أقدمت على عملية شبه انتحارية قصد تطهير بقايا الأعداء الذين مرغوا شرفنا وشرف الكثيرات في عفونتهم ونذالتهم؟ أم الأخضر الذي استيقظ وعيه ، وعاد إليه شعوره الوطني ، فأحب بلاده وأصله ، وناضل من أجل تطهير بلاده من ظلم المستعمرين ، وسقط شهيدا على إثر عملية فدائية جريئة ، دمر خلالها مصنعا بتروليا ؟

لعل الكاتبة كانت تريد من النهايتين أن تؤكد لنا أن كلا من ربيعة والأخضر بطل الأحداث !! لكن بعد قراءة القصة والوقوف عند كل نهاية يتضح لنا أن الأخضر أكثر بطولة وأنه يحمل الوعي الثوري المستمر أكثر من ربيعة !!

وفي القصة مواقف رومانسية أحسنت الكاتبة توظيفها وتسخير المظاهر الطبيعية ؛ من بين تلك المواقف تساؤلات باهية ، حبيبة الطيب الذي التحق بصفوف المجاهدين ، وشعورها بحزن النجوم التي اختفت وراء كتلة الغيم « لم تضحك النجوم ؟ وضحكة العذارى قد قتلت على الشفاه ، وأصغت النجوم إلى أسئلة باهية ، فماتت ضحكتها ، واختفت وراء السحاب، طارئ مهما يكن لا يقارن بكثافة السواد الذي يغطي القلوب ويمزقها ».

من النواحي الفنية للقصة ، إن الكاتبة اعتمدت على الأسلوب السردي ، وهي ناجحة وبارعة في استخدامه ، وتزاوج بينه وبين أسلوب التداعي .

وفي القصة اهتمام كبير بالوصف الدقيق « ورفعت العجوز عينيها .. وهي تمضغ اللقمة اليابسة بجهد وتعقبها بجرعة اللبن ، وحدقت بهما في ربيعة .. »

بقي لنا أن نشير أن حوادث القصة تبدو أضخم من حجمها ... وربما كان موضوع القصة يصلح لرواية طويلة أكثر من قصة قصيرة لا يتجاوز عدد صفحاتها الثلاثين .

- « قصة عرجونـة » ، أو الثمرة الدائمة والجيل المتجدد :

يمكننا أن نعتبر - تجاوزا - هذه القصة بما يسمى القصرواية ، وذلك لعدة اعتبارات فنية محضة : لموضوعها الذي لا تستوعبه قصة قصيرة محدودة الحجم والصفحات ، ولحجم المدة الزمنية التي تعود إلى ما قبل اندلاع الحرب التحريرية وتنتهي بعد الاستقلال ببضعة أعوام ولتعدد الأحداث أيضا ، والتي يشعر القارئ أنها لا تزال تحتاج إلى تفصيل وتقديم وملاحقة . أما الفتاة عرجونة ، التي جعلتها القاصة عنوانا لقصتها ، فأعتقد أن القاصة لم تمنحها حقها ، ولم تجعلها جديرة بأن تتصدر الأحداث ، إنما تاهت الكاتبة وراء عيشة زوجة الطاهر ووالدة عرجونة ، وكذلك زينب ، في حين أنها نجحت نجاحا كبيرا في توظيف معلم التاريخ في المواضع المناسبة .

الحنان الدفاق الذي منحته المعلمة لعرجونة ذات الاثنى عشر ربيعا كان العامل المباشر في ذكر المعلمة لأحداث القصة ، فينطلق خيالها

الخصب إلى سنوات ماقبل الثورة ... إلى قريتها الصغيرة ويستقر في بيت الطاهر ، حيث تتبع مراحل حياته وتطور أسرته .

ومن خلال عرجونة - التي تجسد ضياع جيل من الفتيات ، ومعاناتهن للواقع القاسي رغم صغرهن وبراءتهن .. فإن الاستعمار هو الوحيد المسؤول عن هذا التشرد والتمزق ، فهو الذي حرمهن من دفء آبائهن « عرجونة ليست وحدها، هناك أخريات فقدن الآباء ... عشر ... يا إلهي عشرين ، أربعين ! يا للرقم الفظيع ! وفكرت في رعب وعيون الأطفال تحدق في » . وتعد عيشة زوجة الطاهر أجمل فتيات القرية ، وأكثرهن احتراما عند الرجال ، فهي عندما كبرت طلب منها أن تختار زوجا لها من بين فتيان القرية ، تصفها الكاتبة زليخة « هناك في قريتي كانت "عيشة". غادة جميلة ، عيون زرق في صفاء الصيف ، وشعر ذهبي ، وقد مائس يتهادى في بشرة بيضاء تضيء كالنور .. شعر الجميع بأهميتها في وسط لا يلد منذ زمن طويل سوى السمر ، فدللوها لجمالها وتركوها ترعى أغنامهم وتلهو بين المراعي ، وهي في أوج الشباب ، ثم منحوها حرية الاختيار » .

عندما سمع الطاهر أن "عيشة" اختارته دون بقية الشباب الأنيقين والذين عادوا من ديار الغربة يرتدون البدلات الجميلة ، ونزعوا العمامة البيضاء من فوق رؤوسهم ، يقرر في أعماقه أن لا بد من بيع بقرته الوحيدة، ويشتري بثمنها "لعيشة" قرطا ذهبيا ، ولتكن أول امرأة تتزين بالذهب في قريته الصغيرة ، ولما قبل بها كانت بقرته العزيزة قد تحولت إلى قرط ذهبي ما لبسته قبل عيشة في قريتنا ابنة امرأة . وتمر الأعوام على زواج عيشة بالطاهر ، الفلاح الجاد الذي يحب أرضه بعنف ، ويسقيها بقطرات عرقه أكثر من غيره ، ولم تنجب له عيشة غير البنات اللواتي ذهبن ذات عام ضحية وباء .

وعندما تصاب القرية بجفاف وقحط ، وتبدأ مظاهر المجاعة تفتك بالسكان ، يقرر الطاهر مساعدتهم ، ويتقاسم معهم كل ممتلكاته من الحبوب « وفي فزع هز قلب الطاهر هزا رأى بعينه أسرا كاملة تقتات بالحشائش ، وبلحوم حيوانات ركبوها ، فأخرج حبوبه المدفونة في المطامير ، وقد سرى فيها العفن ، فأعطاها نكهة خاصة شمها الجياع الذين يحبونها حتى أيام شبعهم ، فأسرعوا إليه قسم بينهم آخر حبة ، أخذ نصيبه » .

وعندما اشتعلت نيران الحرب التحريرية ، ووصلت أخبار الجهاد المقدس إلى القرية كان الطاهر من المتحمسين للانضمام إلى صفوفها ، ومستعدا أن يقوم بكامل واجبه اتجاه بلده وشعبه « استيقظ ذات صباح على أنباء غريبة بدأت تعصف مع العواصف حولهم ، ثم وصلتهم مع قدوم أول فرقة من المجاهدين استضافهم وجعل يصغي في إعجاب ودهشة إلى كلامهم الحماسي فلم تنقصه الحماسة وفكر في المسؤولية الكبيرة ، لم يكن عاجزا أمامها ، تحمل أعباء أسرته وهو طفل ، حمل الأرض التي رحل عنها الآخرون ، جعلها كبيرة خضراء كحديقة من الجنة » .

وعندما يلتحق الطاهر بالجبل ، يتحول إلى بطل مغوار ، يقود العمليات الفدائية ، ويشن الهجومات على مراكز العدو .

وتتناقل أخباره وانتصاراته على جيش العدو الكثير العدة والعدد ، فتسري هذه الأخبار في أعماق عيشة ، ويغمرها فرح كبير « فقد صارت زوجة المجاهد الكبير في الناحية ... فتسمع معهم في إعجاب وفخر أخبار اقتحامه المراكز الضخمة يفجر أركانها ، ويستولي عليها » .

وتمضي الأيام ... وتصبح عيشة مجاهدة ، تخدم الثورة بإمكانياتها ، ومن موقعها « أقتمها في المراعي الطعام الثوار ، وقمحها في المطامير مع السلاح لدفاعهم ، ونسجت الألبسة لهم ، وأوت المرضى ثم أصبحت هي المسؤولة عن الجميع في مملكتها » .

نتيجة لوشاية أحد الخونة ، الذين باعوا ضميرهم وإحساسهم لخراب الاستعمار ، تدمر القوات الاستعمارية كامل بيوت القرية ، عدا منازل الخونة ، لقد ظلت شاهدة على خيانتهم وولائهم للغبن والدناءة .

ويلقي جنود الاستعمار القبض على عيشة زوجة الطاهر المجاهد البطل ، الذي شرب قوات العدو كؤوس الهزيمة وعلمها كيف ينتصر الحق، وتطلع الشمس لتعذب عيشة عذابا قاسيا فظيعا ، وتسجن داخل حجرة مثلجة.

وبعد مدة ، تجد نفسها تحت الإقامة الجبرية ، في إحدى محتشدات العدو ، وبالرغم من الرقابة الشديدة وملاحقتها ، فإنها تعود لممارسة نضالها البطولي ، بمهارة وذكاء حادين . كانت رغم السياج الذي تطوقت به القرية تحمل السلاح ، الذي يأتي به بعض الذين يستيقظ ضميرهم ، قبل فوات الأوان بشجاعة نادرة ، كانت تحمله وسط الصوف ، وتذهب به حتى العين

لتغسلها ، وهناك تجد من يأخذه فتعود مرتاحة البال ، سعيدة بخداعها للسلطات التي تحرسها ليلا ونهارا ، وعندما سمعت خبر استشهاد زوجها الطاهر ، فإنها لم تبك ولم تتألم ، بل أطلقت زغرودة عالية متحدية كل قوات العدو.

وعندما أشرقت أنوار النصر وعمت سماء الوطن فرحة الانتصار وتغاريد الاستقلال، وجدت عيشة نفسها من سكان إحدى المدن الرابضة عند أقدام الأوراس بكل كبرياء وشموخ .

حينما تقدمت سنوات الاستقلال، وبدأت المبادئ تصفر وتخبو من أعماق الرجال ، وبدأت تظهر على السطح الفقاقيع والطحالب ، وجدت عيشة نفسها أمام عباب من الأطماع والمغريات .

أرادت أن تكون ملفا لزوجها الطاهر الذي اختطفته رصاصة جندي غادر، وهو يؤدي واجبه المقدس ، اشترط الكتاب مقابل ذلك أن تتنازل لهم عن عرض زوجها الشهيد، بدأت خناجر أصدقائنا تتصردها « إخوان زوجها كانوا يقابلونها بالترحاب ، يترحمون على البطل الشهيد ثم ينسونه ، يحدقون في جشع وجهها وجسدها وينسون أوراقها ، أمامهم يقولون لها كلاما رفضت أن أصدقه عندما حكته لي » .

ويتجلى أيضا جشع الخونة الحمقى ونكرانهم الحفاظ على الأمانة في هذا الموقف « وإخوان الطاهر تقول عيشة ، يخونونه ، يساومونها على عرضه، انقلبوا هم أيضا، لبسوا البدل الفخمة واستولوا على أملاك المعمرين، تحولوا إلى برجوازيين صغار ينزلقون وراء لذتهم الخاصة » .

في خضم أوحال هذا الواقع تكون عرجونة تواصل دراستها بجد وتفوق، فدرجاتها في قسمها هي الأحسن وعطف مدرستها هو وحده الباقي يتجدد أمامها في الجيل الطالع المتعلم والذي يكون مبادئ قارة ، لا تدنس بالخيانة « إنها تواصل سيرها في شجاعة وتفوق ، درجاتها في كل عام هي أعلى الدرجات في المدرسة ، آه ... راحتي الوحيدة درجاتها» .

إن تفطن الكاتبة لدور المعلمة ، الذي وحده يقدر على انتزاع جذور الخيانة والمكر والأرواح الفاسقة من أعماقها ، يجعل الكاتبة مربية اجتماعية، وهي التي كانت لفترة طويلة تمارس مهنة التدريس بشرف ووقار . أمام شدة الضربات المتتالية ، تستسلم زينب ، وتهمل أولادها ثم

عيشة ، التي لم تستطع أن تقاوم إغراءات أصحاب البدل الأنيقة والسيارات اللامعة وتزوجت الخائن الذي كان سببا في حرق مزارعها وتدمير قريتها « تزوجت ، أعلمت بمن ؟ إنه صاحب الفيلا والسيارة الفخمة الخائن الذي باعنا ذات يوم للسلطات العدوة ، تزوجت خائننا .. يا إلهي ، هي أيضا باعها فأحرقت قريتها ، هل نسيت ذلك ؟ إنها تزوجت الحياة التي يوفرها لها » .

لعل الكاتبة من خلال هذا الموقف تريد أن تؤكد الممارسات العدوانية التي يوظفها الخونة والرجعيون .. حقا ضربات قوية ، حين يسدون أبواب الإدارة أمام المواطنين ويلغموا مكاتبهم بالشر والخديعة ، وهذا كي يستسلم الأحرار مهما كانت مقاومتهم .

وقد وفقت الكاتبة في تصوير أساليبهم وفضحها .. ولم يبق إلا أن يقتلها من الأعماق الثوريون والمناضلون المخلصون لمبادئهم السمحة ، ولبلادهم الغالية « لماذا يتزوج الخائن عيشة وراثة غير شرعية ؟ لماذا تحمل زينب أولادها يملؤون البيت في حاجة إلى رعاية » .

ختام القصة يكشف لنا سر إقدام عيشة البطلة المجاهدة على الزواج من الخائن صاحب الفيلا الجميلة والسيارة الفخمة ، والذي باع القرية للاستعمار ، وكان سببا في إحراق مزارعها وتدمير منازلها « قالت عرجونة للمعلمة عن ولادة أمها ، لا بد أن فيه شبها من أبي وإلا ما كانت تسميه الطاهر » .

هكذا تنتهي قصة عرجونة بإنجاب عيشة ولدا تسميه الطاهر ، الذي يرمز لاستمرار الطاهر البطل المجاهد ، والذي لم يترك ذكرا يتابع نضاله وينشر المبادئ التي استشهد من أجلها بالدم والسيف .

وفي القصة الكثير من القضايا ، تريد الكاتبة إثارتها وإبرازها للمرايا ، لكي تتطلب علاجا سريعا . وقصة « عرجونة » قصة ناجحة ، بساطة لغتها أكسبتها جمالا ، ضمنتها الكاتبة أصالة ثقافتها العربية السليمة واستفادتها من التراث الشعبي الوطني ، مثل قولها « أما الأب فقد كان طيب القلب مفتول العضلات يحمل في جبينه غصن أخضر يشبه النخل المولودة».

وتستمد أحيانا صورها البلاغية من بيئتها « الذين بصقت على جسمهم الجنسي في اختفاء ، تحولوا إلى زوائع جعلت تهزأ من حياتها » .

وأيضا هذه الصورة لقامته العملاقة لا تعد ميزة في وسط يكابر الرجال الصفصاف بقاماتهم الفارعة. وخبرة الأديبة بحياة الريف خبرة أهله، فهي تتحدث عنه وعن أعمال الفلاحين وكأنها تلتقط صورا فوتوغرافية ، تقول « ومجيء البنات نزلت من عليائها وصارت تحمل الشبكة كل أسبوع على ظهرها أو على حمار تستعيره من الجيران لتملأها بالحشائش الجافة والحلفة وأغصان الأشجار اليابسة » . وتتخلل القصة لوحات رومانسية « حملت معاناتي معي وأحزاني عويل الرياح حولي ، فخرجت أشارك الطبيعة أحزانها ، وكانت تبكي كثيرا ».

هذا باختصار سريع ملخص القصة "عرجونة" للأديبة المرحومة زليخة السعودي ، أملنا أن تتاح لنا وقفة أخرى مع نتاجها الأدبي ، وآنذاك سيطول الحديث عنها : قصة ناجحة فلماذا هذا الإهمال ؟ ولماذا كل هذا الصمت ؟

- قصة « من وراء المنحنى » :

بطل هذه القصة طبيب ، التحق أثناء الحرب التحريرية بصفوف الثورة في إطار مهنته وبعد الاستقلال ينقطع عن مهنته ، ويحاول أن يتحول إلى مناضل تقدمي عن طريق الكلمة ، بتوجيه من أحد رفاقه ، لكنه تصادفه الكثير من الهموم والمشاكل ، فقلمه يعانده ، وأفكاره تتجمد في رأسه والأوراق البيضاء أمامه منذ ساعات « وتململ في مقعده ، مسكين ما أشد ما يعاني وحده ، لحظات يعجز عن الكتابة ، وتحرق كل الأقلام ، فلا تخط حرفا » .

ويثير قرار انقطاعه عن مهنة الطب وتحوله إلى مجرد كاتب بسيط لا يعرف أهو قادر على النجاح في هذه المهنة أم إن مصيره الفشل الذريع ، غضبت زوجته المتعلمة « بدأت ثورة سخطها في اليوم الذي أغلق فيه العيادة ، وقرر أن يتبع فكرته ، وأن يدخل ميدان الصحافة مفكرا ومعلقا وباحثا ، ليحول اللهب في صدره إلى كلمات نارية تندى عقول الملايين وتقودهم في طريق الثورة الجديدة ، التي تحتاج إلى مقومات جديدة » .

ويكون رد فعل زوجته عنيفا ، فتضرب عن الطعام بضعة أيام وتسخر من تصرفه الطائش ، إذ كيف يترك عمله المعبد ، ويرغب في مهنة يجهل عوالمها .

وتمر مدة يشعر بعدها بالتعب والفشل في عمله الجديد ، فيكشف عن تعبه لوالده « ألا ترى أبي ما وصلت إليه ، إنني أشعر بالتعب ، وأفكاري التي أعددتها سنوات لأبعثها اليوم تتبعثر وتتناثر حولي دون أن أستطيع شرحها ، إنني متعب ، متعب جدا !! » .

يؤنبه والده ، ويتهمه بعدم الإنصات لنصائحه ، وإنه يريد أن يجرهم في طريق مظلم « إنك تجرنا إلى طريق مظلم شائك أردت أن أجنبك إياه، بتعبي وعرقي لأجل تعليمك ، لكنك اندفعت ، ولا أعلم بعد إلا أن هذا الاندفاع شر لك ولنا !! » .

وتتوارد إلى ذهنه سنوات الثورة ، وكثرة الأشواك التي يغرسها أعداء الثورة في طريق مسيرتها وترسبات القرون العجاف ، فيرى أن من واجبه أن يتصدى للأعداء الذين يغتالون ثمار سنوات الحرب « الثورة ، ثورة ثماني سنوات ، وخالقة الرجال الحقيقيين ، تتنفس بقوة في الأعماق في شرايين الطليعة لكنها تجد الصخور ، تجد مخلفات قرون قاحلة ، فمن واجبه كإنسان طليعي أن يشرح كل هذا الغموض ، كل ما يحاول أن يخرجه المخربون من معطيات ثورة المليون » .

وبعد أن يكتشف البطل استحالة نضاله بالكلمة يستيقظ من غفوته ، ويقرر في أعماقه العودة إلى مهنته ، أن يفتح عيادة في الريف ويباشر عمله هناك ؛ لأن الفلاحين والتعساء في حاجة إلى عمله ، وإلى إرشاداته الطبية « وعاد يفكر في المقال الفارغ ، وفي نفسه المتعبة ، وكومضة من البرق جاءته الفكرة التي ظل يبحث عنها هناك في الريف الذي أنجبني ، وفي كل قطعة من أرضه الطيبة ، توجد تعاسة ، وقلوب مظلمة وأجساد ذبلت فيها الحياة » .

وعندما يذكر رفيقه الذي وجهه للكتابة ، فإنه يقرر إنه لن يبالي به ، ولن يقدر على ردّه عن عزمه وقراره في العودة إلى مهنة الطب ، ويفتح عيادة في الريف ، لتكون محطة للجرحى والمرضى « إنني أجد نفسي اللحظة فقط ، لم أكن غير تائه يوم اخترت ترك مهنتي كطبيب واللجوء إلى القلم وحده ، إلى الكلمة التي أنجبها بعد أن أتمزق في صمت حجرة مغلقة ، لهذه اليد سيكون تأثير ورسالة ، وهي تمتد لتضمد جرحا أو تعطي حقنة ، فيسري الوعي مع سريان الدواء » .

لعل الفكرة الرئيسية من هذه القصة أن الكتابة تحاول تأكيد حقيقة ، هي أن الفرد الإنساني لا يمكنه تأدية كل الأعمال ، وقد يغتر بعمل ، وهو لا

يصلح له وبعد انتهاء مدة من الوقت يكتشف خطاه بنفسه ، وعليه أن يعود إلى العمل الذي يناسبه .

واهتمام البطل بالريف التفاتة رائعة من الكاتبة ، نحو الريف الذي قدم الكثير أثناء الفترة التحريرية ، فالعناية به ضرورة تفرضها العدالة الاجتماعية النابعة من روح ثورتنا وتاريخنا .

وفي القصة شطحات رومانسية وجدانية ، تشارك الطبيعة بها فرحة البطل ، ونصاعة قراره « ... وفي الحديقة ، كانت عيناه تودعان كل قطعة فيها ، فاستقرتا على شجرة الورد المقطوعة ، فأدهشته أن مكانها غصنا أخضر بدأ يورق أوراقا خضراء » .

هذه قصة "من وراء المنحنى" ، التي خطت بها زليخة خطوات في ميدان الكتابة القصصية ، وبالتأكيد فإنها تحتوي على كثير من عناصر نجاح القصة .

اهتمام الأديبة بقضايا المرأة الجزائرية :

إضاءة : من لا يحترم نفسه لا يجد من يحترمه ... ومن لا شخصية له لا ينتظر أن يكون له الآخرون شخصيته .

ز، س

من خلال النماذج التي اطلعنا عليها يبدو أن المرحومة زليخة كانت تؤرقها قضية المرأة الجزائرية وتشغل بالها كثيرا ، يتجلى ذلك من خلال ثنايا السطور والفقرات المملوءة غضبا وانشطاطا في مقالها - المرأة والحرية - والذي نشرته مجلة الفجر ، تضع زليخة أصابعها فوق أخاديد عميقة من واقع المرأة عندنا ، تقول في مقدمة المقال - أن كثيرا من فتياتنا لا يفهمن من التطور والثورة سوى كلمات جوفاء يرددنها كلما سنحت الفرصة، أوزارهن زائر ، فتقول قائلة : أجل يجب أن تكون المرأة حرة ... أن تتقدم .. أن تكون مثل الأوروبية تماما ... أو أفضل منها ... ماذا ينقصنا نحن لنكون مثلها ، أن أدمغة الرجال ما زالت في حاجة إلى ضربات أخرى حتى تعترف بحقوقنا » .

وفي رأي الأديبة زليخة أن الفتاة التي تؤمن بمثل هذه الأفكار وتدعو إليها في بلاهة وخلاعة فإنها لن تقوم بعمل عظيم ، ولن تكون

ممثلة، ونموذجا للمرأة الجزائرية التي لديها أصالتها ، وتراثنا تستمد منه ما تشاء من الروائع ، هذا الصنف من البنات اللواتي لا يفهمن الحرية إلا عبارة عن ارتداء الخلاعة ، والتجرد من كل حياء واحتشام ، فيقلدن النسوة الأوروبيات حتى في شذوذهن ، تقول زليخة « إن فتاة لها مثل هذه الفكرة ، لا يمكن بأية حال أن تقوم بعمل مجد ،، أو أن تمثل المرأة الجزائرية .. هذه الفتاة التي تفهم من الحرية ، ارتداء أحدث الأزياء ، والترضن بالفرنسية .. والرقص في الشارع ، ومن لا يعجبه الأمر أمامه الجدران » .

وتقول الأديبة زليخة عن الفتاة الجزائرية التي اتخذت اللغة الفرنسية لغة لحديثها ناسية ومهملة لغة أجدادها ، ظانة أنها لغة خشنة لا تعبر عن رقتها وحريرها - وزليخة تربط بين الشخصية واللغة في هذه الحالة - وأدركت مبكرا الشخصية لدى الإنسان الجزائري ، خاصة المرأة الجزائرية ، حتى لغتها الابن الأول الذي تعتز به ويمثلها تتنكر لها ، لأنها لغة قديمة ، متأخرة ، لا موسيقى لها ، ولا جرس ، لا يهمها من اللغة أو الشخصية إذا كانت تنعم بالحياة الممتعة بالنسبة لها ... » .

هذه الفتاة في رأي زليخة قد انفصلت عن كل مقوماتها الحضارية ، والعقائدية ، وتشبثت بقشور المدنية الأوروبية الزائلة « هذه الفتاة التي تنبذ كل ما يربطها إلى واقعها ، وقوميتها ودينها ...

وتندفع في جنون إلى قشور الحضارة تزين بها نفسها الزائفة ... فكيف تكون الشخصية تمثلها هذه الفتاة الممسوخة الفكرة والرأي، فهي ترى الحياة بعين أوروبية » .

وترى زليخة أن مثل هذه الفتاة العفنة المتنكرة لأصالتها ،، وقوميتها، والمنتفخة بقشور المدنية الغربية .. فهي لن تدرك جوهر الحضارة الأوروبية ، لأنها لا تستطيع أن تتوغل إلى جذور هذه الحضارة ، وتدرك حقائقها .. إنما تظل تتحرك في المحيطات العفنة بؤرة الشذوذ ، بعنف تؤنبها المرحومة زليخة بقولها « إنها تظن أنها بكعب حذائها العالي قد بلغت السماء .. وهي تتمرغ في الوحل ، في التراب .. فكل ما أخذته قشور وزيف ، إذا نحن ، وضعناه في ميزان الثقافة والحضارة كان فراغا ، فلا عجب أن يلفظها المجتمع في النهاية كقشرة من القشور ، لا ريب أن يقول البعض مادامت هذه الفتاة السخيفة لا تمثلنا فلماذا نتحدث عنها ؟ لننبذها نهائيا .. حقا إنها لا تمثلنا فلماذا نتحدث عنها ؟ حقا إنها لا تمثلنا، لكنها تسيء إلينا تلطخ الثياب النظيفة ببقع سوداء » .

إن زليخة السعودي عندما كتبت بحدة وجرأة عن جنسها ، وحاولت أن تضع الدواء مكان الداء ، وأن تتحسس المكان المأفون ، إنما قالت هذا عن وعي كامل ، وبصيرة ، وهي مدركة وشاعرة ، ربما أكثر من الكثيرات بأن هذه الظاهرة من الاستيلاب الحضاري والارتماء دون تحسس مواطن الارتماء ، أأحضان ، أحدائق ، أم خيمة شوك وأفاعي « أنا لا أدعو الرجوع إلى الوراء أو أتكلم باسم الرجعية ، لكنني أجابه المشكلة بكل صراحة ... أنا أنكر مثل هذا التقدم ... أو المسخ بعبارة أفضل ، أنا أو من بشخصيتي ، بعروبتي المتوهجة توهج الشعاع المشرع ، وأدعو إلى البساطة والإيمان والنقاء » .

بعد أن توضح زليخة موقفها من المرأة التي تسمح لنفسها بالذوبان في وحل الحضارة الأوروبية ، توضح المرأة التي تراها النموذج الصالح ، المعبر عن صدق الوطنية ، ونقاوة تقول « أومن أن المرأة تنطلق في طريقها الأفضل حاملة روحها ، وشخصيتها ، تناضل لأجل وجودها بكل قواها ، تنهم من كل الأشياء جوهرها محافظة على قيم ثورتها الفتية » .

وترى زليخة أن المرأة الجزائرية يجب أن تتطور على أسس كريمة نابعة من الدين والشرف والقومية ، تقول : « وعلى ضوء الأهداف الكبيرة للشعب العربي في الجزائر ... هدف ترقية المرأة على أسس كريمة يقرها الدين والشرف والقومية » .

وفي ختام المقال توجه الأديبة زليخة نداء إلى جميع النساء ، تدعوهن فيه إلى الوحدة والنضال والتحلي بالخلق الكريم ، وتؤكد لهن أنه لن يبقى على هذه الأرض الطيبة إلا من يمثلها ، ويدافع عنها بقوة ، وصلابة « أيتها الأخوات وحدن الجهود لإعطاء المثل الأعلى في الخلق الكريم والنضال الدائم المضيء ... فعلى هذه الأرض الطيبة أم الأبطال ومنجبة البطلات والنضال المقدس الصامد لن يبقى على وجهها سوى من يمثلها ويشرفها ،،، وتأبى تضحيات آلاف النساء ، والفتيات على القمم البيضاء أن نبقى مجرد فقاقيع طافية فوق العباب بل لا بد أن نصل إلى المكانة اللائقة بنا الجزائريات » .

هذه أهم الأفكار الواردة في مقال - المرأة والحرية - للمرحومة زليخة السعودي ، وقد وضحت من خلاله بجرأة وصراحة نادرين موقفها من الفتاة التي سمحت لنفسها أن تستوطن المستنقعات العفنة في المجتمع الأوروبي ، وتعالت عن نقاوة مجتمعها وأصالة شعبها .

تقول في نهاية المقال : « لنا عودة مع حلقة قادمة في موضوع المرأة والحرية ، فسلاما وإلى اللقاء » .

من هنا تأتي ضرورة جمع آثارها ونشرها في أية جهة ، وبأي ثمن، فقد كتبت مجموعة من المقالات الهامة حول المرأة ، لكن للأسف لحد الآن لم تجمع ، وتقدم للطباعة ... قصد تعميم الفائدة وطرح الآراء الجدية الصائبة في وقت نحن في أشد الحاجة إليها .

- رأي الأديبة زليخة في بناء الأسرة الجزائرية

إضاءة : « الأسرة هي الوطن ، هي الثورة ، والذي يهدمنا إنما يهدم الوطن ويهدم الثورة . أتهم من ؟ أتهم الأدمغة المتحجرة ، أتهم الإنسانية المتسلطة ، انهم تحكم جبروت القرون في المجتمع ودفع عجلاته الصاعدة للرجوع للوراء والعالم كله يقفز ، ونساء العالم يصرخن للمساواة السياسية ، ماذا يحدث في الجزائر الثورة ، جزائر الأحرار » .

بهذه الثورة ، والجرأة الأدبية النادرة ، بدأت المرحومة زليخة السعودي مقالها عن وضعية الأسرة الجزائرية .

وهي تعتقد أن الرجل سوف لن يمنح للمرأة حقوقها ، فعليها أن تناضل من أجل إثبات وجودها ، وأن تنزع ثوب الاتكال والانتظار ، وتؤكد لغيرها عن قوتها بالعمل المثمر البناء ، أن تكسر القيود الوهمية التي تكبلها منذ الأعصر العفنة ، وغلبة الفكر الخرافي المضلل في غياب الأضواء .

« بل أدعو المرأة نفسها إلى أن تنفض غبار التواكل ، والسلبية وأن تكسر بكل عنف القيود الوهمية التي تجعل منها ضعفا مستمرا ينتظر المساندة والإرشاد من الآخرين » .

ومن وقائع فجر الاستقلال تستمد الأديبة زليخة شهود عيان ، وتحول واقع الكثيرات ممن غررن بهن أزواجهن ، وتعالوا عنهن ، لقد ذقن مرارة الانتظار ، ولسعة البرد والتشرد ، وغلظة عذاب الاستعمار ، وظلمة السجن ، وفي زهوة النصر ، وحرارة اللقاء صدمن ، أصبن بخيبة ، لقد هجرهن أزواجهن ... وقاحة يرتكبها هؤلاء ، حماقة لحظة شيطانية ، ونزوة طائشة أن يمحو الرجل كل إنسانيته .

تورد هذه الحكاية - لقد انتظرته سبع سنوات كاملة ، شردت مع أبنائي ، ذقنا الجوع والذل والحرمان ، بتنا في المعتقلات ، دخلت السجن

شهورا ، ولم أخنه ، تعرضت للإغراء ، ووسط الجوع ، والدموع فما خنته، وربحنا ، ووسط الأغاني والزغاريد ، عاد ليجازيني ، رماني على طول ذراعه ، وجاء بأخرى أصغر مني لتمتعه ، وأنا أم الأولاد ، ذنبي أن الحرب جففتني ، لم تترك لي لحما ولا دما ، ذنبي أنه ارتفع ، صار ضابطا كبيرا ، فلم ألق بمقامه ، وترى زليخة أن رجلا من هذا النوع يشرد أسرته ، ويخون أمانة مقدسة ، ليس جديرا بالاحترام والحب ، لأنه لن يتردد في أية لحظة ويخون مبادئ الثورة السامية ، وأن بريق الطمع والحرير يجذبه بقوة، ومصالحه الدنيئة الحقيرة حولته إلى وحش مفترس وعنصر هدام ، تقول « رجال كهؤلاء ألا يعقل أن يخونوا عن أول بريق برجوازي ، كل مبادئهم ، فالذي يرمي بعرض الحائط بأسرته يرمي بكل ما يملك ، ويؤمن بالعمل لأجل مصلحته الخاصة ، الأسرة هي الوطن ، هي الثورة ، والذي يهدمها إنما يهدم الوطن ، ويهدم الثورة »

إن آراء زليخة حول موضوع الزواج بالأجنبيات صريح ، وجريئ ينبئ عن وعي كامل بخطورة هذه العلاقة وضياع أجيال بين متاهات ، وتطاحن التيارات .

ويا ترى الصورة الغامضة التي يشب عليها الأبناء ، فالطفولة مرحلة التكوين القار ، ومنها تتحدد شخصية الكائن الإنساني ، ويحدد هويته التي يعتز بها ، في كل مراحل عمره ، تقول زليخة « جيل كامل من الأطفال ، والبنات الحائرين بين أم مطرودة ، وأب لا يهتم ، بين أم أجنبية لغتها غريبة ، وديانتها غريبة يتكلم العربية ، ويصلي في المسجد . ثم كيف لضمير إنساني أن يتولد لدى من يحرم الطفولة الأمنة ، والحب والحنان » .

وترى زليخة أن الرجل أكثر خيانة وضياعا من المرأة ، فعلى الرغم من طول المدة التي يقضيها في الغرب ، فهي تحفظ شرفه ، وتصون أبناءه ، تقول « قد يخون الأب ، ويخون أطفاله ومبادئه أيضا ، لكنها هي لا تخون ، فرغم اغتراب آلاف العمال خارج الوطن ، تعيش هي سنوات طويلة في انتظار الزوج ، توفر لأبنائها كل ظروف الحياة الكريمة التي تصل إليها طاقتها » .

وعن دور الاتحاد الوطني للنساء الجزائريات ، فإن المرحومة زليخة ، ترى أنه بإمكانه أن يلعب دورا بارزا في حفظ تماسك الأسرة الجزائرية ، وكسب حقوق المرأة ، ويفتح لها المجالات الكثيرة ، التي تسمح لها أن تشارك بفعالية في تشييد الوطن ، وإعلاء صوامعه ، ويمكنه أن

ينتشل المرأة من البرك المعفنة ، ومن المحطمات الموروثة عن العهد الإنحطاطي ، تقول « على الاتحاد النسائي أن يتحرك أكثر وبكل حزم لمنع كرامة المرأة ، وتمريغ أمومتها ، وأنوثتها في الرغام ، وأن وعي المرأة كلما ازداد كلما ازداد دورها في صنع التاريخ ، عمقا وإصرارا » .

هذا باختصار عرض سريع لرأي الأديبة المرحومة في المرأة ، والأسرة الجزائرية ... ولدينا كل الأمل في أننا سوف نواصل البحث عن مؤلفاتها ومقالاتها الأخرى من أجل تكوين نظرة شاملة حول آرائها الجديرة بالعناية ، والاطلاع ، والتي تمتاز بالجرأة ، وصواب الرأي ، لأنها تتحدث عن عمق أعماقها ، ومن غابات قضايانا ، ولأنها واحدة منا وقطرة من دمنا، ولأنها تملك عيونا ثاقبة فاحصة لهمومها ، ومشاغلها ، وقد خسرنا حياتها ، فكيف يحق لنا أ، نصمت ، ونترك انتاجها في ثنايا الأعوام ،، وفي زوايا الإهمال ؟!

- أغنية جرح - نموذج من شعر الأديبة :

أغنية جرح : عنوان قصيدة شعرية توفرت فيها معظم شروط نجاح القصيدة الحديثة وتاريخ نشر هذه القصيدة يرجع إلى يوم 1962/12/15 ، وهذا التاريخ لديه أهمية كبيرة خاصة بهذه الروح الأدبية ، وهذه الشاعرية العذبة ، الشفاقة .

مات أخوها محمد الذي أحبته بعنف ، وأخلصت له كل الإخلاص ، وظلت تحتفظ بذكراه ، كما تحتفظ بأغلى أشيائها وممتلكاتها .

قال لنا أحد معارفها ، أنه كان يوفر لها الكتب الأدبية ، ويحترمها أشد الاحترام ، وشديد الإعجاب بنبوغها ، وكان كل أمله أن يراها سعيدة ، ضحوكة وادعة .

وفجأة رحل هذا الطائر الغريد من حديقتها ، وكم كان رحيله حملا ثقيلا لا يطاق ، ورحل مع ضباب الصبح .. واختفى إلى الأبد بسيف مجهول في زمن الأحقاد والضغائن .

وهكذا كانت أغنية جرح ، بطاقة إخلاص ، وباقة حب إلى أخيها الشهيد .

يا أخي
ندائي إليك ، إذ يموت في الأثير

تخنقه العبرات

ورسائل مزقت بعد المصير

وانتظار سنوات

وأزهار حياة

مضت كما يمضي العبير

إن حنين الأديبة - زليخة لأخيها وشوقها إليه أعظم من العباب في عنفوانه ، وأن رحيله عنها حفر أخاديد الحزن ، والغربة ، والضياع ، إنها تشعر بالإهمال والتعاسة ، تأخذ منها رياح الشتاء الباردة ، ولفحة مجير الصيف الحار وأن دموعها دائمة الانسكاب !؟

فيا أخي

هل تسأل في خلودك عناء ، عن جرحنا الكبير

عن أمواج الحنين

تضيف في ظلمة الليل أنين

وأختك في الدرك جنحها كبير

خلفتها للريح والحزن إذ يثور مدامعي كيف أصونها ؟

أزهاري السوداء هل أبذرها

هل أسير أم لا أسير ؟

ووحشة الدرب كيف أضيئها

القارئ الذي يتأمل جيدا معاني هذا المقطع وأبعاده لا أشك في أنه سوف يتأثر أشد التأثر ، ويحس بأن دموعه تتساقط وما توفيق زليخة في حفر هذا الأخدود الحزين في قلب مشاعر القارئ ، إلا لصدق تأثرها بوفاة أخيها - محمد - ولشدة الهول الذي ابتليت به ، كيف لا تحزن ؟ ، لا تبكي ؟ لا تشعر بالضياع وقد فقدت فيه أعز وأخلص الرفقاء ، إنه الأخ القلب ..

حتى الألفاظ الموظفة شعريا توحي لنا بكبر حجم الحزن ، وعمق الكآبة ، تأمل هذه الكلمات - أمواج الحنين ، وحشة البرد ، حرقة الهجير ، وحشة الدرب.

وفي المقطع الثالث من القصيدة ، تتصابر زليخة فترى أن أخاها فوق الموت ، وأن روحه الطيبة ستظل خالدة لأنها ناضلت من أجل السلام

في ربوع بلاده ومدها ، ومهما طال طغيان المجرمين ، أن لا بد من نهاية له ، وأن الفجر - بالرغم من ظلمهم وسوادهم - لا بد أن تعلو أنواره .

فوق الردى روحك طيف ابتسام

للشهادة .. للمجد .. للسلام

إن المجرمين سيلاقون الجزاء

وفي المقطع الرابع تفصح المرحومة زليخة عن شدة حرصها لأخيها - محمد - ومهما طالت المحن والأتعاب فإنه سيظل في قلبها ، وستذكره كلما طلع فجر ، وكلما رحـل مســاء

وأن روحه سوف تستقر في الملأ وسوف لن يضمها التراب الحقير ، فهي شريفة أكثر :

مهما يطل ليل ، فأنت في القلوب

في طلة الفجر ، في عتمة الغروب

لن يحضنك التراب

وسكنك الملأ والرحاب

في القمة الخضراء

بالرغم من وجود أبيات بسيطة لا تسمو إلى شاعرية بقية الأبيات ، فإننا نعتبر هذا النموذج الشعري تتوفر فيه عناصر كثيرة لنجاحه .. وأنها بداية رائعة ، وليست كل البدايات تتوفر فيها العناصر الجمالية التي توفرت في قصيدة المرحومة زليخة.

- ثلاثة رسائل قصيرة :

الأولى - إلى اتحاد الكتاب الجزائريين :

للحفاظ على الآثار الأدبية - قصة ، شعر ، مقالات ، رواية ، رسائل - التي تركتها الأديبة الراحلة زليخة السعودي .

نرجو من إدارة اتحاد الكتاب الجزائريين أن تسعى لجمع انتاجها المنشور ، وتقدمه لدار الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، قصد طبعه ، وتقديمه للقراء الذين أخلصت لهم المرحومة وأحبتهم ، فكتبت لهم ، وعبرت عن أتعابهم ومشاغلهم .

كما نرجو من إدارة الاتحاد أن تطلق اسم المرحومة على إحدى القاعات التابعة له.

الثانية - إلى وزارة الإعلام والثقافة :

في العدد الأول من مجلة آمال ص 5 ، ورد في كلمة التعريف بالكاتبة مايلي - وقد اهتمت بكتابة القصة القصيرة ولديها الآن مجموعة سوف ننشرها عما قريب .

وأنا بدوري أتساءل أين هذه المجموعة ، وقد مر من الوقت ما يكفي لنشر عشرات المجموعات !؟ قليلا من الاهتمام ، والعناية بمن خدموا ثقافتنا، وأخلصوا لنا أكثر من إخلاصهم لذواتهم ، لنا كبير الأمل أن تجد أسرة مجلة آمال الحالية ، وتصدر هذه المجموعة ضمن منشورات مجلة آمال ، كما فعلت سابقا مع القاص الجزائري أحمد بن عاشور ، ومجموعة من الأدباء الشباب أمثال : الشاعر محمد بن رقطان ، وازراج عمر ، والأديب مرزاق بقطاش.

الثالثة - إلى أولياء ومعارف الأديبة زليخة :

نعلق أملا كبيرا على عائلة الأديبة الراحلة : زليخة السعودي ، ونطلب منها خدمة لها ولأدبها ، وخدمة للثقافة الجزائرية أن تسلم آثار المرحومة المحفوظة عندها إلى دارسي إنتاجها أو إلى إدارة اتحاد الكتاب الجزائريين والذين راسلتهم الأديبة زليخة ، خاصة الروائي الكبير الطاهر وطار الذي اشتغلت معه في جريدة " الأحرار " ، أن يجمعوا رسائلها وإنتاجها الذي في حوزتهم ، ويقدمونه لإدارة الإتحاد .

وليكن شعار الجميع من أجل خدمة الثقافة الوطنية والاعتناء بالذين احترقوا من أجل أن تنار دروبنا ، وتزهر حدائق الأجيال الطالعة.

كلمة ختامية :

إن هذه القراءة السريعة لبعض إنتاج المرحومة : زليخة السعودي الأدبي قد كشفت لنا عن حدث أدبي يمتاز بقوة الأصالة الفنية والسيطرة الكاملة ، وحسن القيادة والتوظيف الباهر للألوان و الأشكال.

ولعل كشوفات وأبحاثا أخرى تسهم في تنوير عالمها الأدبي وتعيد إليه أشياءه وبطاقاته وجوازاته ، إن أدبها يطفوا بخصب موهبتها ، وكثرة عطائها ، ولكنها للأسف رحلت باكرا ... وأفتقدنا أحد الأصوات الأدبية القوية التي رافقت طلائع النصر والكتابة عنها اليوم ، والتعريف بأدبها ، وتقديمه للقراء الذين أحبتهم وأخلصت لهم ، جزاء الوفاء لأدبها ولبعض حقوقها.

- المصادر والمراجع :

1 - جريدة الأحرار ، أسبوعية سياسية ثقافية ، أصدرها الطاهر وطار في عام 1963م بمدينة قسنطينة (مجموعة أعداد) .
2 - الفجر ، مجلة أصدرتها اتحادية الأوراس بجبهة التحرير الوطني ، العدد رقم 05 ، الصادر في 15 / 12 / 1962 .
3 - مجلة آمال ، وزارة الأخبار ، الجزائر ، العدد الأول ، أفريل 1969 .
4 - مجلة الجزائرية ، الاتحاد الوطني للنساء الجزائريات (مجموعة أعداد).
5 - د . عبد الله خليفة ركيبي ، القصة الجزائرية القصيرة ، الطبعة الثالثة ، الدار العربية للكتاب ، ليبيا - تونس ، 1977 .
6 - د. رشاد رشدي ، فن القصة القصيرة ، ط 2 ، دار العودة ، بيروت 1975.
7 - د. عايدة أديب بامية ، تطور الأدب القصصي في الجزائر (1925 - 1967) ، ترجمة الدكتور محمد صقر ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر 1982 .
8 - د. عبد الملك مرتاض ، فنون النثر الأدبي في الجزائر (1931 - 1954) ، الطبعة الأولى ، ديوان المطبوعات الجزامعية ، الجزائر 1983.
9 - د. عزيزة مريدن ، القصة والرواية ، دار الفكر ، دمشق 1980 .
10 - أحمد دوغان ، الصوت النسائي في الأدب الجزائري المعاصر ، سلسلة مجلة آمال (سلسلة أدبية) ، عدد 4 ، وزارة الإعلام والثقافة ، الجزائر 1982 .

2 - قضـايا اجتماعية
في الأدب الجزائري المعاصر (*)

تقديم الجريدة :

حول محور " الأدب والمجتمع " قدم الأديب شريبط أحمد شريبط عضو اتحاد الكتاب الجزائريين وأستاذ معيد بمعهد اللغات والأداب بجامعة عنابة بحثه عن قضايا اجتماعية في الأدب الجزائري المعاصر - خلال الملتقى الأول للنقد الأدبي الذي انعقد في أواخر شهر ماي الماضي بوهران ، تحت إشراف الفرع الجهوي لاتحاد الكتاب الجزائريين .

- نص البحث :

أتيحت لي الفرصة سنة 1980 ، عندما اشتغلت أستاذا لمادة الأدب المغربي القديم بمعهد اللغات والآداب ، جامعة عنابة ، أن أطلع على بعض النتاج الأدبي المغربي القديم وهالني الأمر الذي وصلت إليه ، إذ بالرغم من أنه لم تكن هناك حواجز سياسية ، أو حدود ترابية تمنع الكتاب من التنقل بين مختلف بيئات المغرب ، فقد انفرد النتاج الأدبي الذي ظهر بالمغرب الأوسط بخاصية ميزته عن بقية النتاج الأدبي الذي ظهر في البيئتين الأخريين " المغرب الأدنى" و" المغرب الأقصى " .

فقد انفرد أدباء المغرب الأوسط بالتعبير الجمعي ، الذي تنصهر فيه ذات الفنان بذوات الآخرين وارتقوا بمضامين أشكالهم التعبيرية عن مواطن اللهو والمجون ، فهكذا انفرد نتاجهم بخاصية نبيلة نرى أنها الأساس في دور الفن الاجتماعي وهي الالتزام النابع من نبض القلب الجمعي ، والملتحم مع روح الغير .

ظلت هذه الخاصية ترافق مسار مجتمعنا وتطبع نتاجه الأدبي بأبعاد موضوعية لا يظهر الفنان من خلالها إلا كعضو يؤدي واجبه نحو وطنه ونحو مجتمعه مثل بقية الأعضاء .

فالإنتاج التعبيري الذي ظهر من عام 1925 - 1945 من قصائد شعرية و إرهاصات لفن القصة ، أو خطب سياسية ودينية تميزت بالسعي

---

* - صدرت هذه الدراسة في الملحق الأسبوعي " النادي الأدبي " لجريدة الجمهورية (وهران) ، في اربع حلقات أيام 8 ، و15 ، و22 ، و29 أوت 1983 .

لتصوير حياة الإنسان الجزائري ، وكفاحه الدؤوب المتواصل منذ الاستعمار الفرنسي وأعوانه من أبناء البلد الخونة .

فالمحاولة القصصية التي كتبها المرحوم محمد العابد الجلالي - أعني على الهدم أعنك على البناء - سنة 1935 ، يمكن من خلالها أن يعبر عن سخطه من سلوكات فئة المعمرين الذين سلبوا أراضينا وشيدوا سعادتهم بدمائنا ، ويتضح من نهاية هذه المحاولة الغنية ، وعي محمد العابد الجلالي المبكر بضرورة التعاون - أعني على الهدم أعنك على البناء - فالعنوان دعوة صريحة لوحدة جميع القرى وتعاونها لهدم الكيان الاستعماري الذي شيده على جماجم أجدادنا وبناء جزائر الحب والنمو المستديم .

يقول المفكر الفرنسي الراحل جان بول سارتر في كتابه - عارنا في الجزائر - أن الاستعمار يعمل الآن على تهديم نفسه ، ولكنه ما يزال ينتن الجو ، إنه عارنا ، و يهزأ بقوانينها ، ويظهر بمظهر كاريكاتوري ، أنه ينشر بيننا وباء العنصرية كما أثبتت حوادث مونبليه أخيرا ، وهو يفرض على شبابنا أن يموتوا رغما عنهم من أجل مبادئ نازية نحاربها منذ عشر سنوات ، وهو يحاول أن يدافع عن نفسه بخلق قوى فاشية ... ولا شك في أن الذين يحدثون الجزائر هم بلهاء ، فليس لنا أن نترك ما لم نملكه قط ، بل القضية على العكس ، هي أن نبني مع الجزائريين علاقات جديدة بين فرنسا حرة وجزائر محررة .

هذه شهادة صادقة من مفكر فرنسي كبير يحب بلده فرنسا مثلنا نحب نحن بلدنا الجزائر يدين فيها النظام الاستعماري الفرنسي الذي شوه مرايا الثورة الفرنسية التي حولها الاستعماريون إلى مبادئ نازية ثانية تمارس ضد شعبنا وفوق ترابنا ، وقد حث شعراء الجزائر الشعب على ضرورة النضال المستمر حتى يتحقق النصر ، يقول الشاعر الموهوب رمضان حمود :

لن ينال العز شعب كالجماد

فقد الإحساس خال من شعور

لن ينال المجد شعب بالرقاد

يترك اللب ويعنى بالقشور

إنما المجد قرين بالجهاد

ووئام ونبات في الظهور

فالشاعر يؤكد عدم جدوى استيقاظ الوعي الشعبي لأنه السبيل الوحيد لاكتساب العز والمجد وأن المجد يأتي عن طريق ممارسة نضالية شاقة ومستديمة ويعتبر الشاعر محمد السعيد الزاهري الجزائر أما لكل الجزائريين :

هي الأم واست في الصبا كل موضع

وفيها اهتدى الساعون سبيل صواب

سأفضي لها حق الأمومة إنها

بلادي التي فيها محط رحالي

هي الجنة الفيحاء من قبل نشأتي

وأن كنت خطا نازلا بباب

كما يعتبر الشاعر محمد العبد آل خليفة كل جزائري أخا له يدافع عنه وينصره :

وقرباك هم قرباي ليس مباليا

أعار بباهم في نسبهم أم أعاجم

فخذ من وحيي يا ابن الجزائر إنني

أخ لك في كل الحظوظ مقاسة

وقال : كلنا شعب أخوة ما القسنطيني منا إلا أخو الوهراني

وعبر المفكر الأستاذ عبد الحميد بن باديس في إحدى مقالاته عن ثقته بالشعب وخيبته من جدوى الوفود المتقدمة والتي لا تعبر عن إرادة الشعب وأمانيه ، أن الوفود لا تستطيع أن تغير شيئا ولكن الشعب هو الذي يستطيع كل شيء ، وأن الاستعمار يقوى اليوم بجنوده وأشياعه وأعوانه من رجال الطرق الصوفية وأحزابهم المخدوعين ومتى نفض الشعب عن نفسه غبار الجهل والغفلة أدرك وجوب تسيير شؤون نفسه وأخذ يضع كل شيء موضعه.

فثمة رفع مكانة المجموعة على الفرد والميل إلى الجانب الموضوعي أكثر من الجانب الذاتي اعتبره من المنجزات التي يجب أن يعتز بها الأدب الجزائري وأرجو أن يعمق كتابنا اتصالهم أكثر بالفئات الشعبية التي هي أساس كل مجتمع والقاعدة الوحيدة في أية عملية بناء مجتمع اشتراكي تمحي منه الفوارق الطبقية وتزول منه مظاهر الظلم والاستكبار وتكفن المفاهيم النتنة التي كانت تفصل بين السيد والمسود أو المالك والعامل .

وفي رأيي أيضا إن هذه الجوانب الإلتزامية العميقة المتغلغلة في ذاكرة تاريخنا الأدبي والتي غدت بعد مرور القرون من علاماتنا المميزة هي التي صرفت اهتمام كتابنا عن بعض الاتجاهات والمدارس الأدبية كالمدرسة الرومانسية والوجودية ، في حين دفعت بهم نحو الموضوعات الجدية كالموضوعات الوطنية والإنسانية ومواجهة أساليب المسخ والتشويه الاستعمارية.

فيمكننا أن نعتبر دون تردد أو وجل بأن حياتنا الأدبية غير صالحة للنزاعات الذاتية وسلوكات العربدة والمجون ، وإنما هي مجالات رحيبة تنمو فيها المشاعر الإنسانية والصفات البطولية كحب التضحية في سبيل إذاعة الوعي بالواقع بين الجماهير وأثرة قضايا الوطن وأبنائه عن الذات الفردية والشغف الشديد بنصرة المظلوم وإدانة الظالم .

أو لم يهب أثناء الثورة التحريرية المباركة الكثير من القادة أموالهم وممتلكاتهم لصالح الثورة ؟

كل هذه الخصائص المميزة لشخصية الإنسان الجزائري والتي اكتسبها بعد توالي الأجيال أدت إلى انتشار المذهب الواقعي بسرعة ، في حين وقفت حجر عثرة أمام المذاهب والاتجاهات الأدبية الضيقة والتي تطغى فيها شخصية الفرد صاحب النفوذ الاجتماعي على ذوات الآخرين ، ويعدون الأدب مجرد تعبير منوم ، وينحرف عن جادته كتعبير غرضه نشر المعرفة وساع يدفع بالانسان نحو بناء مجتمع تزول منه الأوسمة والحظوظ الموروثة .

تجلت في أدب الثورة ذروة التحام الذات المبدعة بهموم الآخرين وسادت المبادئ العامة والحرية ، والاستقلال ، والكفاح ، وكرامة الشعب

فوق كرامة الفرد ، فالتزم الكتاب بالتعبير عن عظمة الثورة وشرعيتها التاريخية ، وسجن بعضهم - مفدي زكريا - ومحمد العيد آل خليفة .

وقد يضحي الفنان في كثير من حالات الإبداع بروعة الفن إيمانا منه ، لكي يصل إلى أعماق الجماهير ويصور أحاسيس شعبه بصدق بديع تتعاضد فيه ذات المنشيء مع الذات المتلقية في عناق رائع ، يستطيع في لحظات الثورة أن يهدم الحواجز الجائرة ويتقدم بالخطى الواثقة والثابتة نحو شعاع غده الساطع ، « لم أكن في اللهب المقدس بالفن والصناعة عنايتي بالتعبئة الثورية وتصوير وجه الجزائر الحقيقي بريشة من عروق قلبي غمستها في جراحاته المطلولة » .

وفي رائعته الذبيح الصاعد ، يقول الشاعر الموهوب مفدي زكرياء، والذي يعتبر أبرز شاعر واكب مسارنا السياسي من سنة 1936 إلى بداية الاستقلال ، وفي رأيي الشخصي يعتبر شعره ملحمة بديعة لبطولة شعبنا وثورتنا التحريرية ، وتمتاز قصائده بالجمل الشعرية الخصيبة بحب الشعب وتقديس مبادئه ، والاستقلال ، والكرامة.

وهو الشاعر العنود الذي جاهر بعدائه المطلق للاستعمار وأعوانه منذ منتصف الثلاثينات ، كما تعتبر رائعته " الذبيح الصاعد " - نظمت بسجن بربروس في القاعة التاسعة في الهزيع الأخير من الليل أثناء تنفيذ حكم الإعدام على أول شهيد دشن المقصلة المرحوم أحمد زبانة وذلك ليلة 8 جويلية / تموز 1955 - قصيدة نموذجية للفناء في الذات الأخرى عن طريق فن الرثاء يقول الشاعر على لسان أحمد زبانا:

واقض يا موت في ما أنت قاض

أنا راض ، إن عاش شعبي سعيدا

أنا إن مت فالجزائر تحيا

حرة ، مستقلة ، لن تبيـــــدا

ويقسم الشاعر صالح خباشة بالضحايا وبالشعب وعذاب الجرحى ويعتبر هذا القسم توحد الشاعر في شعبه ووطنه :

قسما بأنات الجريح ولحد

روض البطولة ظللنه رهام

قسما بشعب ثائر متأجج

أنا منه الشنق والإعـــدام

سنحطم القيد الثقيل لذنبه

بلهيبنا فالحريس يضـــام

لم يعبر النتاج الأدبي الجزائري عن قضايا محلية دون غيرها من القضايا الانسانية ، فدرجة معاناة الإنسان الجزائري الشبيهة بمكابدة أي إنسان الآن ، الظلم واحد في كل مكان والشعور بالحرية واحد ، لذلك اعتبر قضية فلسطين جزءا أساسيا من قضيته ، كما اعتبر ثورات العالم الثالث امتداد طبيعيا لثورته فوعى أدبائنا مثلا بالقضية الفلسطينية متقدم بأبعاد الصهيونية وحلمها النيروني كتب الشاعر الصحفي أبو اليقظان في جريدة ميزاب سنة 1930 « أن كل من يمعن النظر ويدقق البحث في قوادم المسألة وخوافيها ، يجد أن المسألة ليست مسألة المبكى والبراق ، وإنما حقيقة المسألة هي السرطان الصهيوني الناشب مخالبه في عنق العالم لظاهرة عوارضه » .

النتيجة التي نخلص بها من هذا المدخل ، هي أن الأدب الجزائري قديمه وحديثه وسم بالجدية والالتزام الواعي بالقضايا الوطنية ، والإنسانية ، فابتعد عن الموضوعات الذاتية كالغزل والرثاء ، والهجاء والفخر ، ولكنه اهتم بمواضيع كالشرف ، والدفاع عن الكرامة ، ونصرة القضايا الإنسانية .

هذه الخاصية التي طبعت أدبنا ينبغي أن نحافظ عليها مثلما نحافظ على قلوبنا ولا نفرط فيها ، كما لم نفرط في شبر من تراب بلادنا ، ولا إنسانيتها، فإني أرى أن الكاتب الجزائري يتحمل عبء إذاعتها بين الآخرين.

الأرض في الأدب الجزائري المعاصر :

المنحدرون من الريف يعرفون جيدا أن التقسيم المعتمد في توزيع الأراضي يخضع للحيز الجغرافي الذي تقوم عليه القبيلة ، فمبدأ ملكية الأرض في ماضينا مبدأ جماعي ولكن الاستعمار رأى أن هذا المبدأ المقدس ، والذي اعتبر رصيدا راقيا سوف يساعد الفلاحين - وأنا ابن فلاح - على أن يتقبلوا مبدأ العمل الجماعي ، وكانوا يريدون تفتيتها ليتاح للتجار أن يشتروها شيئا فشيئا .

فلا عجب أن يبادر المعمرون إلى طرد أجدادنا من أراضينا ، ويستولوا بالعنوة وبمساعدة السلطات العسكرية على الأراضي الجماعية .

ولم تمض إلا سنوات معدودات ، فإذا بجل الأراضي الخصبة يستحوذ عليها المعمرون وتظل أيدي أجدادنا خاوية إلا من حفنة شعير ، وقد غدوا بعد بضعة سنين خدمة ، وقد كانوا أسيادا فوق ترابهم ومحتاجين وقد كانوا ملاكا : « في عام 1850 ، كانت أملاك المستعمرين 115000

هكتار ، وفي عام 1900 ، ارتفعت إلى مليون وستمائة ألف ، وفي عام 1950 ، إلى 2.703.000 هكتار ، وإذن فإن 1.703.000 هكتار هي اليوم للملاكين الأروبين ، وتملك الدولة الفرنسية 11 مليون هكتار تحت اسم " الأراضي الأميرية " . أما الجزائريون ، فقد ترك لهم سبعة ملايين هكتار وبالاختصار كان قرب واحد كافيا لسلبهم ثلث أرضهم ، إن الدولة الفرنسية تسلم الأرض العربية إلى المستعمرين ، تخلف لهم طاقة شرائية تتيح للصناعيين في الوطن الأم أن يبيعوهم منتجاتهم ويبيع المستعمرون الأسوات المتربول ثمار هذه المسروقة ، وابتداء من هنا يتعزز النظام بنفسه، فيطوف دائرا ، وسوف نتابعه في كل عواقبه ونراه يزداد دقة وصراحة .. »

هذه شهادة جان بول سارتر المفكر الفرنسي ، ولا أعتقد أنه يبغض أجداده وشعبه ولكنها مواقف مفكر .

يفصل العماد مصطفى طلاس ، المقدم بسام العسيلي ، في كتابهما " الثورة الجزائرية " نصاب الفلاحين الجزائريين من أرضهم ماذا بقي لهم بين أيديهم وما مقدار ما افتك منهم ؟

« ولقد عمل النظام الاستعماري على جمع أكثر الأراضي خصبا وتركيزها في قبضة الإقطاع الاستعماري ونتج عن ذلك تفاوت هائل بين الملاك الأوربيين والملاك الجزائريين ، وهكذا أصبح هناك 25 ألف من الملاكين الأوربيين من أصل 800 ألف نسمة ، وهم يملكون 2750000 هكتار من ثروة الجزائر الزراعية ، أي أن كل ملاك أوربي يملك 110 هكتارات نسبيا منها 75 هكتارا منتج .

أما الملاك الجزائريون والبالغ عددهم 532000 من أصل 12 مليون جزائري لا يملكون سوى 7672000 هكتار ، أي معدل 14 هكتارا منها خمسة هكتارات منتجة فقط ، أما الباقي وهو 1408000 هكتار ، فهي معتبرة كأملاك عامة موضوعة تحت تصرف الإدارة الإستعمارية » .

نستنتج من الفقرتين السابقتين نتائج هامة : أن الاستعمار الفرنسي لم يأت إلى بلدنا لينشر بيننا التمدن كما زعم بعض ساسته ، وإنما جاء ليسد عجزا اقتصاديا ووضعا اجتماعيا سيئا وغليانا شعبيا ناتجا عن الفوارق الكبيرة بين تركيبات المجتمع الفرنسي .

تثبت الدراسات التاريخية أن أوضاع المجتمع الجزائري بعد الاحتلال قد تدهورت ، إذ انتشر الفقر المدقع ، والأمراض الفتاكة كما انحط المستوى التعليمي لأبناء الجزائر .

الأرض في أدب الجزائر المعاصر :

عندما ظهرت الثورة الزراعية في بداية السبعينات بقرار ثوري بادر النقاد إلى التفريق بين واقعين :

1 - الواقع الاستعماري الذي امتاز بالقهر والظلم والتجويع والاستحواذ على كل خيرات البلاد ، فقد ظهرت طبقة المعمرين الاستعمارية منذ بدايات الاستعمار ، كطبقة جشعة تنفذ قرارات السلطات الاستعمارية دون مواربة ، والتاريخ يؤكد لنا أن هذه الطبقة تنحدر إلى أصول هامشية في الهيكلية الاجتماعية الأروبية ، ولكنها بمجرد مجيئها إلى بلادنا حتى استولت على أراضينا بالقوة والبطش ، فامتدت بطونها بسرعة وامتلأت خزائنها . كما بعض العائلات الجزائرية نقعت أنفها في هذا الوضع الجديد ، فازدادت مساحة أراضيها توسعا ثم جاهرت بولائها للاستعمار .

إن هذه الطبقة لا تزال تعادي التغيرات الاجتماعية وترى فيها تقويضا لنفوذها وأملاكها متجاهلة أهم سؤال : من أين لها كل هذه الأملاك وهذه الأراضي ؟

2 - الواقع الثاني : وهو الواقع النظري والذي تسعى السلطة الثورية بمساعدة كل المناضلين والمثقفين الاشتراكيين لتجسيده : أن الثورة الزراعية التي جاءت لتضع حدا لمظالم تاريخية نتجت عن مناكر الإقطاعية والاستعمار تحمل في طياتها كل آمال جماهير الفلاحين وتطلعاتهم ، لأنها ترمي إلى تغيير عالم الأرياف وإلى إدماجه في المسيرة الثورية والاقتصاد الوطني الحديث .

إن استغلال الفلاحين الفقراء عبر العصور ومساهمتهم الفعالة في مقاومة الاحتلال الاستعماري الفرنسي ، قد أديا إلى جعل مشكل الأرض إحدى القواعد الأساسية للحركة الوطنية الشعبية الجزائرية وعنصرا هاما في إبراز مضمونها الاجتماعي ، وهكذا صار الكفاح من أجل التحرير الوطني مدعوما برغبة استرجاع الأراضي والنهوض بالفلاحين اجتماعيا واقتصاديا، يمكن للدارس أن يكشف صورتين للأرض في الأدب الجزائري:

1 - غنائية .

2 - دفاعية .

الصورة الغنائية عبر عنها خاصة الشعر ؛ فحينما تصفحت دواوين الشباب وجدت قصائد كثيرة تتعشق الأرض وتشدو أشعارا للأرض وللفلاح والطالب كما تتغنى بنضارة الحقول وجمال السنابل وغروب وشروق الشمس والروابي الطافحة بالحب .

فأحمد حمدي مثلا يتحدث عن الفلاح في قصيدته - قصائد إلى الفلاح - من رؤية حالمة لا تستطيع النفاذ إلى أعماق وضعيته الاجتماعية وعذاباته اليومية :

أنه يكبر كالطفل وكان

حقله فردوس شاعر

يتنفس

نسمة الصبح

بلا غاز المدائن

فتشبيه الفلاح بالطفل تشبيه سطحي ، وإذا كان الطفل رمز البراءة والخصب والنماء فإن الفلاح - في رأيي - رمز القوة والنضال المستمر ، فما وجه الصلة بين القوة والضعف .

وفي تصويره لحقل الفلاح بفردوس الشاعر نظرة بعيدة رومانسية تدل عن قصور في فهم الفلاح ودوره الكفاحي في تحول المجتمع .

أما صورة الأرض في شعر رزاقي عبد العالي فهي أكثر استشرافا بواقع الفلاح وصلته بالأرض كرمز للخصب الدائم .

ففي قصيدته " أغنية إلى مستفيد من الثورة الزراعية " ، يتغنى الشاعر بالمستفيد الذي أعادت إليه الثورة الاجتماعية أرضه ويجاهر بواقع فكري جديد يلغي المفاهيم الشعرية القديمة ويضم بدلها مفاهيم انسانية أشد صلة بالأرض :

أعيد كتابة تاريخ أمي

ومن هي أمك ؟

يسألني واحد من بلادي

أغيب عن البال في لحظة الرد ولكن صوتي

ينثال بين شفاه رفاقي
إذا جئت يوما إلى الحقل تعرف من هي أمي

إذا هذا المقطع من الشعر يتضمن إدراكا كبيرا لدور الجماهير الفلاحية في تاريخنا النضالي ضد الاستعمار وأعوانه ، فصلة الفلاح القديمة بالأرض جعلت منه ثائرا رياديا منذ دخول الاستعمار .

وصلة الشاعر في هذا المقطع لا تخلو من مناحي صوفية تشير إلى حبه الشديد للأرض وللمستفيد .

ويطالب الشاعر في قصيدة " رسوم على معول " بوحدة الطالب والعامل والفلاح ، وهذه هي العناصر الأولى الأساسية لبناء المجتمع الاشتراكي الخالي من الاستبداد والاستغلال :

وحدوهم
وحدوهم
وحدوهم نحن لن نوصف سواهم زعماء
وسدوهم نبض القلب إذا ماتوا
وشدونا إليهم

يعلي الشاعر من قيمة هذه الفئات الاجتماعية ، كما يلح على تشابكها ، فهي في رأيه طليعة المجتمع ورائدته في تحقيق أعراس الثورة الاشتراكية، ولا يخفى شغف حبه لهذا الثالوث المقدس الذي ربط مصيره به.

و" كانت البداية " ، وما أصعب البدايات قصة للأديب الموهوب عبد الحميد بورايو نشرت بالشعب الثقافي .

والبداية المقصودة هي - في رأيي بداية - تطبيق الثورة الزراعية والصعوبة الخطيرة التي وقفت تمنع تقدم هذا الإنجاز الاجتماعي الهام ، يمكنني أن أرجعها إلى عالمين أساسيين :

العامل الأول : تعاضد البرجوازية والإقطاعية ، بورجوازية المدينة وإقطاعية الريف.

العامل الثاني : كان سببه التسامح الوطني الذي واكب سنوات الاستقلال ، فورث الكثير امتيازاتهم الاجتماعية عن العهد الاستعماري بالرغم من أن تعاطفهم مع سلطات العدو لم يكن خاف ، وكان الأجدر بالثورة أن تقصي

من طريقها كل الطحالب والأحجار التي تمنع تدفقها . وللأسف أن هذه البقايا لا تزال تحلم أحلاما كبيرة .

« عندما بدأوا تطبيق الثورة الزراعية سحبت مديرية الفلاحة أدواتها، سحبت الشاحنة والجرار، وفي البداية لم نجد تفسيرا لذلك، وقلنا كيف يقع ذلك والحكومة حكومة واحدة ؟! فهمنا بعد ذلك ، قال أحد سكان القرية.

هل نسيتم موقف مسؤول الفلاحة من الثورة المسلحة ؟ » .

إن قصة " وكانت البداية " تحمل أكثر من قضية ، قضية سياسية ، قضية اجتماعية ، قضية إنسانية .

تصور بؤس الفلاحين الذين وقعوا تحت رحمة قوتين : قوة السماء التي لم تمطر ، ورحمة المسؤول الفلاحي الذي لا يرجو أي نفع لهم ، ويوجد تركيز في القصة عن الخطوط المتفاوتة بين أطفال الريف وأطفال المدينة .

فأطفال الأرياف أقل حظوظا وعناية ، وأن الأمراض القاتلة تهدد حياتهم ، تضاعف الأمراض الاجتماعية المدينة ، كتصرفات الإدارة القاسية وتجاهلها تعب المرضى وشقاوة المواطنين .

يوم مات ابني البكر بالحصبة قال لي ممرض المستوصف دواء الحصبة كان موجودا في مستشفى المدينة ، عندما ذهبت لآتي به طلبوا مني موافقة مدير الصحة ، كان اليوم سبتا والساعة الحادية عشرة ، المكتب مقفل عشية السبت ويوم الأحد ، مات ابنك صبيحة يوم الاثنين ، قبل وصول الدواء ، الحكومة حكومة واحدة والأطفال في المدينة يعالجون بالأدوية فيعيشون ، والأطفال في القرية لا يجدون الدواء فيموتون .

الخاصية التي ينفرد بها أعداء الثورة الزراعية الإهمال وعدم الإحساس بعذاب الفلاحين ووضعهم الاجتماعي الدامي .

فقد تتأخر عنهم الشهرية - على قلتها - وقد تصلهم المواد الزراعية بعد أن ينقضي موسم الزرع ، أو تصلهم وهي غير صالحة ، وفي كل الحالات تحسب على ميزانياتهم .

يصور القاص الحالة الاجتماعية لأسرة أحد المستفيدين : « لقد تمكنا من أكل الكسرة مدة ثلاثة أسابيع ، أما الأسبوع الأخير فالتمر اليابس هو الغذاء والعشاء » .

ومن القصص" الأرض بخطوات فنية طموحة أحمد منور ، وأيضا قصص " حين لمن يخدمها " للأديب الرصين الهادئ ، والذي يتقدم يبرعم الرفض " للأديب إدريس بوذيبة ، وقصة " الأكواخ تحترق " لمحمد زتيلي، ورواية الفنان الطاهر وطار " جميلة العشق والموت في الزمن الحراشي "، و" ريح الجنوب " للروائي الأستاذ عبد الحميد بن هدوقة ، و" لقاء في الريف " لحسان الجيلاني .

ومن الروايات التي تبرز البطل المناهض للثورة الزراعية ، رواية " الزلزال " للطاهر وطار الشخصية الرئيسية " عبد المجيد بولرواح " ، والذي يحمل اسمه الكثير من معاني الشدة والصلابة ينتقل من العاصمة إلى مدينة قسنطينة بمجرد إشاعة خبر تأميم الأراضي ، ليقف ضد قرار التأميم ليتآمر ضد مسؤولي الثورة الزراعية ، وأثناء تنقله بين شوارع وأزقة مدينة المعاصرة التي تناولت الأرض : قصة قسنطينة الشعبية يتذكر ماضي عائلته المثخن بالخيانة الوطنية ، فجده مهد لجند الاحتلال اقتحام منطقته ووالده هو رجل مقرب من السلطات الاستعمارية ، وأحد عناصرها ، فقد كان والده لا يرى أبناء بلده .. إلا خدما وعبيدا وأحجار واد لا تصلح إلا أن نمر فوقها ..

يتضح موقف عبد المجيد بولرواح المضاد للتحولات الاجتماعية الإيجابية حينما يستنكر ارتقاء بعض معارفه ويعتبر هذا القول إهانة كبرى له (عبد القادر العزاجلي الذي ضيع أرض أبيه أستاذ في ثانوية ويسكن في عمارات الأساتذة ، هذا تحد صارخ لي ، تطاول) .

فقد استشهد صهره الحلاق وارتقى الطاهر بولرواح النشال إلى ضابط سام في الجيش الشعبي ، وتطور ابن خالته عيسى بولرواح مقدم الزاوية سابقا إلى مناضل هام .

فهذه التحولات الاجتماعية نزلت كالصاعقة على عبد المجيد بولرواح ، فلم يقو عقله على استساغتها ، فيصاب بانهيار عصبي حاد يفقد على إثره عقله ، وترمز هذه النهاية إلى مصير كل من يقف ضد الانجازات الاجتماعية .

يستطيع الدارس أن يكشف عناصر كثيرة في شخصية عبد المجيد بولرواح عدى عداءه الشديد للتحولات الاجتماعية ، فالدارس النفسي يمكنه أن يكتشف شذوذه وأمراضه والمؤرخ يمكنه أن يكتشف خيانة عائلته وتعاونها مع الاستعمار ضد أبناء بلده من خلال تداعياته .

وهو أخيرا نموذج لأعداء التحولات الاجتماعية ، هذه قضايا أخرى أرجو أن تتاح لي الفرصة لإبرازها في دراسة أخرى .

قضية الهجرة في الأدب الجزائري :

قضية الهجرة تشغل حيزا مهما من اهتمام سياسة بلادنا وتشكل إحدى الانشغالات الكبرى لأدبائنا وفنانينا ، إن الذي يريد أن يتتبع مسارب هذه القضية عبر مختلف الأشكال التعبيرية يجد صعوبة بالغة في الوصول إلى رقم نهائي أو إلى دراسة تامة .

لوحات فنية كثيرة كان موضوعها الهجرة ، نماذج قصصية كثيرة باللغة العربية وبالفرنسية ، صورت عذابات المغترب الجزائري ومعاناته اليومية ، وتعرضه للإهانة ، وشعوره بالغربة القاسية ، وتقزمه أمام التطور التكنولوجي الهائل تحار نفسيته بين جذوره الحنينة والمظاهر الغريبة البراقة، وتناول الشعراء والسينمائيون والمسرحيون الهجرة ... صور السينمائيون الحياة اليومية للعامل الجزائري بمصانع الغرب ، والأعمال الشاقة التي يكلف بها فبالرغم من عمله فإنه يجازى في الكثير من الحالات بألوان من القسوة والجفاء والاحتقار ويخلقون في أعماله شعورا بالنقص والذل .

وقضية الهجرة في الأدب الجزائري واسعة تتطلب من الدارس وقتا أطول ، كما تستلزم مساحة أوسع ، ولعل هذا لفرصة أخرى واكتفي في هذه المرة بهذا الجزء ، الذي أقصد من ورائه إلى إثارة هذه القضية التي أعتبرها من القضايا الاجتماعية الحساسة ، إذ المغترب الجزائري ينبغي ألا يدرس بمنعزل عن جذوره ، فالمغتربون يعيشون بين تمزقين ، تمزق حضاري وفي معظم الأحيان تشعل فتيلته جروح الماضي الاستعماري ، وتمزق داخلي أيضا يشده إلى قريته أو بلدته ، أين تغوص عروقه ، الزوجة ، الأولاد ، رفاق الصبى ، رائحة الأرض وغروب الشمس وشروقها .

فقضية الهجرة اعتبرها من القضايا الاجتماعية الدقيقة ، التي تتطلب انتباها مستمرا وينبغي ألا نغمض أجفاننا عن ملفها .

النماذج الأدبية المدروسة في هذه المحاولة تمثل الجزء القليل من المادة الاجتماعية المتوفرة بين يدي ، والتي أعد بتناولها حينما أقدم على توسيع هذه الدراسة ، فهي في الأصل جزء من مشروع طويل .

ومن بين هذه الأعمال الأدبية ، قصيدة من أجل هوية للشاعرة أحلام مستغانمي ، القصيدة في حالة بحث عن نظارة بطاقة هوية المغترب ، الذي يتنازل تحت ضغط الظروف عن بعض ملامحها المقدسة .

« يطعن في كرامته ، يذل ، يكلف بالأعمال الشاقة ، الوضعية التي يتسامى الأروبي عنها ، منحتهم فرنسا شوارعها المتسخة فتوزعوا على خارطة الجوع يجمعون القمامة ويكنسون زبالة الناس المحترمين » .

وفي القصيدة إشادة مباشرة وتقريرية إلى عمليات الاغتيالات التي تنفذها مصالح الأمن الفرنسية ضد المغتربين الجزائريين تحت ستائر متعددة الألوان ، ولكن التحريات تكشف في كل حالة أن أعماق مصالح الأمن الفرنسية لم تستطع التنصل من عقدة التفوق الاستعماري.

في قصيدة الشاعر حمري بحري " مغترب .. عائد من مناجم لوران " تركيز على المغترب الذي أفنت مناجم لوران قوته وأنبتت أعماقه سعالا حادا مستديما ، القصيدة محاولة للإلمام بواقع المغترب ، حنينه إلى أبنائه والصلة الخفية الأصيلة صوت العائلة .

وتوحي صورته الخارجية إلى قساوة ظروف العمل ومدى معاناته اليومية فينتشوه جسمه وتصدأ كفه وتثقل خطواته من شدة غربة الطريق .

ويوجد في القصيدة أيضا تركيز على أوقات العمل :

يقال في حناياه سم
تمل خطه الطريق
وينأى الرفيق
وتصدأ كفاه
والوشم فحم
تمر السنون
يجي الحنين
ويفتح للذكريات البعيدة جسرا وبابا
ويشتاق صوتا بعيدا
يناديه بابا

الصلة بين المغترب والوطن ، صلة داخلية تتجاوز الحدود الجغرافية إلى عوامل أكثر متانة ، فصوت الأسرة والأهل والرفاق اتصال روحي يظل مهيمنا على مشاعر المغترب ، ويشده للأرض الزوجة والابن والحقل ، فإذا زال هذا الاتصال تحولت مجاري الهجرة.

وهذا - في رأيي - من أبرز عوامل العودة ، فابتعاد المغترب عن أهله يعرضه لأمراض نفسية دائمة ويغرقه في تفكير مستمر بأسرته وظروفها الحياتية .

وفي ختام القصيدة صورة رائعة لا تخلو من كثافة مدلولية ، فبعد أن تمتص مصانع الغرب قوى المهاجرين ، وتسلبهم شبابهم عز حياتهم ، فتغور العيون وتهزل الأبدان ، هذه إشارة ذكية تحجب أكثر من معنى .

في الأمس سلب الاستعمار خيرات بلادنا واليوم تسلبنا مصانعه عز أبداننا ، وقوة الشباب ، يقول :

يعانق زفرة

ذراعاه خيط

وعيناه حفرة

لولا بساطة هذه القصيدة من الناحية الفنية ، لاعتبرت عملا فنيا راقيا . وتعد قصيدة " الوصية " للشاعر أزراج عمر أكثر فنية وشاعرية من القصيدتين السابقتين ، شخصية هذه القصيدة مغترب توفى بإحدى مصانع فرنسا " تحت ردم من حديد "

موقف الأم يتجلى في تساؤلها لماذا تهاجر ؟ فهذا التساؤل الذي ورد بصيغة المضارع لم تعن به ولدها اسماعيل فقط الذي وصلها ميتا ، بعد ستين سنة قضاها في معامل فرنسا ، إنما هي تقصد به كل من ينوي التنصل من بلده ، فلم نتخلى عن أرضنا ، وهي باستطاعتها أن تمنحنا التمر والزهر والبحر ، فقط يجب أن نعانقها في شوق مستديم وأن نمنحها حبنا ، فهي آنذاك تتدفق خصبا ورواء ، ومن بين القصص التي اتخذت الهجرة مدارا لها، قصة لقاص شاب ظهر فجأة ونشط أدبيا لمدة وجيزة 75-77 ثم اختفى، هو القاص محمد سليني - سكيكدة - فلهذا الأخ قصة تحمل عنوان " عدم الهجرة " ، نشرت بالشعب الأسبوعي يوم 18 اكتوبر 1975 عدد 15 ، والقاصة الجزائرية الموهوبة زليخة السعودي قصة " من وراء المنحنى " ،

وللقاص الجزائري الشريف الأدرع قصة بعنوان "السفينة ترسو " نشرت هذه القصة " الهجرة إلى أوربا " بالشعب الثقافي أولا ثم بمجموعته الأولى " ما قبل البعد " .

موضوع هذه القصة .. الهجرة .. إلى أروبا وبالذات إلى فرنسا ، فالشخصية الرئيسية للقصة تقسو عليه الظروف فيضطر إلى الهجرة ، وما أن تطأ قدماه أرض الغربة حتى يصاب بمرض شديد سببه له العمل الشاق المضني حينما يحس أرباب المعمل بعدم جدواه وقلة مردود مجهوده البدني، يقدمون تقريرا لرجال البوليس يوصون فيه طرده من أرض فرنسا ، لأن بقاءه فوق التراب الفرنسي لم يعد يقدم فائدة ، فيسارع رجال الشرطة إليه ويعاملون بخشونة:

يمكنك أن تذهب
إلى أين ؟
من حيث أتيت ـ
كيف حدث هذا ؟ هذا أمر

وللأديب الجزائري الأستاذ عبد الحميد بن هدوقة قصة تحمل عنوان " المغترب " . بدأ هذه لقصة بحوار بين شرطي فرنسي مجهول، وبين " المولود " مغترب جزائري ، صاحب مطعم ومن خلال لغة الحوار تطفو صورتان :

1 - صورة الشرطي العنيف الحقود تخلو شخصية من أي ملمح إنساني.
2 - وصورة المولود الطيب ، الضحية ، والذي يرتقب الشفقة .

ثم يساق المولود برفقة جمع من أبناء الجزائر إلى مركز الشرطة الفرنسية فينتظر ساعات طوال ، قبل أن يمتثل أمام المحافظ فيشعر خلالها بالإهانة الشديدة ، وبأن كرامته قد طعنت في الصميم .

يصف الكاتب الطريقة التي تجمع بها الشرطة الفرنسية العمال الجزائريين ، والمكان الذي ينتظرون فيه مواعيد التحقيق : « أوصلت السيارة إلى المركز وأنزل العمال منها ، بأعقاب البندقيات وحشروا في إحدى الممرات حشرا حيث لم يكونوا فيه وحدهم ، فقد كانت هناك مجموعة أخرى من العمال جيء بهم من مختلف الضواحي ، وكانت ظروف إيقافهم ونقلهم إلى المركز متماثلة .. تقف السيارة أمام المقهى وتحاصر الشرطة من

فيها ، ثم تأمرهم بالركوب وتقودهم إلى المركز حين تفرغهم في ذلك الممر الطويل الذي يشبه الدهليز ... وهناك ينتظرون الساعات الطويلة ، قبل أن يشرع في التحقيق معهم ، وكانوا أحيانا يقفون الليلة والليلتين ثم يطلق سراحهم ، بدون أن يتعرضوا لأي تحقيق ، وغاية هذه العمليات هي غالبا إشعار الجزائريين بأنهم غير مرغوب فيهم على الأقل من طرف الشرطة ».

يعلم المولود من بداية حديث المحافظ إليه أن الشرطة ألقت القبض عليه بتهمة السرقة ثم يسأله عن مصدر المال الضخم الذي اشترى به محله، يشرح المولود طريقة حصوله عن المال لمحافظ الشرطة : « اقتصدت طوال السنوات الماضية لأستطيع اكتراء محل - ، - أكل البطاطس والخبز سنوات - ، - المال الذي اكتريت به المحل من عرق جبيني » .

بالرغم من هذه الحجج ، فإن محافظ الشرطة يقض كل رجاء المولود « عندما تصل إلى الجزائر هي كحججك للمطالبة بحقك » .

هذا الموقف يشير بعمق إلى استحالة إمكانية إقامة صلات عميقة بين المغتربين وبين جذوره الاستعمارية ، ومثل هذه الحالات الإنهيارية يمكنها أن تفقد الإنسان عقله بسرعة ، فيحول من عامل إيجابي يشارك في البناء الاجتماعي ، إلى عامل سلبي يعيش على هامش المجتمع ، وهذه الحالة قد تسهم في خلق ظاهرة اجتماعية خطيرة تشوه وجه المجتمع ، وتولد فئة لا تؤدي دورها البشري .

ومن القضايا الاجتماعية الأخرى والتي حفل بها الأدب الجزائري المعاصر هي :

القضايا ذات الاتصال المباشر بالمواطن وبحاجاته اليومية ، أبرز هذه القضايا : صلة المواطن بالإدارة ، والهجرة إلى المدينة وما ينتج عنها من تراكم سكاني حول المدن ، وأنانية بعض المسؤولين الذين يحولون كل التراث لصالحهم الخاص .

كتب الأستاذ عبد الحميد بن هدوقة ، روايته " بان الصبح " في فترة مناقشة الميثاق الوطني (1976) ، الذي يعد أهم إنجاز إيديولوجي لفلسفة المجتمع الجزائري منذ الاستقلال (1962) والذي سوف يظل اختيار القاعدة الشعبية تستمد منه أنوارها كما تعتمده القيادة الثورية في كل آفاقها ومشاريعها التنموية . عائلة الشيخ علاوة أحد برجوازيي مدينة الجزائر ،

تشكل البناء الأساسي للرواية ، وفي الرواية شخصية نموذجية للموظف السلبي ، الذي يؤثر تأثيرا عكسيا على تحولاتنا المتقدمة هي شخصية عمر ابن الشيخ علاوة ، والذي يشغل منصب مدير شركة .

الملامح النفسية التي تمتاز بها شخصية عمر : الكذب ، الاحتيال ، التمظهر ، السرقة ، يتوصل والده لاكتشاف هذه الصفات عندما يفتح رسالته.

شخوص هذه الرواية يمكن للدارس تصنيفها إلى قسمين حسب الانتماء الاجتماعي مع الإشارة أن الموقف من المسار الثوري ، وتنمية المناخ الفكر الاجتماعي ونقيضه هو الأساس في التصنيف :

1 - الذين وقفوا إلى جنب المشروع التمهيدي للميثاق الوطني وطروحاته الاجتماعية الهامة ، ورؤاه الفكرية والعقائدية وهم نعيمة ابنة المجاهد ، ويدل هذا على الإرث المتأصل ، ورضا ابن الشيخ علاوة ، والدلالة " ذهبية " العاملة بإحدى حمامات العاصمة ، وكذلك عمال البناء .

في تدخل أحد عمال البناء يكشف لنعيمة بعض الظواهر السلبية المؤثرة على حركتنا الاجتماعية ، وللأسف الشديد فإذا نمت هذه الظواهر الخطيرة بين من بأيديهم تسيير أمور الجماهير ، والاتجاهات الأساسية للوطن ، فإن عملهم آنذاك سوف يكون أشد ضررا ، وأكثر تخريبا ، وأعمق جرحا .

2 - الفئة الثانية تشمل كل الاستغلاليين ، ذوي الأملاك الكبيرة وأصحاب النفوذ السلطويين الذين ينتشلون أموال الشعب باسم حصانة مراكزهم الإدارية والبرجوازية التي ظلت تعيش على أحلام الماضي المليء بالخيانات الوطنية ، والولاء جهرا للحركة الاستعمارية ، يمثل هذه الفئة الشيخ علاوة وابنه عمر وأسرة ابن عبد الجليل .

قضية اجتماعية أخرى تثيرها قصيدة الشاعر محمد زتيلي " المستشفى " الذي يعد بمثابة محور الحدث الشعري لم يعد مركزا لمنح الرحمة والحياة وإعادة السعادة للمرضى ؛ فإهمال المرضى وسوء التنظيم ، وخشونة استقبال المرضى هي العلامات المميزة لهذه المؤسسات الإنسانية .

" أمي ماتت في إحدى صالات المستشفى
فوق سريير مهترئ
سرقوا منها قرطيها ، وسواريها الذهبيين

وقميصا ليليا وردي اللون
قطعوا حبال .. السيروم ..
شهدوا موت المرأة في فرح وذهول
كيلا تحتج على كل السرقات "

نماذج إبداعية كثيرة محورها المنحى الاجتماعي ، فأرجو أن تتاح لي فرصة أو لغيري لدراستها .

... وخلاصة هذه الدراسة التي ركزت فيها على إبراز بعض القضايا الاجتماعية يمكنني أن أجملها في جملة من النقاط :

- امتاز الأدب الجزائري بخاصية جمعية يمكن للدارس تتبعها في النتاج الابداعي القديم والجديد ولا يعني هذا خلو الأدب الجزائري من الموضوعات الذاتية كالغزل والرثاء والهجاء .. فهي موضوعات لم تكن تشكل ظواهر أدبية واسعة الذيوع .

- يمكن للدارس أن يكتشف دون جهد كبير ، اهتمام الأدباء الجزائريين ذات المناحي الموضوعية ، إذ الموضوعات التي أخذت جهد الأدباء موضوعات جد التزامية ، كالدفاع عن الوطن والشرف والكرامة والدعوة للاصلاح ، والنضال .

- مواكبة الأدب الجزائري لمسار مجتمعنا ، مواكبة واعية بالضمير الجمعي ، ويمكن تتبع نصاعة هذه المواكبة من خلال النتاج الأدبي .

- للبيئة الجزائرية دور كبير في بناء العملية الفنية للمبدع الجزائري، من خلال ثلاثية محمد ذيب ، وابن الفقير لمولود فرعون ، ورواية الزلزال للأديب الطاهر وطار .

يشكل المنحى الاجتماعي للنتاج الأدبي الذي ظهر بعد عام 1970 المنحنى البارز والمميز ، ووقف في وجه تقدم بعض التيارات الأدبية كالرومانسي والوجودي والسوريالي .

- المصادر والمراجع :

1 - جان بول سارتر، عارنا في الجزائر ، ترجمة الدكتور سهيل إدريس ، دار الأداب ، بيروت - لبنان ، ص 33 .

2 - محمد بن عمار الطمار ، تاريخ الأدب الجزائري ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر ، ط 2 ، سنة 1982 ، ص 355 .

3 - نفسه ، ص 357 .

4 - نفسه ، ص 358 .

5 - أنور الجندي ، الفكر والثقافة المعاصرة في شمال افريقيا ، القاهرة، سنة 1961 ، ص 58 .

6 - مفدي زكريا ، مقدمة ديوان اللهب المقدس .

7 - نفسه ، ص 10 .

8 - محمد الطمار ، تاريخ الأدب الجزائري ص 457 .

9 - د. صالح خرفي ، صفحات من الجزائر ، ص 107 .

توجد أشعار صوفية مثل أشعار الأمير عبد القادر ولكنها لا تكون ظاهرة في الأدب الجزائري قديمه وحديثه .

10 - جان بول سارتر ، عارنا في الجزائر ص 13 .

11 - نفسه ، ص 14 .

12 - العماد طلاح والمقدم بسام العسلي ، الثورات الجزائرية ، دار الشورى - بيروت ، ط 1 ، سنة 182 ، ص 89 .

13 - حزب جبهة التحرير الوطني الميثاق الوطني ص 106.

14 - أحمد حمدي ، انفجارات ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، ص 37 .

15 - رزاقي عبد العالي ، الحب في درجة الصفر ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر ، ص 42 .

16 - نفس المصدر ، ص 40 .

17 - بورايو عبد الحميد ، وكانت البداية ، الشعب الثقافي ، ص 14 .

18 - نفس المصدر ، ص 24 .

19 - الطاهر وطار ، الزلزال ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، ص 175 .

20 - نفس المصدر ، ص 161 .

3 - نظرة من الداخل
إلى مسيرة الحركة الأدبية الشابة في الجزائر(*)

هل عبر الشعر الجزائري الحديث عن ملحمة الثورة، وارتفع إلى مستوى غرة نوفمبر 1954 العظيمة، وهل وقف الشعراء إلى جانب المناضلين والمجاهدين ، وهل وقفت الكلمة إلى جانب البندقية ؟

للإجابة على هذه الأسئلة وغيرها أقول : لقد رأى البعض أن الشعر لم يرتفع إلى مستوى عمق الثورة التحريرية وفلسفتها ، واعتبرو معظم النتاج الشعري مجرد شعارات ومنشورات سياسية لا غير [1] ، في حين يعتقد طرف آخر أن الشعر كان متجاوبا إلى أبعد التجاوب مع الثورة ، فقد التزم التزاما كاملا للتعبير عن عمقها ووقف مدافعا عن الأرض ، والإنسان وكان في ذلك صادقا أشد الصدق إذ حين ؛ اشتعلت الثورة أذكت العواطف ، وهزت المشاعر الأقلام ، التي كانت من قبل مكبوتة وفتحت أمام الشعراء آفاقا ما كان يستطيع أن يحلم بها لولا الدم ، الثأر والنضال ، وقد تفجرت نتيجة لذلك عواطف الشعراء بشعر ثوري عارم يسجل انتصارات الثورة ، ويبشر المحزونين والمتألمين ، ويضمد الجراح ، ويكفكف الدموع ، ويخلد الشهداء، والأبطال، والوقائع [2] . يقول محمد بن عمار الطمار : « واندلعت ، وأكرهت الأدباء أن يشاركوا في السياسة مشاركة فعلية عنيفة ، فأصبح الأدباء ألسنة لهذا الشعب يعبرون عن نفسه أكثر مما يعبرون عن أنفسهم ، ويصورون حياته أكثر مما يصورون حياة أنفسهم ، فأصبحوا مرآة للشعب ينطقون بلسانه ويصورون آلامه وآماله .. فأدبنا الحديث شعبي لا ينشئه إلا قوم ينتمون لقوم ممتازين »[3] .

وعن مدى صحة هذا الزعم نحاول أن نثبت مقاطع شعرية لعدد من شعراء الثورة

يقول الشاعر محمد العيد آل خليفة على لسان جيش التحرير :

* - صدر هذا المقال في مجلة الطليعة العراقية ، العدد السادس ، السنة الخامسة ، حزيران 1979.

نحن جيش التحرير جند النضال نحن أسد الفدا نمور النـــوال
دمدم الطبـل للنفير فثرنـــا وهزنا البـلاد كالزلـزال
واتخذنا مـن الجـبال قلاعــا تقرع السمع بالصدى كالجبال
فالإذاعات تنبـئ الناس عنـا بانتصـاراتنا بكـل مجـال
كـم أقمنا شواهد الحق فيهـا وضـربنـا شوارد الأمثـال [4]

ويعبر الشاعر الدكتور صالح خرفي في قصيدته عن وفاء حبيبة لحبيبها ، وأن حبها قد تحول إلى ثورة ، لكنها تعده بأنها تمنحه حبا عظيما عندما تعلوا ابتسامات النصر ، ويرحل الاستعمار والجراح ، وتكون معه بيتا سعيدا جميلا تحت سماء الجزائر الزرقاء ، وفوق أرضها ذات الرائحة الطيبة :

ياحبيبي لم أخن عهدي ، ولا خنت هوايا
غير أن الحب أمسى ثورة بين الحنايا
لك حبي في ذرى الأطلس في تلك الروابي
لك حبي يوم تعلو بسمة النصر ثرانا
ويذيب الليل ، والآلام بحر من دمانا
سوف ألقاك مع الليل وأفراح البشائر
سوف نبني عشنا في ظل الجزائر [5].

وقد صور شعراء الثورة وحشية الجيش الفرنسي ، وأعماله الوحشية ، فقد قتل الأطفال ، واعتدى على حرمة النسوة ، وأعدم ، وشنق الكبار ، وملأ السجون بالمناضلين ، وأباد قرى ، وأحرق المزارع والديار ، ورغم كل هذا فإن الشعب الجزائري آمن بحتمية انكسار الوحش الظالم وقد عبر عن هذا الشاعر مفدي زكريا ، إذ يقول :

لا النار ، لا التقتيل يثـــني عزمــه لا السجن لا التنكيل ، لا الإعدام
لا الذاريات ، الماحقات هواطلا لا الشـامخات تدكـهـــا الألغـام
لا القاصرات الفاقلات كواعبـا ديست قداستهـا وفـض ختـــام
لا الحـاملات بطـونها مبقـورة ذبحـت أجنتـها وفـــك حـزام
لا والمراضـع عوضـت أثدائـها بفم المسـدس والرصـاص فطـام
والأم يهتك عرضها وفحولـها حول الفضيحة شاخصون قيـام
ياللفضاعة من وحوش جـوع تسمو علـى أخلاقـهـا الأنعـام

وضعت فرنسا في النذالة بدعة   لم تروها الإعصار وهي ظلام
يالعنة الأجيال أنت شهادة   إن التمدن للشرور لثام [6]

وهذا الشاعر عبد السلام حبيب يهتز لبطولة وشجاعة محمد بن الصادق الذي اغتال خائن الأرض والإنسان " علي شكال " وهو يقف إلى جوار رئيس جمهورية فرنسا "كوتي" :

خذها ، ودمدم من مسدسه رصاص
خذها فقد حان القصاص
الويل لك ياخائن الشعب الجريج
لن استريح حتى تموت
سأقتلك باسم الوطن ، باسم الجراح والرعفة
باسم الجزائر ، والنضال خذها رصاصة ثائر [7]

وقد امتدت أصوات الشعراء خارج الحدود إلى أرض افريقيا القارة السمراء ، مطالبة الشعوب الافريقية بالثورة ، وقتال فرنسا الوحش الذي ابتلع شعوبها لمدة قرون ، وسرق حريتها ، وخيرات أرضها وقتل أطفالها ، ورجالها ، إنها لعنة البشرية ، يقول الشاعر مفدي زكريا :

لشعب افريقيا ستنفعك الدنيا   لو تصغي إليك الشعوب الأبية
وسيحكي هذا الزمان ويروي   لبدايا فضائح المدنية
فخذ الثأر من فرنسا وخلد   في الضحايا تلك النفوس الزكية
وانفجر صارخا وقل : يا فرنسا   أنت في الأرض هفوة الأزلية
يا فرنسا ... يا لعنة البشرية [8]

رغم الاحتجاج والصراخ ، فإن الشعر الجزائري في فترة الحرب قد عبر عن طموحات وبطولات ، وانتصارات الشعب الجزائري ، وكانت الكلمة تقف بكل شموخ إلى جانب ذوي الرصاصة في أعماق الوادي والجبل ، بل يمكننا أن نقول أنها ساهمت في إيصال سمعة الثورة وعنفها وشرعيتها إلى أعماق أعدائها . وإذا كان الأدب الجزائري قبل سنة 1962م سعى على مستوى المضمون للتعبير عن أبعاد الثورة الجزائرية ، وسجل كفاح شعب ، وصراعه مع أعظم قوة ذات دراية واسعة بفنون القتل والتعذيب والإبادة ، وامتصاص دماء الشعوب ، فماذا على مستوى الشكل ؟

لقد ظل الأدب الجزائري المواكب لسنوات الحرب الممتدة من فترة نوفمبر 1954 م إلى 5 جويلية 1962 ، حبيس الشكل التقليدي ، اتباعيا ، ووارثا وفيا لرواد حركة الاصلاح التي ظهرت في الثلاثينات ، إذ سيطر عليه الأسلوب الاندفاعي والحماسي ، والخطابي ، وظلت المقالة القاموسية ، والبحور الخليلية والقصة المقننة الأشكال المهيمنة على الأدب .

ولعل أكثر ما يميز الشعر الجزائري جزالة اللفظ ، وحبك العبارة على القوالب العتيقة وفقدان الروح التجديدية ، وعدم الوحدة الموضوعية والعضوية في القصيدة ، والكلف بالحكمة والتقرير والتعميم في الأحكام والاحتواء على العبارات الدينية والتاريخية على أساس التضمين والاقتباس كذلك يتميز بطول النفس والبساطة والتمهيد بالمقدمات الطويلة (9) .

وقد كادت الألفاظ القرآنية تسيطر على القاموس الشعري عند مفدي زكريا ، ومحمد العيد آل خليفة ولعل ذلك نتيجة طبيعية تعود إلى ثقافتهما الدينية ، أما الأشكال العتيقة الجامدة فقد ظلت سجى جل الأدباء ، ويمكن لنا تعليل سبب ذلك أن الثقافة العربية الجديدة التي ظهرت في المشرق العربي بعد الحرب الكونية الثانية لم تجد أبوابا مشرعة للدخول إلى الجزائر ، وذلك يرجع إلى الحصار الشديد المنيع الذي كانت السلطات الاستعمارية تفرضه على الثقافة العربية ، وكيف تسمح بدخول الثقافة العربية إلى الجزائر ، وهي التي اعتبرت اللغة العربية كباقي اللغات الأجنبية ، واعتبرت اللغة الفرنسية اللغة الرسمية ، فأصبحت لغة الإدارة ، والصحافة ، والدراسة ، في حين بقيت اللغة العربية لغة الكتاتيب ، والطرقية ، والزوايا ، والدروشة ، ويمكن لنا أن نعتبر هذا الحصار قد آخر ظهور عدة فنون أدبية ، كالرواية المكتوبة بالعربية ، في حين أفسح مجال تشجيع الثقافة الفرنسية إلى ظهور الرواية المكتوبة بالفرنسية قبل الثورة على يد : محمد ذيب ، ومولود فرعون ، والمرحوم مالك حداد وكاتب ياسين .

بعد الاستقلال :

الذي لا يختلف فيه اثنان أن شعراء الثورة الذين عبروا عنها ، قد فضلوا الصمت بعد الاستقلال ، فهذا محمد العيد آل خليفة يتقدم به السن فيقتنع بما منحته إياه ربات الشعر ، وأبو القاسم سعد الله ، وعبد الله شريط يفضلان الدراسة والبحث عن الشعر ، فاتجه الأول إلى الدراسات والأبحاث التاريخية ، مؤلفا ومحققا ، واتجه الثاني إلى البحث الاجتماعي والتأملي وآثر مفدي زكريا العيش في جمهورية تونس . ولم يبق إلا أصوات محمد

الأخضر السائحي ، وأبو القاسم خمار ، وصالح خرفي ، وهؤلاء أنفسهم قل نتاجهم الشعري ، ولم يتمكنوا من إيصال أصواتهم وساعد على جمود الحركة الأدبية قلة الصحافة العربية ، وندرة المجلات التي تهتم بالقضايا الأدبية والفكرية ، وعدم تشجيع المشرفين على الأركان الثقافية في بعض المجلات والجرائد للثقافة الجديدة ونشر نتاج مراسليهم ، مما أدى بالحركة الأدبية إلى الاختناق وفي سنة 1968 رأى الدكتور أبو القاسم سعد الله أن الخروج من هذا الركود الثقافي يتوقف على عدة عوامل :

1 - قيام الأديب برسالته وقدسية الكلمة التي هي شعاره وسلاحه .

2 - تضامن الأدباء وتعاطفهم ، لأن ما يضر بواحد منهم يضر بالجميع .

3 - تسامح السلطة مع الأديب والنظر إلى انتقاداته وثوراته لا باعتبارها خطرا يجب القضاء عليه ، ولكن على أنها علاقة ميلاد شيء جديد ، ودليل على حيوية وخصوبة المجتمع [10] .

وظل الوضع الثقافي والأدبي راكدا وخاليا من الإبداع الأدبي والتشجيع حتى أواخر الستينات وتحت الصراخ والعياط ، وسهام الاتهام ظهرت مجلة " آمال " [11] كمنبر مفتوح يطل من خلاله ذووا المواهب الأدبية على القراء ، حيث جاء في كلمة العدد الأول التي كتبها الأديب الجزائري الراحل ، مالك حداد : « وآمال وهو اسم المجلة ، تريد أن تكون واسطة تسمح للأدباء أن يبلغوا للقراء ما جادت به قريحتهم في بداية حياتهم الأدبية » . كما ظهر في هذه الفترة المجاهد الثقافي ، وهو ملحق ثقافي يصدر عن مجلة المجاهد ، وظهر أيضا اهتمام بأدب الشباب ، فقد خصصت يومية الشعب ركنا أسبوعيا لنشر إنتاج الشباب أو الرد على ما هو غير صالح للنشر ، وخصصت الإذاعة الوطنية حصة أسبوعية تهتم بأدب الشباب ، وتذيع الجيد منه ، أشرف على اعدادها الناقد الجزائري بلقاسم بن عبد الله ..

إذا كان هذا الاهتمام بأدب الشاب جاء في نهاية الستينات ، فإنه لا يمكن لنا اعتبار هذه الفترة الزمنية فترة ميلاد الحركة الأدبية الشابة ، بقدر ما يمكن لنا اعتبارها إنذارا بقدوم الربيع وآلام مخاض لولادة ، وسحاب يبشر بالخصب والمطر وقد تأخر ظهور هذه الحركة إلى ما بعد سنة 1970م ، وهذا ما نحاول إبرازه الآن .

نشأة الحركة الأدبية الشابة :

بعد اطلاعناعلى معظم المقالات التي كتبت حول الحركة الأدبية الشابة في الجزائر ، وتتبعنا لانتاج الشباب الذي ظهر ما بين 1963 و 1979 ، فإننا نستطيع أن نؤكد بكل ثقة أن مطلع السبعينات شهد ولادة الحركة الأدبية الشابة في الجزائر .

وقد انتظم في أيام 20-22-23 أفريل سنة 1972 ملتقى للشعراء الشباب في مدينة قسنطينة بمناسبة أسبوعها الثقافي الخامس ، وهو الملتقى الأول من نوعه فيما أعلم ، وقد استطاع هذا الملتقى أن يثبت خطى الحركة ومسيرتها بدون شك ، كما استطاع الشعراء المشاركون أن يخرجوا بعدة نتائج إيجابية ، وتفهموا واقعهم ، واكتشفوا دورهم في ضرورة التفاعل مع الأحداث والاندماج في مسيرة الثورة ، والالتحام مع الإنسان والأرض وتبني تطلعات وطموحات الجماهير ، وقد طالب المشاركون في الملتقى بعدة مطالب أراها موضوعية ومعبرة عن التزام واع ، بعيد عن الانفعالية والاندفاعية أذكر منها :

1 - على الشركة الوطنية للنشر والتوزيع أن تمنح فرصة النشر المنتظم للإنتاج الجزائري خاصة أدب الشباب .

2 - يطالبون الصحافة المكتوبة تحمل مسؤوليتها اتجاه كل كاتب مهما كانت ، وكذا المسموعة والمرئية .

3 - يطالبون الصحافة بتخصيص مساحة أوسع للثقافة ، وذلك بواسطة إصدار ملحقات .

4 - خلق حركة نقدية واعية تهتم بكافة التيارات الأدبية .. وإيجاد سياسة مستمرة لحركة الترجمة والتبادل .

5 - يرغبون في وجود اتحاد الكتاب الجزائريين حتى يجمع كل التيارات الأدبية .

6 - يقترحون الاتصالات الدائمة بالجمهور ، وذلك بواسطة لقاءات ، محاضرات ، أمسيات مناقشات .

7 - يتمنون تنظيم لقاءات بين الشعراء التقدميين في المغرب العربي [12] .

وقد لمعت أسماء تحمل أصواتا جريئة ، وشجاعة ، وهجومية ، أعطت الحماية القوية للحركة الأدبية الشابة التي يمثلها : عبد الحميد شكيل ، احمد حمدي ، عبد العالي رزاقي ، أحمد منور ، جروة علاوة وهبي ،

ازراج عمر ، جمال الطاهري ، ادريس بوذيبة ، عبد الحفيظ بوالطين .. وغيرهم ..

الشباب يتمردون ، والشيوخ يتهمون :

لقد واجهت الحركة الأدبية الشابة أثناء ظهورها رفضا شديدا ، وتعنت أدباء الجزائر الذين وصفوا كتابات الشباب أنها كتابات أطفال تشدهم حماسة سن المراهقة ، ويحتاجون إلى إعادة التربية ، ويستحقون الضرب على الأنامل لتطاولهم وشدة لهجتهم ، وأنهم يحملون أفكارا غريبة عن المجتمع ، وأخلاقه ، وفوضويين ، وكانت نتيجة هذا الرفض أن ازداد الشباب إيمانا بعدل قضيتهم ، فراحوا يعلنون في كل مناسبة بأن لا وصي على إنتاجهم ، واتهموا الأدباء الكبار [13] أنهم لن يمثلوا الأدب الجزائري الجديد ، وأن رفضهم لحركة الشباب هو خوف على مناصبهم ، ورجفة لطموحاتهم البرجوازية ، لذلك فهم يغلقون الأبواب في وجه كل قادم من أعماق الريف والأحياء الشعبية ، وقد رفض بعض الشباب أن تكون هذه الحركة اتباعية ، فهي تبنت نفسها بنفسها ، وتألمت كثيرا نتيجة الفقر والحرمان واللامبالات التي قوبلت بها [14] .

وقد اشتد الصراع بعد السبعينات بين الأدباء الكبار ، والشباب ، يقول الشاعر محمد زتيلي عن هذا الصراع : إن الصراع بين الكبار والصغار في بلادنا مخنوق في عقر داره ، مضروبة حوله أسوار حديدية صلبة ، حتى صار الحديث عن الأدب الشاب كالحديث عن تهريب المخدرات ، أسكتونا حتى عن إثبات وجودنا ، وسدوا في وجوهنا كل نافذة يمكن أن يدخلنا منها بصيص من نور ، كبلونا بسلاسل من النسيان ، وأرهقوا نفوسنا بقناطير من الصمت الفتاك ، مارسوا علينا أحدث ما توصلت إليه البيروقراطية الثقافية من اختراعات[15].

اهتمامات الشباب :

لقد تعددت وتنوعت اهتمامات الأدباء الشباب ، باختلاف المواهب وأصالتها ، وتعميق التجارب الأدبية والاتصال بطبقات المسحوقين ، فشمل انتاج الشباب الرواية والقصة والقصيدة ، والدراسة ، ويمكن لنا تقسيم عناصر الحركة الأدبية الشابة على ضوء قراءتنا وتتبعنا لمختلف الإنتاج إلى هذه المجموعات :

1 - الشعر : ونفس هذه المجموعة يمكن تقسيمها إلى :

- الذين يتمسكون بنظام وقواعد قصيدة الشعر الحر ، ومنهم : أحمد حمدي ، رزاقي عبد العالي ، ازراج عمر ، أحلام مستغانمي .

- الذين تمردوا على كل القوالب الجاهزة ، ووجدوا في قصيدة النثر مجالا رحبا لابداعهم ومنهم : عبد الحميد شكيل ، ادريس بوذيبة ، ربيعة جلطي ، وزينب لعوج .

- الذين اقتنعوا بشكل القصيدة التراثية ، ولم يتجاوزوا محطة المحافظة والولاء ، ومنهم: محمد بن رقطان ، ومصطفى محمد الغماري ، جمال الطاهري في بعض أشعاره .

2 - القصة : وهذه المجموعة تنتمي إليها فئتان :

-كتاب القصة القصيرة : ونفس هذه المجموعة تنقسم إلى قسمين :

القسم الأول : يغامر على مستوى اللغة والمضمون ، ويكتب القصة الواعية المؤمنة بالتطور والانقلاب ، ويأخذ مادته من الواقع بلغة كثيفة تقترب في معظم الأحيان من لغة وأجواء القصيدة ، ومنهم عمار بلحسن ، والأعرج واسيني ، محمد الصالح حرز الله ، الأدرع الشريف ، محمد الأمين الزاوي ، وجروة علاوة وهبي .

القسم الثاني : رغم مجهوداته في تطوير قصته ، وتجاربه الدائمة ، فإنه لم يستطع الخروج من دائرة الولاء للقصة التقليدية وظل حبيس شكلها ومضمونها ، ولم يحاول المغامرة وكتاب هذه القصة : مرزوق عبد الرحيم، جميلة زنير ، علاوة بوجادي ، عبد الحفيظ بو الطين ، حسان الجيلاني، خلف بشير ، إلا أن الذي نلاحظه على هذه الأعمال القصصية أنها لم تبلغ مرحلة النضج والاكتمال على مستوى الشكل والمضمون أو استيعاب مضامين جديدة تعبر عن معاناة تبشر بفجر قصة جزائرية .. يحدث هذا إذا عمق القاصون تجاربهم وتفهموا أبعاد الثورة الاشتراكية .

3 - المقالة النقدية : ويمكن أن نضع ضمن هذه المجموعة : بلقاسم عبد الله، ازراج عمر ، عبد الرحيم مرزوق .

- الأصوات النسوية في الأدب الجزائري :

لقد تسائل الكثير عن غياب العنصر النسائي وخلو الحركة الأدبية منه ، وقد فسر البعض ذلك بقسوة الأسرة وتقاليدها التي لا تسمح للمرأة بالبروز والتعبير عن أفكارها وهمومها ، مشاركتها في تغيير البنى البالية الموروثة عن العهد الاستعماري ، ورأى البعض أن وظيفة المرأة يجب أن تنحصر في تدبير شؤون البيت والتبرج والاستعداد لاستقبال سيد البيت من عمله في المساء ، ولا شأن لها بالفكر والكتابة والنضال ، فهذا ليس من مهامها رغم هذه النظرة التشاؤمية ، فإن العنصر النسوي لم يغب تماما عن الساحة الأدبية بل ظل يزحف في صمت خجولا ، ويطل أحيانا محتشما من نوافذ ضيقة ، فالأسماء قليلة لا تتجاوز أصابع اليد الواحدة ، والانتاج قليل (16) .

ومن الأصوات النسائية البارزة الشاعرة احلام مستغانمي، وهي من مواليد سنة 1953م وبدأت تكتب الشعر في سن مبكرة ، وفي عمر تجربتها عملين الأول : على مرفأ الأيام ، المجموعة الشعرية الأولى ، والثاني : الكتابة في لحظة عري (17) بالإضافة إلى مجموعة مقالات في الشعب الأسبوعي والمجاهد الأسبوعي ، وغيرهما وأحلام في عملها الثاني " الكتابة في لحظة عري " أظهرت طموحا جريئا على مستوى الفكرة واللفظة ، بل أثبتت أنها الصوت النسوي القوي الذي يقف بكل شموخ إلى جانب الرجل ، ويمكن للمرأة أن تعطي رأيها بكل صراحة وحرية اتجاه التحولات الكبرى في مجتمعها وغيره ، وتوضح موقفها من نظرة السادة أصحاب الأموال إلى الفقراء . ومن الأصوات أيضا الشاعرة مبروكة بوساحة التي استهلك عملها الإذاعي موهبتها ، وكذلك جميلة زنير التي لم تستطع أن تمزق شرنقتها ، وظلت حبيسة القصة الاتباعية شكلا ومضمونا ، ولعلها بقصتها الأخيرة : رائحة البصل تحقق انتصارا كبيرا خاصة على مستوى اللغة ، إذ أدركت ضرورة التحول والبحث عن الجديد .

وفي سنة 1976 ، بدأت أصوات نسائية أخرى تظهر حاملة معها روح التمرد والثورة ، فكان صوت زينب لعوج ، وربيعة جلطي أهم هذه الأصوات ، وأقواها ، وأكثرها ثورية ووعيا وانفتاحا ، وأحسنها عطاء ووعدا . ولعل السنوات القادمة تكشف عن أسماء نسوية أخرى تساهم في تدعيم الحركة الأدبية الشابة ، وتعبر بقوة وجرأة أكثر .

- اتحاد الكتاب الجزائريين والأدباء الشباب :

إن ميلاد منظمة اتجاد الكتاب الجزائريين في مطلع سنة 1974م ، جاء تلبية لرغبات الأوساط المثقفة وذلك للدور الكبير الذي يقوم به في سبيل

نشر الثقافة الوطنية ، والوقوف أمام هذا الزحف الثقافي الأمبريالي ، وغلق الأبواب والنوافذ في وجهه ، ومنعه من التمكن والاستيطان في نفوس أجيالنا كما أنه من مهام الاتحاد مساعدة الأدباء في نشر إنتاجهم ، وتقديمهم إلى القراء ، وقد أجمل القانون الأساسي لاتحاد الكتاب الجزائريين في مقدمته دور الاتحاد في ثلاث نقاط :

1 - تحقيق الأهداف السامية للثورة في ميدان الفنون والأدب والثقافة .

2 - توفير الشروط الضرورية لقيام الكتاب الجزائريين بدورهم في الخلق والإبداع بالتلاحم مع القوى الثورية طبقا للاختيارات الأساسية للبلاد ، والالتزام الكامل بالشخصية الجزائرية في مضمونها العربي الاسلامي .

3 - إقامة تعاون وثيق مع الجمعيات الثقافية ، واتحادات الكتاب في مختلف البلدان (18) .

وإذا كان دور الاتحاد واضحا ومقبولا ، فما موقفه من أدب الشباب ؟ لقد أوضحت المادة 11 من اللائحة الداخلية بأن يكون تشجيع الكتاب الناشئين بنشر إنتاجهم في مجلة الاتحاد أو مطبوعاته الأخرى ، وتخصيص جوائز لهم ، وعقد ندوات خاصة بأدبهم ن والتنويه بالبارزين منهم وإشراكهم في وفود الإتحاد إلى المؤتمرات بالخارج (19) .

إضافة إلى هذه الصراحة فإن الإتحاد ، كان قد وعد بإصدار مجلة ، ولكن المجلة لحد كتابة هذا الموضوع لم تصدر ولم تحقق هذه الوعود ، فلا الاتحاد شجع الشباب معنويا ولا ماديا ، ولا أصدر مجلته ، ولا صدرت مطبوعات تحمل اسمه ، ولو بالاشتراك مع الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.

وإذا كان الاتحاد احتل مكانا بارزا في شارع ديدوش مراد بالجزائر العاصمة ، وحاول أن يبعد عنه تهمة المركزية والبيروقراطية ، فكون له فرعين ، الأول مكتب الشرق الجزائري ، ومقره قسنطينة والثاني مكتب الغرب ، ومقره مدينة وهران فقط .

وقد رأى الشاعر الناقد عبد العالي رزاقي أن فكرة ، إنشاء الإتحاد ، ما هي إلا جملة لإتمام التحضيرات لعقد مؤتمر الأدباء العرب العاشر ، حيث قال : وإذا نظرنا إلى الفترة التي نشأ فيها الإتحاد نجدها فترة صعبة ، وما سعيه وراء التكوين العاجل لإتمام التحضيرات لمؤتمر الأدباء (20) .

إن هذه الشهادات الصادقة تؤكد أن هناك هوة بين الأدباء الشباب ، وبين إدارة الإتحاد وليس معنى وجود أدباء شباب في الهيأة الإدارية الجديدة

مثل الشاعر أحمد حمدي ، والقاص ، جروة علاوة وهبي وغيرهما أنهم يعبرون عن مطامح زملائهم .

- مشاكل الأدباء الشباب :

أبرز مشاكل الأدباء الشباب مشكلة النشر ، ويمكن لنا حصر هذه المشاكل في النقاط التالية :

1 - عدم وجود مجلات أدبية تأخذ بيد الشباب ، هنا أنوه بمجلة "آمال" التي خدمت كثيرا أدب الشباب ، للأسف وأنها الوحيدة .

2 - ورغم وجود أركان أدبية في الصفحات الوطنية الأسبوعية واليومية ، فإن هذه الأركان غير ثابتة ، وتخضع لمقاييس قاسية ، وظالمة وأحيانا تبرهن على غباوتها ، ولا تعبر عن الإبداع.

3 - إن توقف بعض ملاحق الثقافية مثل المجاهد الثقافي ، والشعب الأسبوعي ، والنصر الثقافي قد عقد مشكلة النشر ، إذ كانت هذه الملاحق منبرا مفتوحا للكثير من الأقلام تطل من خلالها على القراء .

- آفاق الحركة الأدبية الشابة في الجزائر :

إن الاهتمام الذي أولته وزارة التعليم العالي والبحث العلمي في تنظيم مسابقة أدبية سنويا في الشعر والقصة وتخصيص جوائز رمزية للفائزين ، ونشر إنتاجهم ، وكذلك تخصيص التلفزيون الجزائري في نهاية سنة 1978 حصة يعدها الدكتور : عبد الله الركيبي ، يلتقي فيها بالأدباء الشباب ويقدمهم إلى الجمهور الجزائري كما تغيرت هيئة التحرير لمجلة آمال ، وأصبح يشرف عليها أدباء شباب وقد أقدمت الشركة الوطنية للنشر والتوزيع على طبع مجموعة الشاعر عبد العالي زراقي : الحب في درجة الصفر ، ومجموعة الشاعر أحمد حمدي : انفجارات ، ومجموعة القاص : الأدرع الشريف ، ما قبل البعد ، والرواية الثانية للروائي الشاب عبد العالي عرعار : وقد علمنا أن رواية " الرحلة " للقاص جروة علاوة وهبي تنتظر دورها مع المجموعة الثانية للشاعر أزراج عمر ونتاجات أخرى .

كل هذا يعتبر خطوة أولى للاهتمام بأدب الشباب وتشجيعه ، إن بريق الأمل ، الذي بدأ يلوح في الأفق يبشر بخير ولعلنا سنستبشر خيرا أكثر إذا تم بناء مركب رغاية عن قريب ، فإنه حسب المشاع عنه يستطيع أن يطبع كل إنتاج الجزائر ويشارك في حركة الطباعة العربية الجديدة .

المراجع والهوامش :

1 - الدكتور : عبد الله الركيبي ندوة مجلة ألوان حول أدب الشباب عدد 19 النسة 1974 وزارة الإعلام والثقافة .

2 - دراسات في الشعر الجزائري الحديث الدكتور : أبو القاسم سعد الله دار الآداب ط الثانية 1977 ، ص 46.

3 - تاريخ الأدب الجزائري للأستاذ : محمد الطمار ص 389 الشركة الوطنية للتوزيع .

4 - المرجع السابق ص : 331.

5 - المرجع السابق ص : 345.

6 - المرجع السابق ، ص 329.

7 - المرجع السابق ، ص 339.

8 - المرجع السابق ، ص 349.

9 - دراسات في الأدب الجزائري الحديث للدكتور أبو القاسم سعد الله ، دار الآداب ط (2) ، ص 50 .

10 - ندوة الأساتذة الثالثة - المجاهد الثقافي عدد 6 سنة 1968 ص 16.

11 - صدر العدد الأول في أفريل سنة 1969 م.

12 - مجلة الأثير السنة الأولى العدد الثاني 1 ماي - 1972 ملتقى الشعراء الشباب ، مراسلة حمدان الجزائري ، ص 11 .

13 - أقصد كبارا من حيث العمر فقط .

14 - الطليعة الأدبية ، عدد 11 السنة الثالثة ، تشرين الثاني 1977 العراق، حوار مع عبد الحميد شكيل أجراه : شريبط أحمد شريبط .

15 - مجلة الشباب ، ماي 1975 ، العدد 157 ، حوار مع الشاعر محمد زتيلي .

16 - من سنة 1968 إلى سنة 1978 نشرت الشركة ، الوطنية للنشر والتوزيع عملين أدبيين لا أكثر ، الأول : مجموعة شعرية مبروكة بوساحة، بعنوان " براعم " ، والثاني على بعنوان مرفأ الأيام " للشاعرة أحلام مستغانمي عام 1972 .

17 - صدرت عن دار الآداب فبراير 1976 ، بيروت - لبنان .

18 - ميلاد الإتحاد والتجربة التي دامت ثلاث سنوات ، عبد العالي رزاقي الشعب الأسبوعي عدد 58 ، سنة 1976 .

19 - المرجع السابق .
20 - حوار مع الشاعر زتيلي محمد ، مجلة الشباب ، عدد 157 ، السنة 1975 م ، ص 45 .

- أسئلة الندوة الأدبية :

1 - تمر حركتنا الأدبية الشابة في الجزائر بحالات ضيق واختناق ، فما هو تصورك لواقعها مستقبلا ؟

2 - من خلال تتبعنا للصحافة الأدبية لاحظنا أن هناك فريقا من الأدباء يحاول أن يتشبث بذيل الماضي ، وفريقا آخر يلهث خلف التقليعات الجديدة ، في رأيك من يمثل الصواب ؟

3 - ما هو تفسيرك لأدب الثورة ، وما هي شروط إيجاده ؟

4 - الأدب في بلادنا - كلمة - شاذة ، يهرب - المتعلمون - منها ، ويبرر البعض ذلك بأنه لا يوجد أدب عندنا ، ما رأيك ؟

5 - كيف تتعامل مع التراث العربي وغيره ؟

6 - ما مفهومك للالتزام في العمل الادبي ؟

شارك في الندوة :

1 - عبد الله بن الضيف - شاعر وقاص .
2 - عبد الحميد شكيل - شاعر.
3 - ادريس بوذيبة - شاعر .
4 - مسعود حديبي - شاعر .
5 - أحمد بودشيشة - قاص.
6 - حسن بومعيزة - شاعر .
7 - جميلة زنير - قاصة .
8 - عبد العزيز بومهرة - أستاذ النقد العربي الحديث بجامعة عنابة - الجزائر
9 - عبد الحفيظ بوالطمين - قاص.
10 - حسن بوساحة - شاعر .
11 - الأخضر عيكوس - شاعر .
12 - علي حاجي - شاعر .

أعد الندوة : شريبط أحمد شريبط (طالب)
(جامعة عنابة)

أجوبة الندوة :

عبد الله بن الضيف :

الأخ الكريم : شريبط أحمد شريبط .

بعد التحية اللائقة بمقامكم : يسعدني أن أعلن لكم أني فوجئت برسالتكم المرسلة من جامعة عنابة بتاريخ : 78/11/19 ذلك أني ما كنت أتوقع من الشباب طرح هذه الأسئلة التي وجهتموها لي .. وإني إذ أشكركم على اهتمامكم بي وتشريفي بما لست أنا له أهلا ، فإني آسف ، إذا أطلب منكم العفو عن عدم الرد على الأسئلة ، وذلك خوفا أن أظلم الأدب الجزائري ، إن كان هناك أدب من جهة ، وخوفا من أن أقحم نفسي في قائمة الأدباء الشبان وليت لنا أدباء شبان !

عزيزي أحمد :

إن هموم المهنة ابعدتني عن مواكبة الحركة الأدبية(1) أو قل العزلة في دائرة العوينات حيث لا أتمكن حتى من مطالعة جريدة النصر اليومية ، وهي تصل متأخرة بيوم ، فكيف يمكنني أن أحكم على الحركة الأدبية في الوقت الراهن والجزائر كلها ثورة ، ألا تعرفون أن أدب الثورة ينتعش في الأرض المتعطشة للثورة !؟ واعذرني يا أخي مرة أخرى : إنك فتحت جرحا عميقا في قلبي بطرحك سؤال : كيف تتعامل مع التراث العربي وغيره - هذا السؤال يحتاج مؤلفا كاملا ، ومن أين لي الخلوة في عمل يخنقني ويكاد يقتلني ، أن هذه السطور كان لها من الحظ ما كان لجسمي ، الذي ارتاح أياما بمدينة الجزائر هروبا من القرية الضائعة ، وهي قرية العوينات .

وأخيرا تحياتي وتمنياتي لك بمسيرة أدبية حثيثة والله المستعان.

أخوكم : عبد الله بن الضيف

الجزائر في 1978/11/28.

أجوبة الشاعر : عبد الحميد شكيل :

1 - أعتقد أنه من السابق لأوانه أن نضع الخطوط الحمراء حول خريطة الحركة نفسها التي تعيش انقسامات نابعة من واقع هذه الحركة ذاتها ، إذ أن الحركة الأدبية الشابة في الجزائر تتمحور على محورين أساسيين :

أولا : حركة تقدمية ، معاصرة ، تعمل على تمثل اللانموذج الأدبي في الشرق والغرب بصفة إجمالية - وتسعى إلى بلورة هذا التمثل في الأعمال الأدبية المنشورة في المجلات والصحف الوطنية .

ثانيا : حركة أدبية شابة متخلفة من حيث نظرتها إلى بنية العمل الأدبي ومحتواها ، إن هذه الحركة الثانية تعمل إلى إخماد التجديد ، وعنصر التجاوز في الحركة الأدبية الشابة ، هي أنانية في حد ذاتها .

- أعتقد أن الضيق والاختناق موجودان بالفعل ، وهذا ما عطل مسيرة الحركة الأدبية ، وإن كانت هذه الحلقة المضروبة قد بدأت تنحل شيئا فشيئا

- المستقبل لا شك إنه لصالح الحركة الأدبية الشابة ذلك منطق التاريخ وجدلية الواقع وفاعلية الحياة .

1 - التجاوز وتخطي النموذج والإتيان بالبديل الإيجابي ذلك طابع كل حركة أدبية تحمل مقومات حياتها وجواز سفرها .

في حركتنا الأدبية قطبان ، أحدهما يعمل على تمثل التقنيات الحديثة وتوظيفها في الأثر الأدبي ، شعرا قصة ، رواية ، ذلك جيد إذا رافقته أصالة في التعبير ، وحيوية في الطرح الحداثة والمعاصرة لا تعني كسر رقبة اللغة وسحق عظامها ، إنما تعني الصهر الواعي لموروثاتنا الثقافية في قوالب عصرية الإمساك والتمسك بالماضي دعوة مرفوضة لا يتقبلها أحد ، خاصة في هذا الظرف بالذات ، لكن التوجه نحو محطات المستقبل لا يعني الإلغاء ، الكامل للماضي ، الماضي معبر نحو المستقبل مع الأخذ بعين الإعتبار أن الماضي ليس كله صالحا للإقتداء واللانموذجية ... علينا أن نمر من خلال روائع الماضي ، إلى ما سيكون ماضيا ذلك هو الصحيح .

2 - الأدب الثوري ، كيف يوجد ؟ ما هي شروطه ؟ سؤال في غاية الدقة ، الإجابة عليه ليست بسيطة بالمرة ، أدب الثورات في العالم " الروسية " مثلا وجد بعد سنوات كثيرة من قيام الثورة الروسية الثورة الحقيقية تخلق أدبها عبر المراحل المتعاقبة ، بمعنى أن أدب الثورة ليس ابن اللحظة ذاتها لحد الآن لم يكتب عمل أدبي يمثل عظمة الثورة الجزائرية ، السنوات القادمة ربما تحقق ذلك وليس بالضرورة أن يكتب الأدب ، الثوري أناس - مثلا - عاشوا الثورة وتفاعلوا معها - الشرط الأساسي لأدب ، الثوري هو الإيمان العميق بالعمل الأدبي ذاته، والإخلاص في سبيل القضية المراد التعبير عنها .

3 - الحديث عن الأدب عندنا ، حديث ذو شجون ذلك - في رأيي - أن العملية الأدبية نفسها تعيش مرحلة الولادة العسيرة ، الشاذ عندنا هو عدم وجود وسائل توصيل قادرة على طرح العمل الأدبي وتفسيره للمتلقي العادي . الذين يقولون لا يوجد أدب عندنا يحاولون تغطية الشمس بالغربال

4 - التعامل مع التراث ، يتم من خلال التعمق في هذا التراث قراءة واستيعابا ، أنا أحترم التراث شديد الاحترام ، وأتعامل معه بدون عقدة ، بمعنى أنني آخذ من التراث ما يحقق لي هدفا معاصرا ، وغاية إنسانية، التراث لا يعني الإنشداد نحو الماضي والوقوف بين أطلاله وخرائبه هناك محطات لامعة في التراث تجاوزت عصرها ، وهي تعيش معنا تحمل بذور الأصالة والمعاصرة ، ولا يضيرها سوى أنها تستعمل الأثمد بدل المكياج ، وأعتقد أن ذلك يزيدها حلاوة قاتلة .

5 - أن تكون مخلصا لعملك الأدبي فذلك التزام ، أن تقف بجانب الفقراء والمستضعفين ضد المتسلطين وعصا الطغياة ذلك التزام ، أن تكشف زيف الإدعاء ، وخبث الحكام وحذلقة الانتهازيين ذلك التزام .

6 - الالتزام شرط الأديب الحقيقي ، في رأي الالتزام هو التجاوز من خلال الإخلاص والإيمان وجدلية الواقع وديناميكية الحياة .

أجوبة الشاعر إدريس بوذيبة :

الجواب الأول : لا شك أن الحركة الأدبية الشابة في وطننا محاصرة ، وقد ساهم هذا الحصار بشكل أو بآخر - في خلق أصوات أدبية ظهرت بحضور قوي منذ الوهلة الأولى ، لكنها لم تلبث أن اختفت في سدم الإهمال إلى غير رجعة ...

بوادر الأمل شعت في الأفق أخيرا بالتحسينات الجديدة التي أدخلت على مجلة " آمال " فربما الآن سيجد الأدباء الشباب ، الأيادي الأمينة التي تقرأ عملهم بالتوجيه والنقد البناء - و .. آمال .. هي المتنفس الوحيد لهم ، لأن الصفحات الأدبية بالجرائد والمجلات الأخرى أضحت أرشيفا مسحبى في ذمة التاريخ .

2 - إن التوفيق بجانب كلا التيارين ...

البعث كما - قلت - كان مجرد امتداد - مشورة - لعصور شعرية أدت دورها حينها وانتهت نتيجة تقنياتها ، السكونية وعجزها عن استيعاب المضامين الحديثة شكلا ومضمونا ، وسقط البعض الآخر في اجترار الاكلشيهات الجاهزة التي ترد إلينا عبر صحف المشرق العربي الذين هم بدورهم لم يفلتوا من ظل العمالقة الرواد ، فكان انتاجهم يفتقر إلى التميز والاستقلالية المطلوبة في الإبداع الفني ، فعجزوا بهذا عن إيصال تجارب أدبية فذة نتيجة انسلاخها عن تجاربهم الصميمية بالطبع نستثني مجموعة لابأس بها من هذا السقوط من التيار الأخير .

3 - أدب الثورة ، أو الأدب الثوري هو الذي يواكب طموحات الجماهير الكادحة ويعبر عن توقها للغد المشرق الجميل ، ولا يمكن أن يتم هذا ما لم ينغمس الأديب نفسه وسط هذه الجماهير ويعبر عن حلمها وعن خلجاتها وأشواقها .

4 - إنها أزمة قراء ... أزمة نقاد ... أزمة مثقفين ملتزمين إنها بضع أزمات متتالية مرتبطة ارتباطا وثيقا ببعضها ، إن تعميق الوعي الإشتراكي لدى الجماهير هو الكفيل بجعل الأدب ينبوأ مكانته الشرعية في وطننا ، فالإنسان الإشتراكي هو الإنسان المثقف ، هو الإنساني القارئ الذي يهتم بالكتاب وبالثقافة عموما اهتمامه بالخبز وأكثر فالأدب هو اكتشاف لذيذ لحياة مجدية وتجاوز للذات .

5 - توظيف التراث ضرورة فنية لا يمكن الاستغناء عنها لإضفاء طابع العمق والتأثير على العمل الأدبي المزمع إبداعه ، فتوظيف حادثة قديمة أو استعمال أثر تاريخي على وضع معاصر يمكنه أن يزيد من قوة الأثر وإعطائه شمولية وأبعادا إنسانية أنبل ، ومن الأدباء العرب الذين وظفوا التراث بشكل جيد : شفيق الكمالي ، صلاح عبد الصبور ، البرادعي وغيرهم ..

6 - الالتزام بالأدب هو الالتزام بالقضية التي يحملها الأديب ، والالتزام الحق هو الذي يساير الحركات التحررية وانتفاضات الرفض للاستغلال التي كانت تميد للانتصارات ورسم الإضاءات ، التحول في طريق المسيرة الاشتراكية المظفرة نحو عالم جديد خال من الحروب والاستغلال.

أجوبة الشاعر مسعود حديبي :

1 - الحديث عن الحركة الأدبية الشابة في الجزائر ذو شجون ، ويثير عدة قضايا ذات أبعاد مختلفة ، فالأديب الشاب عندما يساهم في تغيير الواقع وبناء المجتمع الجديد بالكلمة فإنه يكون قد اختار الطريق الصعب لكن الظروف المحيطة بالأديب الشاب ، وهو يشق طريقه الشائك كانت سببا في تثبيط عزائم البعض ، حيث أجبرتهم على التوقف في منتصف الطريق أما الذين لا زالوا يواصلون زحفهم رغم كل العقبات فإنهم ما فتئوا يتلقون الصفات من طريق أولئك الذين يلهثون ويلهثون من أجل التربع على عرش الزعامة ليكونوا أوصياء على الأديب الجزائري الحديث ... لكن مهما كان ومهما سيكون فالمستقبل في نظري سوف يكون حتما لصالح الأدباء الشباب ... الذين يترصدون الواقع ويكتبون بالعرق ملحمة الثورة بكل ما في التجربة من عمق وما في الواقع من معاناة وحسب تصوري فممثل الأدب الجزائري في المستقبل هو هذا الجيل الذي اشتم رائحة البارود أيام الثورة التحررية ، ورائحة التراث .

2 - هذا سؤال من الأسئلة المستهلكة ، فكما للحق أنصاره فللباطل أنصاره أيضا ، لكن نتشبث بعباءة الماضي ؟ أم نتعلق بسراويل الحاضر وضفائره ؟ عندما طرح هذا السؤال نفسه على الأدباء العرب ذات يوم انقسموا إلى صفين : صف يؤله التراث بدعوى أنه ليس في الإمكان أكثر مما كان والصف الآخر وقع فيما يسمى بالاستلاب فراح يستورد أفكارا وقوالب جاهزة ، فرأيي الخاص - وله مؤيدوه - أن يقف الأديب العربي في المنطقة الاستوائية المعتدلة فيبني تجاربها المعاصرة على قاعدة التراث العربي الأصيل ... حتى يقدم للأجيال القادمة صورة صادقة الشكل عميقة الملامح مستوحاة من واقع عاشه لا من واقع لم يعشه لأن ذلك يعتبر تزييفا وتهجينا ستفضحه الأيام ، فليس الأديب مؤرخا بل مبدعا .

3 - أدب الثورة ؟ أم الأدب الثوري ؟ أدب الثورة تفرضه الثورة أما الأدب الثوري فهو الذي يخلق الثورة ... بعض المفاهيم يعتريها نوع من الغموض والأدب العربي عموما والجزائري على الخصوص يعاني من عقدة المصطلحات النقدية .. إن كان للنقد وجود عندنا ... إن الأدب الثوري في رأيي هو الذي يكون وليد التناقضات الاجتماعية ... فيقوم بدور التعرية ... تعرية الأوضاع التي استنزفت الإنسان العربي ... إنه أدب تحريض وتغيير ... يطالب دائما بالأفضل والأمثل ويقف إلى جانب المسحوقين فلا يتعاطف معهم بل يدفعهم ويحفزهم على مواصلة الزحف .. أما عن شروط إيجاده

فذلك يتوقف على مدى ارتفاع درجة الحرارة الثورية في نفس الأديب بالإضافة إلى مدى وعيه بالقضايا المصيرية للإنسان ، لأن مهمة الأديب في المجتمع الإشتراكي تتمثل في التوعية والنقد والتحريك ثم التوجيه .

4 - الأدب عندنا أصبح حقيقة ملموسة ، لكن الأرضية التي يقوم عليها هذا الأدب منعدمة أو تكاد ... ليست لدينا تقاليد أدبية ... لذا تقابل جل المبادرات أو كلها بامتعاض شديد ... فالأدب عندنا بلا قراء ... بعضهم يقول : الأدب الجزائري قزم غارق في العطرسة والكبرياء ... لكن هناك ما يفند هذه الإدعاءات فنظرة فاحصة للأدب في المشرق لأن نلاحظ بأن الأدب الجزائري ظاهرة صحية ... لأنه يعبر بوضوح عن عرق الكادحين فوق هذه الأرض الحمراء .. الأرض المعجزة .

5 - تعاملي مع التراث ينحصر في انتقاء اللب ورمي القشور والحداثة عندي لا تعني قطع الجذور أبدا ، بل تتلاحم لتكون علاقة جدلية تربطها بالتراث الأصيل ... والموقف من التراث والمعاصرة ينبغي أن يتسم بشيء من المرونة ، فأنا ضد التقوقع كما أنني ضد " التغريب " الأعمى ...

6 - مفهومي للالتزام أن يعبر الأديب عن مشاعره بكل صدق وبكل وعي ، متحملا مسؤوليته الأدبية كاملة ، مستمدا مادته من الواقع الذي يعيشه بعيدا عن الزيف وقد فقد الالتزام معناه لدى البعض فسقطوا في حبائل وفي فخ الشعارات السياسية ، وبذلك تحول أدبهم إلى مجرد تصفيق ، وهتاف وهذا النوع من الالتزام الزام ليس إلا ... ويعتبر خيانة للتاريخ وللكادحين من أبناء أمتنا العربية وأحسن مثال نجده اليوم بمصر لدي بعض الأدباء المأجورين ... إن الالتزام الحقيقي هو الرفض والتعرية ومواجهة الأوضاع بجرأة ...

أجوبة القاص أحمد بود شيشة :

1 - أنا متفائل جدا ... بالحركة الأدبية الشابة على الرغم من كل الظروف ، العسيرة التي تمر بها الحركة الأدبية ، الانفجار سيحدث يوما آت لا ريب فيه ، بيد أن الاختناق والضيق لا يولدان إلا انفجارا وبالتالي سيكون هذا الانفجار رهيبا يرسل حمما تحرق كل محاولة لعرقلة مسيرتها وتلك الحمم هي طلائع الحركة الأدبية التي نأملها .

2 - من الصعب الحكم في الوقت الحاضر لفريق أو لآخر طالما أن الحركة تمر بفترتي (ضيق واختناق) كما عبرت أنت عليها ففي سؤالك الأول

وبمرحلة تجريب مضيفا إليها غياب النقد غيابا تاما عن الساحة الأدبية وأكاد أجزم أنه لا يوجد نقد على الإطلاق يواكب الحركة الأدبية فضلا عن بعض الفلتات التي لا أعدها نقدا على الإطلاق ، إذ لا تخلوا من المجاملات لأصحابها أو تصفي حسابات شخصية لا دل لها بصفة أو بأخرى في مسار الحركة الأدبية مضيفا إلى هذين السببين النشر عملية النشر التي تعاني هي الأخرى من خلخله .

لنعد إلى السؤال حسب تقسيمك للحركة إذ تتوفر على مجموعتين الأولى متشبثة بذيل الماضي ، والثانية تلهث خلف التقليعات الجديدة لو استثنينا البعض (بعض من ينتمي إلى المجموعتين التي اسماؤهم غير معروفة الآن لأنهم هم عناصر الفريق الثالث الذي عبرت عنه في جوابي الأول حول .

السؤال الأول : يمكن القول إن كلا المجموعتين مخطئة الأولى رجعية والثانية باعت جلدها طالما لم يتولد عنها فريق ثالث ، هذا الفريق الذي سيرفع راية الابداع خفاقة .

3 - أدب الثورة أدب تحرير واسترجاع مقومات الحياة أدب الثورة هو قلب من جديد وإعادة صياغته حسب فكرة كونها مسبقا جميعا فمن أجله وكيما يتوفر لدينا ذلك ينبغي علينا أن نتوخى الصدق والشجاعة والعمل الدؤوب من أجل المواجهة لأن أدب الثورة لا يصنعه إلا الثوريون لا أناس خائفون مبتذلون مزيفون .

4 - السقيم يبدو له كل شيء مرا كالحنظل فمهما قدمت له من أطاييب الدنيا لعافها وإن أرغمته على تذوقها تقيأ ... لا لسب سوى أنه مريض ، حواسه اختلت فلم يعد يتقبل شيئا على الاطلاق كذلك ينطبق المثل عن هؤلاء الأدعياء الذين يرمون الأدب بالشذوذ ، إن هؤلاء المعلمين الذين لا يرتاحون ولا يريحون فهم مجرد شواذ ، فلم يرموا الأدب فقط بل تعدوه إلى كل ما يخلق في بلادنا فكل شيء بالنسبة لهم شاذ ... فليس لي إلا أن أقول هاتوا لنا بالسليم .

5 - التراث هو روح الأمة وهي جسده ، فأنا أعتبره مرآة ترى الأمة نفسها من خلاله لبناء مستقبلها والتطلع إلى لأفضل وإن فقدت الروح مات الجسد ، فلا يبق له إلا أن يوارى تحت الثرى ، فالتعامل معه تعامل الجسد مع الروح، فهما صنوان لا يفترقان ، فالتراث تراث كل أمة فهو كالنهر المتدفق يروي ما حوله ويرفد أنهرا أخرى فهو حق مشاع بين الجميع يحق لكل أمة أن تغرف منه فيختار ما يتناسب مع زراعته .

6 - أعتقد أن الالتزام حرية والثاني تقييد من هذا المنطلق يمكنني أن أقول أريد أن أكون حرا نطلق على سجيتي وصادقا مع نفسي أولا قبل كل أي شيء آخر ، وأعني بكل ما قلته أن أتوخى التعبير عن ذات نفسي التي تصب في نفوس الآخرين لأني فعلا أريد أن أعبر ولا يفرض علي هذا التعبير من الخارج بواسطة قوة خارج نفسي ، فإن كان عكس هذا فلا يعتبر التزاما بل الزاما .

أجوبة الشاعر حسن بومعيزة :

1 - قبل الإجابة على هذا السؤال أود أن أشير إلى أن أية حركة أدبية عبر التاريخ الأدبي قد مرت بأزمات عاصفة وتعرضت لمضادات قوية وأن كانت حركة التجديد قد نبعت من واقع معاش وركزت على قواعد صلبة استطاعت أن تبرز أما التيارات المعاكسة وإن كانت الحركة المتولدة ضعيفة أو مجرد نزوة مفتعلة أو فكرة شاذة قاومت ثم لم تلبث أن تموت .

والصراع بين القديم والجديد أمر طبيعي جدا لأن ضرورة الحياة تتطلب الصراع ، وإذا اعتبرنا أن الصراع قائم فعلا بين الأدب الشاب والأدب الشيخ مجاوزا ، فإن الحركة الأديبة الشابة سوف تتبلور وتتضح معالمها وتأخذ مسارها لتبرز إلى الوجود كحركة متميزة الأسلوب والاتجاه، الصراع طبيعي ؛ لأن المخاض لا بد أن تصحبه آلام واضطرابات ، ثم يخلق المولود كتلة غير متميزة ، ثم ينمو شيئا فشيئا حتى يكتمل وتتضح معالمه : كذلك أرى أن الأدب الشاب في الجزائر ما زال لم يفرض نفسه كقوة ضاربة معتبرة ، لها وزنها وفعاليتها المؤثرة .

ومحاولة خنق أدب الشاب في المهد قضية ملموسة في حركتنا الأدبية وذلك يعود لأسباب يعرفها المعارضون ومن بيدهم زمام الأمر ويخافها الذين يعيشون على الماضي ويقفون في وجه كل تيار تقدمي أو حركة جديدة ، وإذا كان لموقف هؤلاء الصدى والتأثير الملموس فذلك أن الأرضية الثقافية لم تكتمل بعد أو أن رواد الحركة الأدبية الشابة ، لم يستطيعوا أن يتأقلموا بعد مع الواقع لنقص التجربة لديهم .

على أي حال هذه افتراضات قد يكون لها جانب من الصحة وشرح تلك الأسباب لا أرى له مجالا هنا ، غير أنه يجب أن لا ننسى بأن الأدب الجيد يفرض نفسه دوما ولا يعترف بالقوارق والتقويمات .

2 - في رأي أن كلا الفريقين إذا صح تقسيمهم لا يصلح ، لأن الأديب قبل كل شيء منتج وناقد اجتماعي ، فإذا ما حاول التشبث بذيل الماضي أخفق في مهمته لأن الحياة تتغير ومع كل مطلع شمس كل يوم جديد ، وإذا كان يلهث وراء التقليعات الجديدة متناسيا الماضي ، فهذا ايضا أدب محكوم عليه بالموت ، وهو أخطر من الأول ، فالأدب الحق هو الذي يعتبر بالماضي ويعايش الحاضر ويعده للتكيف مع المستقبل ، أقول هذا لأن الأدب كلاهما قد حاد عن الصواب لأن الصائب هو الذي يعبر عن إحساس المجتمع وانفعالاته ويعيش تحولاته ، أن يكون مرآة صادقة تعكس واقع وآمال وتطلعات الجماهير ، وإن لم يكن كذلك فلا أعتقد أنه سوف يجد له زهيار بن أبي سملى أو قيسا بن ساعدة الأيادي ليقرأه ، أو يفرض الثاني أدبه على الأجيال القادمة ولا أظنهم سيجدون وقتا ليقرأوا أفكارا ارتجالية أجهضت قبل أوانها .

3 - أدب الثورة أو هو ذلك الأدب الذي يعبر عن آمال وتطلعات الجماهير الكادحة والطبقة الفقيرة من الشعب على الخصوص هو الذي يعايشها ويعبر عن حالها وآمالها وآلامها والشرط الأساسي لا يجاد هذا النوع من الأدب أن يكون الأديب ملتزما بقضايا شعبه ووطنه وأن يكون مؤمنا بحتمية التغيير ، رافضا للقهر ، رافضا للاستغلال والرضوخ ، أن يكون محبا للحرية عادلا حساسا صادقا ويكون كذلك فلا بد أن يقرأ وأن تمد له يد المساعدة والتشجيع المعنوي والمادي .

4 - في الحقيقة ، إن الأدب في بلادنا ليس بالحالة أو الكلمة الشاذة - بل يصح أن نقول أن التجربة فقط تنقصه ، وتراثنا الجزائري في هذا الميدان ضئيل وعمر التجربة قصير ، وإذا ادعى البعض بأنه لا يوجد عندنا أدب فأعتقد أن هذا الادعاء خطأ ولو سلمنا بهذا الرأي لحكمنا بأن الشعب الجزائري لم يكن موجودا ولرمينا بكل عاداتنا وتقاليدنا إلى النهر وفي هذا مس بقداسة التاريخ ونستطيع أن نقبل بشيء من التحفظ بأن الأديب هو الذي لم يستطع أن يبرز إلى الوجود أدبا جزائريا متميزا ، وأن الأدب عندنا لم يكن بعد وليس أن نقول - لا يوجد - وإذا كان المتعلمون يهربون من الأدب ففي الحقيقة أنه إذا كانت لدينا نسبة معتبرة من المتعلمين ، فإننا لا نملك غير القليل ممن يميلون إلى الأدب أو بطبيعة الحال فإنه ليس كل متعلم أديبا .

أجوبة القاصة جميلة زنير :

1 - لا أتفاءل كثيرا بالمستقبل ولا أعتقده يحمل ازدهارا في الحركة خاصة إذا بقيت الأبواب موصدة ورجال الأدب المعنيين في غياب تطحنهم ظروفهم ومهنهم .

2 - لا يهمني القالب الذي يجعل فيه الشاعر قصيدته أي لا يهمني الشكل بقدر ما يهمني المضمون ، إن من يمثل الصواب هو أن أخذ من الماضي ما يفيد به مستقبله الأدبي .

3 - الأدب الثوري رد على الوضع ورفض للواقع المعاش وشروط إيجاده تتمثل في الالتزام بمبدأ حرية الرأي والفكر مسايرة الأحداث ومعايشة التحولات التي تحدث داخل الوطن العربي وخارجه .

4 - فعلا هو الأدب كذلك عندنا لم يتبوأ بعد مكانته ، ومعهم حق إذ يقولون فأين هي المجلات التي تنشر أدبنا ، وأين المطبعة التي ترحب بانتاجنا وأين نحن من ليبيا والعراق وسائر دول المشرق .

5 - أتعامل مع التراث بصداقة كبيرة وودّ ، أطلع عليه وأبحث عن أي متسع من الوقت لأفرغ له استوعبه وأستفيد منه وأطعم به إنتاجي ليقوى .

6 - الالتزام في العمل الأدبي مسايرة الأحداث الوطنية والقومية ومعايشتها والكتابة عنها بصدق وواقعية ، إن رفضا فرفضا ، وإن مصادقة فمصادقة .

أجوبة الأستاذ عبد العزيز بومهرة

أستاذ النقد العربي الحديث بجامعة عنابة / الجزائر .

الجواب الأول : منذ البداية ، متفائل بالمستقبل ، لأن حالات الضيق والاختناق التي تحدثت عنها تمثل واقعا معقولا في مثل هذه الظروف الموضوعية التي تمر بها بلادنا ، فالمثقف عندنا مازال للأسف الشديد نهب العصبيات القبلية أو المذهبية ، نرجسيا بروقراطيا وذلك كله لنقص تجربته وضحالة وعيه ، غير أن هذا الانقسام أو التمذهب ، أمر طبيعي في الأدب كما في الحياة ، ولكن عندما يتوفر المناخ السليم وتلتزم الحركة الأدبية بالمقاييس الأدبية الحقيقية ، فإنها تحقق جانبها الإيجابي مع تعدد محاور الحوار ، وللأسف فإن هذه الإيجابية المرجوة غير متوفرة عندنا لسيطرة المحاباة والنظرة الذاتية والمذهبية ، كذلك والقصور على كثير من الأعمال

الأدبية ، ومع ذلك فإن ملامح المستقبل مرتسمة من خلال العتمة ، وتأكيدها يحتاج إلى إيمان وعناء وتضحية ووقت .

2 - قليلون هم ولا شك ، والمفروض ألا يعتد بهم جميعا ، وقد بحث التراث والمعاصرة طويلا وتوصل الأدباء إلى ضرورة التفتح على الثقافات المعاصرة بعد أن يمتلك الأديب زمام تراثه ، ثم إن التراث ضروري عندما يتسنى للطالب السيطرة عليه ، وأخذ النافع منه ، والمنفعة موجودة بالتأكيد ، ولذلك فإن الأديب العربي الحق هو الذي يمتلك تراثه الأدبي ، ويحاول أن يطلع على الآداب المعاصرة ، أما الاكتفاء بأحدهما ، فهو لا شك قصور في زماننا ولنا أسوة حسنة بأسلافنا ، فقد اطلعوا على الآداب المعاصرة لهم ، واستفادوا منها .

3- لا أدري ماذا تقصد بهذا السؤال ، فأدب الثورة موجود ، وقائم بذاته ولعل الظروف الصعبة التي نشأ فيها وخاض المعركة وسطها ، واستطاع - مع ذلك - أن يلتزم بالتعبير عن طموحات الشعب تنفي عنه ما يراد به للحط من قيمته ، من الناحية الشكلية كالطريقة التقليدية والشعارية والمباشرة التي كانت تسود تلك الأعمال الأدبية ، ثم إن هذه الميزة ربما وجدت في آداب كل الأمم التي كانت تعيش مرحلة المخاض .

4 - هذا صحيح ، والاتجاه الرسمي إلى تشجيع العلوم والتكنولوجيا على حساب العلوم الانسانية يمثل خطرا جسيما إن بقي على هذه الحدة على إمكانية المحافظة على مقومات شخصيتنا الأساسية ، وهكذا اتجه الطلبة إلى المواد العلمية والتكنولوجية ، وإذا أدركنا أن هذه العلوم تقدم باللغة الأجنبية عرفنا أنهم عندما يتخرجون لن ينظروا إلى اللغة العربية وهي إحدى المقومات الرئيسية لشخصيتنا الوطنية .

إن عدم التفهم للدور الذي تلعبه اللغة في بناء الشباب يصل إلى حد الإساءة لمقومات شخصيتنا ، وهؤلاء جميعا ينسون أن الجزائر كانت منذ فترة قصيرة ترزخ تحت احتلال عسكري ، واستعمار ثقافي ، لم تتخلص منهما إلا بالشجاعة العربية الإسلامية المتماسكة .

أجوبة الشاعر حسن بوساحة :

1 - فعلا أن ما وصفت به الحركة الأدبية المعاصرة في الجزائر ، لهو الواقع المر الذي لا نستطيع إخفاءه وإنكاره ، وأسباب هذا الاختناق عديدة ومختلفة ، ولا يمكن أن نلم بها في هذه العجالة ، لكن أرى باختصار أنها

عائدة إلى عدم وجود أوساط ، أو أحواض أدبية بالمعنى الدقيق ، ولا يوجد رجال أكفاء ولا أقول مثقفين قادرين على النهوض بأدبنا الحديث ، نظرا لانشغالاتهم المادية الكثيرة ، هذا بالإضافة إلى المأساة التي يعيشها اتحاد الكتاب الجزائريين الذي لا نتصل منه بشيء ما عدا مطبوعة إعادة الاشتراك ، إن هاته المجموعات - التطوعية - لا تكفي ، لأننا من ناحية ما زلنا لم نبلغ بعد ، ولم نفهم فلسفة التطور ، ومن ناحية أخرى فإننا نضع أنفسنا أمام موقف محرج كيف تراقب متطوعا ؟ ثم أن عمل الاتحاد يبدو ارتجاليا تمليه الظروف وليس في حوزته احصائيات دقيقة للكتاب الذين لا يكاد يكون الاتصال المباشر بهم إلا في الأمسيات الأدبية النادرة .

أرى أنه من الواجب أن يلعب الاتحاد دوره بطريقة مدروسة ويقوم بأعماله على أكمل وجه ، كما تعمل بعض الاتحادات العربية المتقدمة ، عليه أن يوفر المناخ والشروط اللازمة لمثل هذا العمل المثمر وأن يجند جميع الطاقات الحية لخدمة أهدافه السامية ، نعم إن الاتحاد يلاقي مشاكل وعراقيل عديدة ، لكن أغلب الكتاب يجهلونها ولا يمكنهم أن يتعاطفوا معه أو يؤازروا مسيرته ما دام صامتا ، وهنا أشير إلى مجلة الاتحاد التي بقيت مشروعا .

2 - أهو مع المتشبثين بذيل الماضي ، أم الذين يلهثون خلف التيارات الجديدة ؟ هذا السؤال طرحته على نفسي عدة مرات ، وأعتقد أن الحاضر جزء من الماضي ، ولا يمكن أن يكون الحاضر حاضرا ، إلا إذا سبقه ماضي قورن به ومهد له السبيل ... أظن أن كلا الفريقين يبحث عن صواب أو لكل طريقته الخاصة ، فبينما دبج الأولون مواقفهم ومواضيعهم في قصائد عمودية واضحة المعاني دقيقة الوزن ، نجد البعض الآخرين ينغمسون في الصور والتلميحات والاستعارات والاستطرادات وما إلى ذلك مما تتطلبه التيارات ، من غموض وغرابة هي جوهر ما يتطلبه العصر ذاته من سعي حثيث خلف التجديد مهما كانت أشكاله وكيفما تقبله الجمهور العادي ، قبل كل شيء ، يجب أن نتساءل: لماذا نكتب ولمن نكتب ؟ قد تكون ثقافتي محدودة رغم دراستي الجامعية ، وقراءاتي المستمرة ، كذلك ثقافة الأساتذة الذين يعلمون معي ، لكننا على اتفاق من أن تسعين بالمائة من الشعر المعاصر غامض غير مفهوم ، وهم يتساءلون جميعا : لمن يكتب هؤلاء الشعراء ، وأصحاب هاته القصص الصغيرة؟ أعتقد أنه من واجبنا أن نسعى للتجديد في حدود مجتمعنا ووسطنا ، فإذا كان التجديد في الشكل هو القضاء على الصورة القديمة لهيكل القصيدة ، فماذا يعني التجديد في المضمون ؟ أهو الغموض والتعقيد والرموز الشائكة ؟!

3 - أدب الثورة : هو الإيمان بالمبادئ السياسية التي تسعى البلاد لتحقيقها ، وهو الاشادة بالمنجزات الثورية والتنويه بالمكتسبات العظيمة التي حققتها أمتنا ،، وهو ثورة الأديب على السلبيات التي تعاني منها الطبقات الكادحة ، وهو الثورة على المفاهيم الرجعية والتقاليد البالية، وهو التضامن مع الشعوب المكافحة ، وهو الالتزام بهاته المبادئ كلها والتضحية من أجلها بكل غال ونفيس ، إذا ما استدعى الأمر ذلك ..

4 - متى يقرأ الانسان ؟ عندما يشعر بالحاجة إلى ذلك ، فالأغلبية تقرأ الجريدة اليومية من أجل الأخبار الرياضية والرهان الأسبوعي - لأتباع الصحف بأكملها إلا آخر الأسبوع وبدايته ، ثم نرى برنامج الشاشة الصغيرة، ونطالع في عجل بعض العناوين والأخبار الخارقة من حين لآخر، وتوجد الأقلية التي تقرأ - بدون اهتمام كبير - بعض ما كتب في الصفحة الثقافية - إذا وجدت ... هناك المجلات الأسبوعية مثل المجاهد الأسبوعي غالبا ما تعود الأعداد بأكملها إلى مقر إصدارها ، ولا يوجد من يتصفحها ، والكثيرون ... يجهلون وجودها ، أما الشهرية والتي تصدر كل شهرين كالأصالة والثقافة ، وآمال ، ومجلات الاتحادات فهي لا تجد إقبالا كبيرا لأنها دون المستوى ، أو فوق المستوى قد يقول بعض المتعلمين أنه لا يوجد أدب في بلادنا ، ولكن اسألهم عن إنتاج قرأوه أو وجدوا فيه ضعفا ، أبعدهم عن المطالعة ستجدهم يعجزون عن إعطائك اسما واحدا وإنتاجا فريدا .

الناس يبحثون عن المادة وإشباع رغبات - كامنة - الناس يريدون قراءة الكتب ، والمؤلفات حول القضايا السياسية الخطيرة يمثلون حديثا شيقا حول الفضائح ، والسرقات والتهريب وما إلى ذلك من مواضيع الساعة .

الناس يحبون الحديث عن الجنس ، والمغامرات البنفسجية الدافئة وما يخالطها من نشوة. إن زميلا مكتبيا حدثني أخيرا أنه أتى بمجموعة من الكتب لم يبع منها إلا ما جاء به في سلسلة من حياتنا الجنسة ... !!!

5 - التراث ، أحب التراث ، وأقرأ باستمرار المؤلفات القديمة ، لأنني أجد فيها أحيانا ملجأ لأحاسيسي وراحة فكرية لذيذة .. أقول لك بصراحة أنني أفتح المعاجم لشرح عدة مفردات أثناء قراءة الشعر الجاهلي ، ولكن أي قاموس يمكن فتحه لقراءة - طلاسم الشعر الحديث ؟! وأعتبر هذه وجهة نظري في الأدب الفرنسي قديمه وحديثه، ليس هذا الحكم قطعيا ، فيوجد كثير من الأدباء المعاصرين يكتبون بأساليب شيقة موحية نلتمس فيها

مشاعر الأديب ونتفاعل معها بكل حيوية ، وإخلاص ، لكنها محاولات قليلة.

6 - قد عرفت مفهوم الالتزام من الجواب الثاني .

أجوبة الشاعر : الأخضر عيكوس :

الأول : المهم هو أن هناك حركة أدبية شابة ، أما كون هذه الحركة تمر بحالات ضيق واختناق ، فهذا مما يوجب على الحركة نفسها أن تناضل من أجل خروجها من هذا المأزق الذي تتخبط فيه كما أن عليها أن تحافظ على بقائها واستمراريتها ، لكي تبلغ ما رسمته من أهداف نبيلة تخدم الفن والأدب والإنسان بصفة خاصة ، وأما تصوري لواقع هذه الحركة الدؤوبة مستقبليا ، فإني أقول : إن انتصارها سيكون حتميا شريطة أن يكون طابع الإيمان بعبقرية اللغة العربية ، والتراث العربي الأصيل منه خاصة هو الطابع المميز لهذه الحركة التي يجب أن لا يخيب فيها ظن الأمة .

2 - كل فريق من هذين الفريقين يخط على الماء وكل واحد منهما مريض مرضا مزمنا عفا الله لنا وإياكم والحقيقة أن هذا المرض الذي أصاب هذين الفريقين - المسكينين - إني أرثي لحالهما - إنما مرده إلى تلك الهوة العميقة التي فصلت بينهما ، بالإضافة إلى تذبذب شخصية كل فريق منهما .

ظهرا أبقى وإنما هو يرى أن الكون على أحسن ما يكون من النظام وأي تغيير سيحدث : فلن يكون هذا الكون بعده أحسن مما كان عليه قبل ، هؤلاء يقتنعون بالاكتفاء الذاتي ، وهم لم يستطيعوا أن يواكبوا العصر الذي فاتهم ركبه الثقافي والحضاري ، وقصروا هم عنه ودونه أشواطا بعيدة ونحن ننصح هؤلاء أن يحيطوا أنفسهم ومملكتهم بسور من حديد إذا شاؤوا أو أنهم ركنوا للدعة والرتابة حتى يقضي الله أمرا كان مفعولا ، وأما الفريق الثاني الذي يلهث خلف التقليعات الجديدة ، وتعبيركم هذا جميل - فهو فريق يحيا طويلا ؛ لأنه فريق (جيل بلا جذور) . والحقيقة ، ليس هناك شيء يخلق من العدم ، وإذا شئت حكما نقديا فإني أقول إنني أعيب على الفريق الأول انطواءه وتحذره وتزمته - لا محافظته - كما أني أعيب على الفريق الثاني تجرده البالغ الذي يؤدي إلى الانسلاخ الكلي ، وتنكره القوي باسم الرفض وشدة إسرافه وتملقه ، وادعائه عملية التفكير الذي هو ليس منه في زاوية.

3 - أدب الثورة ، مرهون بالثورة ، يحيا بحياتها ، ويموت بموتها ، وأعني بالثورة - هنا - عملية إحداث تغيير ما جذري في مجتمع من المجتمعات ، وقلب أوضاع هذا المجتمع رأسا على عقب ، أي القيام بعملية مسح شاملة لإقامة مجتمع بدعائم جديدة ، وهذا التغيير -في نظرنا- يمكن أن يتحقق بصورة تامة في البنية الاقتصادية للمجتمع ، ولكنه صعب التحقيق في البنية الفكرية والنفسية والاجتماعية ، لهذا المجتمع نفسه ، وما دام الأدب تعبير عن النفس ويدخل في البنية الفكرية والنفسية والاجتماعية للإنسان ، فإنه بالتالي غير قابل للتغيير الجذري الذي يمسحه مسحا لكي يقيم على أنقاضه أدبا جديدا غريبا ، وهذا غير ممكن ، لأن الأدب الذي جاءت الثورة لتمحوه سوف يستميت في الدفاع عن كيانه من أجل الحياة والبقاء ، وهو إن لم يستطع أن يقاوم لاندثر تحت عواصف هذا الأدب بصورة عامة ففي الواقع هو لا ينكر هذا الفن الذي نحن ندعيه ولا يمجده لأنه موجود بالقوة وبالفعل، ولكن ينبغي علينا أن نطور هذا الأدب ، وهذا الفن مقارننا أيانا بغيرنا من إخواننا العرب وبغيرنا من الشعوب الأخرى ، التي بلغت هام الفن - وفاتته بأعوام - والدليل على أن للفنان العربي الجزائري ذوقا فنيا عاليا ، هو ذلك الاهتمام البالغ الذي نراه ظاهرا عنده بالغناء الشرقي العربي على العموم بالإضافة إلى تأثيره وانسجامه التام مع هذا الغناء العربي ، ومع فنه ومسلسلاته التلفزيونية ، وأفلامه ومسرحياته ... ولم يكن هذا الإنسان العربي الجزائري ليتأثر بهذا الفن العربي الأصيل فيحبه ويهيم به ، ويتفاعل معه لولا أنه يعبر عن مشاعره وعواطفه ووجدانه ، ولم يكن هذا الإنسان ليتفاعل مع هذا الفن العربي ، لولا أنه وافق ذوقه وضرب على أوتار نفسه الحساسة النقية ذات التركيب البسيط ، البعيد عن كل العقد المرضية ، هذه العقد التي من شأنها أن تسقط كل ما ليس في شعوبها في حالة شبه غيبوبة لتقول لنا ذلك بأن هذه الإسقاطات وهذا الهذيان هو الفن الحقيقي .

إن التكوين النفسي والوجداني الذي تحكمه الموروثات الجمالية الموغلة في القدم والرواسب التاريخية والطباع والخصائص التي طبقت الإنسان العربي بطابع خاص ، وفي مناخ ظروف خاصة ، فالطابع الغنائي العاطفي في الأغنية العربية والنغمة الحزينة التي نرى البعض يتساءل عن سر وجودها في أغانينا الجزائرية بخاصة ويطالب بمحوها ، إنما هي في الحقيقة ميزة من مميزات ، أو من ميزات النفس العربية الأصيلة ، وربما ترجع إلى أنغام الأطلال الجاهلية أو قبلها ، وهذه الميزة عند العرب تقابلها على سبيل المثال - ميزة الفرح والطيش والاندفاع عند الزنوج .

أنت ستحكم عن هذا الاستطراد وأعود لأقول في كلمة وجيزة أن في الجزائر أدبا لكنه أدب يفتقر كثيرا إلى عنصر الأصالة العربية - الأدب الشاب طبعا - أي لا يتلاءم كثيرا مع الطبع العربي الأصيل الذي له مميزاته وخصائصه المعينة ، وأنه لهذا السبب لا لغيره ، أصبح عزوف الجماهير عن هذا الأدب ظاهرة ملموسة تحاول أن تبررها بإلصاقنا تهما للجماهير تقدح في ذوق ذوقها ونصفها بالخمول والبلاد ، وأي عار علينا كأدباء شباب - على أية حال ...

وكمثال على ما قدمت - أذكر فكرة الإبهام والغموض في الشعر الحر ، لأقول أن هذه الفكرة دخيلة ولا تتفق إطلاقا مع العقلية العربية التي من مميزاتها الصفاء والنقاء الفطري المجرد من شوائب أمراض المجتمعات المعقدة حتى يطلق أدباؤنا - كما أسلفت الذكر - العنان لوعيهم ليوهموا الناس ، فإنما يكون أدبا مزيفا لا أصالة فيه ولا روحا ولا فنا وبالتالي فقد يكون هذا الأدب خاليا من نزعته الإنسانية ، لأن أصحابه الذين كانوا أنتجوه لم يكن هدفهم الإبداع الفني الخالص وإنما كان هدفهم توظيف - هذا الأدب - لصالح الثورة التي تصبو إليها أنفسهم كمدافعين عنها خدمة لنظام هذه الثورة ، مثلما نصب أحمد شوقي نفسه مدافعا عن الخلافة التي أرادها أن تكون لآل عثمان ، وظل يوظف شعره - باسم الالتزام - في خدمة السلطان التركي المستبد ، حتى تقوضت دعائم نظام الخلافة التركية باسم الدين الإسلامي ، فتقوضت بالتالي أشعاره ومن حذا حذوه ، وماتت بموت الخلافة العثمانية اللاشرعية التي نصبت نفسها سلطانا على أهل الملك الحقيقيين وهم العرب .

ولكن لا ضير ، فإن أدب الثورة يمكنه أن يساهم مساهمة كبيرة في دفع عجلة هذه الثورة التي أوكل هو خصيصا لخدمتها والدفاع عنها .

إن الأدب سيظل دائما تعبيرا عن النفس الإنسانية بأحاسيسها ومشاعرها المختلفة كما تنعكس هذه الأحاسيس والمشاعر على النفس من الخارج وشرط المعاناة هنا لازم وضروري فعندما يكتب الأديب الثوري عن الجوع - مثلا - فإنه لن يستطيع أن ينتج أدبا ثوريا أصيلا يصور فيه الجوع ما لم يكن قد عانى صقيع هذا الجوع ونشبت فيه مخالبه ، وغرزت فيه أنيابه السامة ؛ لأن الأدب تجربة شعورية قبل أن يكون تجربة فنية وبقدر ما تكون التجربة الشعورية قوية وصادقة بقدر ما تكون التجربة الفنية ناجحة ، ولكي يكون أدبنا أدبا ثوريا أصيلا ، يجب أن تكون ثورتنا ثورة أصيلة صنعتها عبقريتنا ونزعتنا الأساسية وإذن فشروط الأدب الثوري

تخلقها الثورة نفسها على اعتبار أن الثقافة - والأدب ثقافة - بناء فوق المجتمع .

4 - إن عبارة ليس يوجد عندنا أدب - هي عبارة لها أكثر من مدلول واحد ، بل يمكن أن تستوحي منها عدة أمور تتعلق بالفن وذاته وبالنفس العربية الجزائرية بمشاعرها وإحساساتها ونظرتها للحياة ، ومن جملة ما توحي هذه العبارة الساخطة الرافضة أن العربي الجزائري يتوفر على حاسة ذوقية رفيعة وإحساس إنساني نبيل ، كما أنه طموح إلى جانب بلوغ الكمال في كل جوانب حياته المادية والمعنوية ، وبعبارة واحدة ، فالإنسان العربي الجزائري يحب الجيد مهما غلى وارتفع ثمنه ، أي يحب - اللوكس - إذ نراه يطلق هذه اللفظة الأجنبية على كل ما هو جيد ورائع ، بذلك فهذا ما يقول ليس عندنا أدب فهو يقول كذلك ليس عندما موسيقى وليس عندنا " فن " ، إنهم ينتجون فنا وكثيرا من أدبائنا الشباب نسجوا على منوال هؤلاء الأدباء الأجانب وكثير من أدبائنا الكبار العرب كذلك - فوقعوا في متاهات خيالية كثيرا ما تكون خيالاتها من لا واقهم بالنسبة لمحيطهم وبيئتهم ، وإنما هي خيالات مركبة من صور لمحيطات وبيئات أخرى بعيدة كانت - ويا للأسف - العامل الأساسي في كساد سوق الشعر الحر عندنا في الجزائر خاصة .

وبناء على هذا كله فإن الذوق السليم يرفض كل دخيل ويمج كل هذيان وإسقاط لا طائل وراءه إلا الكشف عن عقد النفس وأمراضها الكامنة في لا وعيها والإنسان العربي الجزائري - والحمد لله - مازال يتوفر على صفاء ذهنه ونقاء نفسه وسمو ذوقه وما على الأدباء الشباب إلا أن يصدروا في نتاجاتهم وإبداعهم الفني عن صفاء في الذهن ونقاء في النفس وسمو في الذوق بالإضافة إلى تلك النزعة الإنسانية العظيمة التي ينبغي أن تطبع أدبهم وإبداعهم بطابعها وتسمهم بسماتها .

5 - عندما أذكر - التراث العربي تمتد أمام عيني مساحة من النثر والشعر والعلوم والفنون لا نهائية وتنتظم في ذاكرتي سلسلة زمنية ذات حلقات متصلة تزيد في طولها عن 16و 17 قرنا .

وأنا فتحت عيني على هذه المساحة التراثية الواسعة منذ كنت في المدرسة الابتدائية لا تفهم من قولي أني قرأت التراث كله - فقد عرفت أمرأ القيس ، والمتنبي ، وجميل بثينة ، وجرير ، والفرزدق ، والجاحظ وغيرهم ... وحاولت أن أقلد عمر بن أبي ربيعة في شعره ، لأني كنت مغرما بقصيدته التي مطلعها :

أمن آل نعم أنت غاد فمبكر　　　غد أم رائح فمهجر

وإذن فاتصالي بالتراث العربي كان في وقت مبكر ، وإن كنت في ذلك الوقت لا أعرف ما معنى التراث والتعامل مع التراث العربي ليس سهلا على غير العربي ، لأن الأجنبي عن هذا التراث لا يمكنه .. مهما كان أن يقف على فهم كنه هذا التراث وسر خلوده وعبقرية أصحابه الخارقة التي تتجلى في بيانهم ، بل في بيان نثرهم وسحر شعرهم ، ولكن قد يبدو هذا التراث من السهولة بمكان بالنسبة للتراث الأصيل إذ يمكن لهذا الوارث أن يهضم تراث آبائه وأجداده في يسير بذلك يكون قد لقح عقله وقلبه بأول لقاح يكسبه مناعة فكرية وأدبية وفنية وذوقية فيها من القوة والعظمة ما يمكن أن تتحطم عليه كل السهام الفكرية السامة التي من شأنها أن تفسد الذوق أو تحدث خذوشا أو ندوبا في التراكيب البنيوية للنفس العربية ، وعلى كل حال فإن الحديث يطول لو تكلمنا عن قضية التراث وكيفية التعامل معه ، لكن يكفي أن نشير إلى أن فترة الرضاع بالنسبة للأديب يجب أن يقضيها بين أحضان التراث حتى لا يشب عائقا مارقا مثلما ظهر هذا العوق والمروق لدى بعض أدباء العرب الذين خلب أبصارهم بريق الحضارة الغربية وثقافتها ، فمنهم من هم على التراث العربي يقدح فيه ويكتشف عن مساوئه وعيوبه ، وما أقلها مدفوعا بشعوبيته ، ومنهم من دفعته جرأته وتهوره إلى محاولة استبدال الحروف العربية بحروف لاتينية .

التراث بصفة عامة هو نتاج لعبقريات الشعوب والأمم الإنسانية المختلفة ، والتعامل معه يتطلب فهم هذه العبقريات على اختلاف مستوياتها وقدراتها الفكرية والفنية .

6 - الالتزام في العمل الأدبي يعني احترام مبادئ الجماهير وقيمها ومثلها العليا التي تتماشى مع ازدهار وتطور الفكر الإنساني والالتزام قناعة أيديولوجية قبل أن يكون عقيدة تفرض علينا من الخارج ، ولعل سوء تفسير مفهوم الالتزام هو الذي أوقع أولئك المساكين بين حبائل مصيدة المناسبات كما قلتم .

إنه يجب أن لا نصفق إلا إذا كان هذا التصفيق نابعا من صدورنا ويعبر عن احساسنا وعواطفنا ، لأن التصفيق تعبير ، كما أن من العيب أن نردد شعارات كبيرة ضخمة ، وهي في الواقع أفرغ من فؤاد أم موسى ، ونقول عنها أنها ثورة والتزام . إن الفن شيء شريف نبيل والالتزام الإيديولوجي النابع من الأعماق ليس أبدا عاملا ، عائقا في الإبداع الفني ، لأن القضية قبل كل شيء قضية إيمان ، وإن على الأديب المؤمن الحق الذي يريد أن يؤدي رسالته الفنية والاجتماعية على أحسن وجه أن لا ينافق

الجماهير أو يضللها ، تلك الجماهير التي هو مدين لها ، لأنها هي التي خلقته ..

أجوبة الشاعر علي حاجي :

1 - أوافقك على أن الحركة الأدبية الشابة في الجزائر تمر بحالات ضيق واختناق ، أما عن تصوري لواقعها مستقبلا ولكي لا نخدع أنفسنا ، فيجب أن نطرح هذا السؤال : هل تستطيع هذه الحركة الأدبية الشابة في بلادنا أن تواكب متطلبات الجماهير الشعبية ، وأن تكون التعبير الأمين والصادق عن آمالها مستقبلا ، فإذا كان جوابنا بنعم ، فإني أؤكد أن المستقبل حسب رأيي سيكون لهذه الحركة ، لأن القضية في نظري ليس نجاح الحركة هكذا دون معنى ودون خلفيات بل إني أربط هذا النجاح بحصيلة وبمدى نضالها داخل طبقات الشعب .

2 - ليست المشكلة في رأيي من يمثل الصواب من الفريقين ، ولكن يجب أن نطرح هذا السؤال : ماذا استطاعت كل من الطائفتين أن تقدم للجماهير .

فالجماهير ليس في حاجة إلى التشبث بذيل الماضي والوقوف على الأطلال ، لأن ذلك لا يخدمنا ، بل يجعلنا نتقوقع على نفسها ويحرمها من التمتع بالحضارة الإنسانية ، والاستفادة من تجارب الغير ، لأن الحضارة ليست وقفا على أمة بالذات ، دون أمة أخرى ، فقد ساهمت فيها جميع الأمم والشعوب قاطبة ، ولكن معنى هذا نلغي الماضي ، لأن الحاضر الأصيل لا يلغي ماضيه .

3 - إن أدب الثورة معناه الأدب الجاد الذي يشارك في توعية العقول وإنارتها ، ومعناه أيضا النضال بالكلمة الأمينة مع الطبقات الكادحة في سبيل غد أفضل ، ومعناه أيضا المشاركة في بناء الحياة الكريمة عن آمال ومتطلبات الجماهير ، أما عن شروط إيجاده فتتمثل في رأيي في نقطة أساسية ، وهي وجود الأديب المؤمن بعدالة قضايا الجماهير من أجل الحرية والعدالة والرفاهية ، أما باقي العوامل الأخرى ، فلا تعدو في نظري إلا أن تكون عوامل ثانوية ومساعدة .

4 - يخطئ من يقول أن ليس عندنا أدب في الجزائر ، إذ الواقع أنه لدينا أدب بكل ما تحمله هذه الكلمة من معاني ، ولكن المشكلة أنه لم يأخذ مكانته اللائقة به بعد ، وذلك بسبب المعوقات والعراقيل المتمثلة في ضرب هذا الأدب وزرع الشوك في طريقه ...

5 - إن التعامل مع التراث يندرج في فهم العلاقات والروابط والظروف التي كانت سائدة في عصرنا ، وبالتالي فإن أهمية التراث لا تنكر في تكوين شخصية أدبية مستقلة تتعامل مع الثقافات الأجنبية على أساس الاستفادة ، وليس على أساس الطمس التام لهذا التراث ويندرج التعامل مع ذلك التراث الذي يتماشى مع المتطلبات التاريخية والاجتماعية الحاضرة .

6 - إن مفهومي للالتزام الأدبي أعرفه في كلمة بسيطة ، وهو التضامن مع قضايا الجماهير والإخلاص لها والتعبير عن آمالها وآلامها بكل صدق وأمانة .

4 - صورة الفرنسي في أدب الطاهر وطار (*)

إن احتلال فرنسا للجزائر ترك أثرا كبيرا في حياة الجزائر السياسية والاقتصادية والثقافية ، وذلك لما قامت به من أعمال عنف واضطهاد نحو الإنسان الجزائري ، ولمحاولتها سلخ الجزائري عن جزائريته وأصالته بإقدامها على قهر الثقافة العربية ، وتشجيع الثقافة الفرنسية الاستعمارية ، ونتج عن هذا الاتصال غير المتكافئ ، أن الإنسان الجزائري العادي الأمي نظر النظرة الخاصة نحو الفرد الفرنسي ، وغالبا ما يكون الفرنسي في نظر الجزائري رمز القساوة ، والنذالة ، والحقارة . وإذا كان معظم الأشخاص العاديين الأميين يرون الإنسان الفرنسي على هذه الصورة ، فإن المثقفين اختلفت تحليلاتهم ، ونظراتهم للفرد الفرنسي ، إذ هناك من يفرق بين الشعب الفرنسي ، والجيش الفرنسي ، ويذهب البعض إلى أن هناك فرقا بينا بين الفرنسي الذي سكن في الجزائر ، والذي بقي في بلاده ، وهناك من حاول أن ينظر للإنسان الفرنسي من زاوية إيديولوجية شمولية . وأبرز من يمثل هذا الاتجاه في الأدب الجزائري ذي التعبير العربي الروائي ، الطاهر وطار، الذي ونتوقف معه هذه المرة في أربعة أعمال أدبية[1] محاولين إبراز صورة الفرنسي من خلالها ، وكيف صوره ! وهل هذه الصور متفقة على نظرة واحدة ، أم ثمة اختلاف بينها ؟

وقبل الإجابة على هذه الأسئلة لا بد أن تتوقف قليلا عند الفكر الإيديولوجي للطاهر وطار وموقعه من الواقعية الاشتراكية في الأدب الجزائري حيث قال (لي شرف كبير أن أكون من ضمن كتاب الواقعية الاشتراكية في الأدب الجزائري) [2] .

وإذا كان الطاهر وطار يفتخر بانتمائه إلى الفكر الاشتراكي ، يتحتم علينا أن نراعي موقعه الإيديولوجي أثناء دراستنا لنتاجه ، لأننا نعتقد أن الإبداع تعبير عميق للمبدع وقراءة باطنية له .

يحاول الطاهر وطار أن يفرق بين الفرنسي الاستعماري العدواني ، وبين الفرنسي التقدمي الإنساني ، لذا وجب أن نراعي هذا التفريق .

تحت هذا العنوان نجد في أدب الطاهر وطار صورا عديدة في غاية الاستبداد والحيوانية « كان الموكب قد اقترب من المتجر ، جنديان يجران اللاز من ذراعيه ، وثمانية يستحثونه السير باللكمات والضرب بمؤخرات

---

* - صدر هذا المقال بمجلة آمال (الجزائر) ، السنة 12 ، عدد 55 ، سنة 1982.

البنادق ، بينما الدماء تتطاير من أنفه ووجنته وجبهته وشفتيه » [3] ، فقط نتصور هذا العدد عشرة أمام واحد في مشاجرة ، فالموقف بدون شك كاريكاتوري ومضحك ، لكنه في نفس الوقت مأساوي يصور تكالب أفراد الجيش الفرنسي في عنفهم واستبدادهم ، وقساوتهم ومعاملاتهم للإنسان الجزائري ، ونقرأ هذه الفقرة القصيرة وهي صورة رائعة لوحشية الجيش الفرنسي الاستعماري الذي لا يعرف لين قلب ، ولا ذرة إحساس ، نحو الفرد الجزائري « إنه يتذكر جيدا كيف كانت الطائرات تقذف مئات القنابل تنفجر هنا وهناك ، في كل مكان ، وكيف كان هو وكل أفراد ، دواره يتراكضون في الحصائد كالمجانين ، والنيران تلتهب من تحتهم ومن فوقهم » [4] .

ومن الصور التي توضح وحشية (الجيش الفرنسي) وبشاعة جرائمه إنه عمد إلى تلغيم الطرقات .. وكم بريء تلقفته ، واختطفته المنون غدرا « رفعت رأسي لأطلب من مصطفى أن ينترني ، فوجدته جامدا في مكانه وهو يهتف :

- الله أكبر .

- ماذا هناك ، يا مصطفى !

- تحت رجلي لغم .. خذ مكانك .

ما إن انطحت حتى دوى أول وثان ، ألقى مصطفى بنفسه في جرف، فانفجر اللغم الذي يقف عليه ، حظه الحفرة أيضا ملغمة » [5] .

ومن الصور التي وفق في إبرازها ، الطاهر وطار عملية تعذيب اللاز ، وإذا ذكرنا لقطة تعذيب يدفعنا هذا لتصور شريط طويل لفنون في غاية البراعة والدقة ، لقد كان الفرنسيون الاستعماريون بارعون بدون شك في تعذيب الشعب الجزائري ، وتعريض جسمه لعمليات التشويه « ما أن أنيرت الأضواء حتى جردوه من الثياب ، وأوثقوه بأسلاك نحاسية ، وقذفوا به فوق منضدة خشبية ثبتت على سطحها مسامير حادة وانهمكوا يجلدونه » [6]. ومن كثرة تكرار هذه الصور من العذاب حفظها الإنسان الجزائري ، يقول اللاز : « هذه العملية إن لم أعترف أثناءها تلتها مباشرة العملية الثانية: الغطس في الماء مع الكهرباء ، وإن لم أعترف أثناءها ، جاءت العملية الشاقة ، اقتلاع الأظافر » [7] .

ونتصور مدى بشاعة ملامح الضابط عندما يعلم بفرار اللاز «أيها اللاز اللعين ، أيها المتحدي الأجلف لو أعثر عليك أعدمك سلخا ، بل قبل ذلك أقلي الزيت في برميل ، ثم أغطسك فيه .. » [8] .

وليست هذه الصورة القاسية ، الموحشة مقصورة على الإنسان وحده ، إذ لم يسلم منها الحيوان نفسه ، ومن منا لا يحمل في ذاكرته ، ولو صورة واحدة عن قتل جماعي للحيوانات ، ولقد أحسن وطار حين ذكر هذا الوجه القبيح في تاريخ فرنسا الاستعمارية ، « تأملها الضابط في حقد ، ثم أشار بحركة من رأسه إلى بعطوش ، وأصدر الأمر ، أرحها من الألم يا بعطوش » [9] ، وانتزع الاستعمار الحيوانات من أصحابها ليتخذها طعاما له، أو يوظفها في الحرب « سنة أربعين طلبني القايد لينزع مني الحصان الوحيد ليرسله إلى الحرب » [10].

وهناك صور منفرة مقززة ، تغوص إلى أعماق المشاعر الإنسانية، وتحدث فيها جرحا بليغا وأثرا لا يمحى ، إنها صور استمدها الطاهر وطار من واقع استعماري متعفن تجرد من أبسط شروط الإنسانية ، وتمادى في ارتكاب الجرائم ، والقيام بأفعال بهيمية « تفوه وملأ الضابط وجه الربيعي ببصقة ، وظل يراقب عينيه ، هل تتحركان ، ثم أصدر الأمر تعريا » [11] ومن الصور أيضا التي تبرز قساوة الجنود الفرنسيين ، أنهم كثيرا ما يصبون البنزين على أجسام الجزائريين ثم يشعلون النار « أخرج العساكر والدي أوثقوه بالحبال ، ثم صبوا عليه البنزين وأوقدوا النار » [12].

وللفرنسي الاستعماري في أدب ، الطاهر وطار صور ناطقة للعنف والظلم والاستبداد والفساد « فقد انبعثت صفارات سيارات الشرطة من طرفي النهج الذي كنت أقطنه ، وثب رجال الشرطة من السيارات المدنية نحو الباب ، طرقوا لحظات ، ثم دفعوا الباب بعنف حطموه » [13].

وإذا كان الطاهر وطار يركز على إبراز صور الفرنسي الظالم المستبد الوحشي ، كما رأينا أعلاه ، فإنه يلح على الجوانب الجسمية والنفسانية ، وأبرز شخصية مريضة ، هي شخصية الضابط الفرنسي الذي حاول وطار أن يتفنن في إيصال شذوذه إلى القارئ حتى يولد في أعماقه نفوذا وكراهية قوية نحو الفرنسيين الاستعماريين ، ويظهر هذا الشذوذ العنيف ، والمقزز في تلك العلاقة الجنسية التي فرضها الضابط على اللاز البطل الرئيسي في الرواية ، وبعطوش من بعده .

إنني لا أبالغ إذا قلت أن الطاهر وطار جعل من صورة الضابط الفرنسي الاستعماري صورة لكل الاستعماريين المرضى بالشذوذ وغير الأسوياء ، يقول الضابط عن نفسه للاز « تعرفت عليه في اليوم الثاني من حلولي بهذه القرية اللعينة ، لعبت معه الورق وسقيته طيلة أربع ساعات ، وسكرت قبله .. أغلقت عليه الباب وأخرت الغدارة ، وأمرته بنزع ثيابه كان

مشدوها لا يدري لماذا عندما تعرى أجبرته على احتساء قارورة كاملة ، وسبقته إلى الفراش عاريا » [14] ، وفي فقرة أخرى يصور الكاتب تعلق الضابط باللاز ، وعدم التفريط فيه حتى لو ارتكب جريمة ضد فرنسا ، ويصرح الضابط لنا أيضا في نفس هذه الفقرة بمرضه ومدى تأثيره عليه ، يقول عن نفسه مخاطبا اللاز « إنني مريض كما أفهمتك قبلا ، لست مخنثا .. لو أوجب الطبيب .. إنه شيء ضروري لحياتي، إنه علاج لا غير .. اللاز .. ألفتك وكل الشروط تتوفر فيك ، لا أستطيع الاستغناء عنك ، ويجب أن تساعدني .. » [15] .

وفي فقرة أخرى تبدو لنا شدة تعلق الضابط باللاز ، إنقاذه مهما عظمت التهمة الموجهة إليه ، يا لها من ضباطة ، إنهم ضباط ورقيين ، لنقرأ حديث الضابط مع اللاز « أريد إنقاذك يا اللاز ، لكل أمر ثمن ، إنني أحبك من أعماق قلبي ... اللاز ... اللاز ... آه ما بك ؟ » [16] .

إن الضابط رمز القانون الصارم ، وجبين الفحولة والرجولة ينزل ، ويهوي من علياء العظمة ، ويقول إنه في نظر اللاز مجرد عاهرة ساقطة « الخنزير يتحدث عن الصداقة والحب ، كما لو أنه عاهرة وقحة » [17] وإذا كانت علاقة الضابط مع اللاز صورة للعهر ، والأمراض الشاذة والخيانة ، فإن علاقته ببعطوش لا تختلف عن طبيعة علاقته باللاز ، فهذا الضابط استمرار للشذوذ ، والدور الذي قام به مع اللاز القوي الذي يحسن القيام بأدواره يقول الضابط « يسهر عندي الليلة ، ويبيت معي ،، يجب أن يتعود ذلك ، لن أجد أحسن منه لتعويض اللاز » [18] .

وفي بعض قصص مجموعة الطعنات نعثر على صور الفرنسيين خاصة الضباط ، فأراد الطاهر وطار إبرازهم في عدة صور تتفق كلها في التشهير بهم ، وكشف عيوبهم وزيفهم ، ففي قصة من يوميات فدائي نجد الضابط الفرنسي شديد الطمع والغفلة ، إذ يستطيع أحد الثوار الجزائريين المقنعين في هيئة دلال يبيع الساعات أن يغري هذا الضابط ، فيذهب معه إلى المربض ، حيث يتلقى ضربة على رأسه تقضي عليه « واندهش الضابط لانخفاض سعر الساعة ، وتساءل ، عما إذا كانت هناك ساعات أخرى ، بمثل هذا السعر ليشتريها لأصدقائه ، كما قال ، ويتاجر بها كما فهمنا ... تبعنا الضابط منتشيا بهذا الظفر ، ولم يكد يدخل المربض حتى هوت على رأسه ضربة قاضية هوى على إثرها دون منجة أو صراخ » [19] .

ونلمس سخرية لاذعة ، وتعريضا واضحا عندما يصف بعطوش الضابط ، إذ ينعته بالأنوثة ، ويشك في كفاءته ، واستحقاقه لرتبة الضباطة « وظل بعطوش يدقق النظر في الضابط .. في حدود الأربعين ، متوسط القامة أبيض البشرة ، نحيف الجسم ، على عينيه الزرقاوين نظارات جميلة في إطار ذهب ، ملامحه نسوية .. في عنقه صليب ، ذهبي يتدلى في سلسلة رفيعة .. أنامله جد رقيقة ، قصيرة كيف تسنى له أن يحصل على هذه الرتبة » [20] .

وإذا كانت شخصية الضابط الاستعماري في رواية اللاز شخصية مصابة بالشذوذ الجنسي ، فإن وطار يؤكد مرة أخرى في رواية : اللاز العشق والموت في الزمن الحراشي أن شخصية الضابط الفرنسي دائما غارقة في وحل الصفات الدنيئة ، فمرة يمتاز بالشذوذ ، وأخرى بالمكر والحقد الدفين ، واللاأخلاقية ، وأحيانا تظل شخصيته تحمل الرعب والفزع ، أينما حلت ويتجلى هذا في هذه الفقرة « لم تنقض عشرة أيام كاملة ،حتى فوجئت ذات ليلة بطرق شديد على باب كوخي ، نهضت مذعورا لأصطدم بطلعته ، الحاكم فابي بطمه وطميمه ، مرفوقا بعدة دوائر : مدججين بأسلحة حربية ، ومنهم القائد والشانبيط وبعض الأعوان .

- أنا مسيو فابي ، أين السلاح ؟

- تفضل أنت ومن أعلمك بوجود السلاح ، خذوه !

- خذوني معه أيضا .

- أين غرفة رقادك ؟

- قصري يا مسيو فابي لا يضم سوى غرفة واحدة ، تفضل هي ذي .

بينما صعد أحد الدوائر فوق الكوخ ، يقلب القش والتراب ، تقدم الحاكم بنفسه نحو زوجتي يهم بتفتيشها ، نهرته بعنف ، وهربت منه لتحتضن أحد الأطفال ، اغتاظ مسيو فابي التفت إلى بلوم .

- زوجتك قبيحة مثلك .

- أنت الصفيق ، ألا تعلم أننا معشر المسلمون لا نسيغ لأحد منا أن يمد يده لامرأة ليست حريمه ، ما عليك إلا أن تحضر امرأة لتقوم بتفتيشها .

سكت انهمك يفتش الغرفة ، عثر على حقيبة فيها بعض مجلات وجرائد الحزب وبطاقات النقابة ، فاستولى عليها ، ثم أخذ يعبث في

محتويات الغرفة فسادا ، أفرغ ما لدينا من مؤن أرضا ، القمح فوق الدقيق ، العدس فوق الشعير ، والكل تحت نعليه ، وهو يتميز غيظا .

أحضروا فؤوسا وراحوا يحفرون الغرفة والساحة ، وما حولها طيلة ثلاث ساعات كاملة »[21] .

ولم تكن الجالية الاستعمارية في الجزائر تختلف عن المجتمع الفرنسي ، بل كانت صورة له تعكس تناقضاته الصارخة ، وتعفن أجهزته « وفهمت من ذلك كما فهمت من ذي قبل ، أن الفرنسيين الذين يتواجدون على رأس مؤسسات الحكم ، ومصالحه في الجزائر ، يعكسون بوجه ، أو بآخر التناقضات التي يتخبط فيها المجتمع الفرنسي » [22] .

ويصور الكاتب الجندي الفرنسي في موضع آخر من رواية اللاز في غاية الإهمال ، واللامبالاة ، إذ كيف يسمح الحارس لنفسه بالانشغال بمراقبة الحشرات حول النور ، ولا يركز انتباهه للحراسة واليقظة لأي طارئ « حين بدأت الدورية تقترب من الباب لاحت خطوات أفرادها لتفاتل تلقائيا ، وكما لو أن كل واحد يحاول أن يبدو بقدر الإمكان في حالة طبيعية أمام الحارس الذي أعارهم نصف التفاتة ، ثم ولى يتابع حركة الحشرات المتداخلة حول أنبوبة النور المتدلية فوق رأسه » [23] .

وقد يصور أفراد الجيش في غاية الإهمال ، واللامبالاة ، وعدم الانتباه الدائم ، وتمتاز محتشداتهم بالفوضى والاضطراب ، مثلا في الفقرة التالية نلاحظ أن وطار يصور لنا الفوضى التي تعم أفراد الثكنة جميعهم كانوا ضباطا ، أو ضباط صف ، أو عساكر عاديين ، كيف يتصايحون ، ويتصارخون بعيدا عن الإنضباط العسكري وصرامته « وكانت الثكنة تعج بحركة مضطربة ، محركات السيارات تدور وتتوقف والدبابات المصفحة تتقدم ، وتتأخر ، والجنود يتسابقون بين العربات والدبابات ، وبين قاعات النوم ، ومخازن العتاد ، والضباط ، وضباط الصف يتصايحون بأوامر مختلفة : السرعة ، السرعة ، القنابل اليدوية ، مزيدا من الذخيرة ، إنزع الغطاء عن الدبابات ، تفقد البنزين يا ابن الكلبة » [24] .

ويصور الطاهر وطار أحيانا الجيش الفرنسي الاستعماري كبقايا أشجار محترقة ، إنها صورة في غاية الانتقاص والحط من قيمة ومكانة جيش بلغت سمعته الآفاق ، وعدت قوته عظيمة ، لكن الطاهر وطار ينسف هذه الصروح ، ويهوي بها إلى بقايا حريق « تم سفح تتماوج فيه خضورة شجيرات البلوط مع بيوضة نتوءات صخرية ، تعلوه بقايا أشجار محترقة تبدو كما أنها فلول جيش نابليون في سيباستبول » [25] .

ومن الصور الإعلائية ، وهي نظرة من تحت إلى فوق ، قادمة من الإنسان الجزائري المنبهر ، فنظر بعض الجزائريين إلى الفرنسيين ، نظرة احترام وسيادة ، وتجنب الاختصام ، والاصطدام بهم « الفرنسيون نخافهم، نحترمهم ، نتفانى في تقديم الخدمات لهم ، ولماذا نحاربهم ؟ أو نخاصمهم » [26]، وتوجد صور للفرنسي ، نموذج الطهارة ، والجمال ، والاحترام لكنه يختلف عن الانسان الجزائري ، وأن لديه بلده مثلما للجزائري وطنه « نصير فاهمين ، نظيفين ، جميلين ، محترمين ، كالفرنسيين .. أفهمني جيدا كي يصير الإنسان سياسيا ، ينبغي أن يفهم قبل كل شيء أن الفرنسيين بشر مثلنا ، لهم بلادهم مثلما لنا بلادنا » [27].

صورة الفرنسي التقدمي :

بعد هذه المحاولة السريعة في حصر صورة الفرنسي الاستعماري ، في أدب الطاهر وطار ، نحاول الآن أن نتتبع كيف صور الفرنسي التقدمي، فالطاهر وطار ، وبحكم انتمائه للمبدأ الاشتراكي ، وإيمانه العميق بصلاحية هذا المبدأ ، وريادته لقيادة الإنسان نحو السعادة والخير - لم ينظر للفرنسيين في أدبه بعين واحدة ، إذ أكد على وجوب التفريق بين الفرنسي الاستعماري العدواني الظالم المستبد الشاذ المريض ، وقد أوردنا له عدة صور أعلاه - ، وبين الفرنسي التقدمي ، عميق الإنسانية ، الساعي لتحقيق الخير والسلام للجميع ، وسنحاول الآن أن نبرز الصورة التي صوره عليها الطاهر وطار.

هناك من الفرنسيين التقدميين من جاء إلى الجزائر ، وانضم إلى جيشها الثوري ، وساهم إلى جانب فصائل الثورة الجزائرية في القضاء على الجيش الاستعماري ، وإهزامه وطرده من البلاد ، وقد عمل الفرنسيون التقدميون كل ما في وسعهم أن يعملوه ، ويقدموه للثورة ، فساعدوا الثوار على تهريب الأسلحة ، وعلى اغتيال بعض الضباط ، والهجوم على بعض المعسكرات الاستعمارية ، أو تجمعات الجيش الفرنسي « أسرعت للمسدس لكنه ابتسم وأمرني بمسك أعصابي ! منذ استشهد رفيقك الدلال ، انقطع عني الخيط ، ولم أدر كيف أربط الاتصال ، هذه البدلة للضابط الذي أرسلته لكم ، إنك جميل بها ! إنني فرنسي تقدمي سحبت من العمل لأجند للتقتيل هيا أوثقني بهذا الحبل وكم فمي ، وغادر المركز بسرعة ، اهتزت فرائصي ، واضطربت أنفاسي ، وشعرت بالحمى ، وعانقته ، وخيل لي ، إنني أعانق كل الإنسانية فيه » [28].

واضح من النص السابق أن الجزائري الثوري ، والفرنسي التقدمي يحاربان عدوا مشتركا ، وهو فرنسا الاستعمارية مضطهدة الشعوب ونلمس هذه الصور بوضوح في الفقرة التالية ، إذ تبرز تلاحما عميقا بين الاستعمار، وعملائه من التجار والخونة ، وإن الجزائري - حتى العادي - ينظر إلى الاستعمار مثلما ينظر إلى الأغنياء والتجار ، فجميعهم صور للاضطهاد والاستنزاف وأشره على امتصاص دماء المضطهدين المعذبين والوطنيين ، وهذا ما تصوره بطلة قصة رمانة « وفي طريقي إلى مكان الموعد ، كنت أشعر باعتزاز وفخر ، وأنظر إلى الفرنسيين والأغنياء والتجار باحتقار ، وأبصق باشمئزاز في وجه أصحاب السيارات الذين يضايقونني » [29].

ومن الشخصيات الفرنسية التقدمية الواضحة في رواية اللاز "سوزان" التي تمثل طهارة ونقاوة الإنسان الفرنسي التقدمي بالخدمات التي قدمتها إلى زيدان الشاب الجزائري القادم من عمق الفقر ، وقحط الفكر ، إنه مادة خام وقع بين يدين باهرتين . إن زيدان القروي البسيط حولته سوزان إلى مناضل ثوري ذي مبادئ ، ومثقف كبير يصير أحد أعمدة الثورة ، وعنصرا فعالا يدوخ الاستعمار وعنجهيته « وفي المساء طلبت مني أن أصحبها سارت إلى جنبي بكل بساطة ، وبدون أي حرج ، وكأنها أختي مسافات طويلة ، ثم اقتحمت بي بناية داكنة اللون وقالت هنا يعلمون القراءة ، والكتابة ... سأعينك وسأجد لك إذ ذاك عملا أليق .. كنت أقرأ من أجلي ومن أجلها خاصة عندما اصطحبتني إلى منزلها لأصبح واحدا من الأسرة .. أحتل غرفة وأتناول الطعام معها على نفس المنضدة .. ذات يوم قادتني إلى دار البلدية لنسجل عقد زواجنا ، وفي كل يوم قبل أن تنام تقبلني وتهمس في أذني » [30].

وبعد كل هذا الخضم من الإنسانية ، والحدائق الطاهرة ، والأنهار الدافئة ، ينتقل زيدان إلى سماء رابعة ، وتتفتح أبواب عالمه ، كل هذا بفضل سوزان ، وبعد هذه القفزات الناجحة يدرس الاقتصاد السياسي ، فيكتشف نفسه ، ويعرف أين يقف « إلى أن وجدت نفسي ذات يوم أدرس الاقتصاد السياسي في الجامعة الشعبية ، وببساطة أيضا وجدتني في حلقة ماركسية ، ثم في خلية شيوعية إلى جانبها » [31] ، ومن التقدميين الفرنسيين الذين تعاطفوا مع الجزائريين وقدموا لهم خدمات إنسانية ، مدير السجن في رواية : جميلة .. اللاز العشق والموت في الزمن الحراشي « استدعاني المدير ، وأطلعني على وصية بن قانة ثم سألني :

- ألست أنت من أرسل ابن قانة إلى السجن من بسكرة إلى أولاد جلال موثوق اليدين في ذيل حصان .

- بلى ، وأنا أيضا من أصدر طابعا عالميا يحمل صورتي للتضامن معي.

- أوصيك باجتناب المناقشات ، لأنهم سيرسلون من يتجسس عليك، وسأوصي الحرس بعدم تشغيلك » [32].

أية إنسانية هذه ! إنها وحدة النضال الزاهية ، والغد الربيعي ، فابن قانة الجزائري رمز الخيانة ، والانصياع لأوامر الاستعمار ، وفي شخصيته تطفو الشدة والغلظة ، والاستبداد ، يلاحق الشباح المكي المواطن الذي يدافع عن الوطن ، ويعلق رفضه للظلم والاستعمار « ثم جاء ثانيا شيخ العرب ، أو فرعون العرب ، كما أسميه »[33] ، وفي مواضع أخرى صور الطاهر وطار التقدميين الفرنسيين في غاية المثالية والنمذجة التضحية والتضامن . من ذلك عندما يختار القبطان الإسباني زيدانا أمينا عاما للجنة الأممية ، فيعلن الفرنسيون دون تردد (موافقون) [34] .

ويندهش زيدان لعظمة تضحيتهم ، وإيمانهم العميق بالمبدأ، إذ وضعوا مصيرهم تحت تصرف زيدان [35]، « فكر زيدان قبل أن يجيبهم كثيرا، راح يتأملهم فردا، فردا، هؤلاء الرفاق، وضعوا مصيرهم بين يدي ، إنهم يعلمون أننا مهما درسنا القضية، ومهما حللنا، ومهما قررنا ننحدر إلى مصير واحد محتوم » [36].

في ختام هذه الدراسة السريعة لصورة الفرنسي في أدب الطاهر وطار يمكننا أن نستنتج أن صورة الفرنسي ، تأخذ بعدين متعاديين ، فالفرنسي الإستعماري صور في أشكال متعددة ذات لوحات مشوهة ، وهو رمز الاضطهاد والاستبداد ، واللاأخلاقية ، والشذوذ ، والفوضى في حين أن صورة الفرنسي التقدمي تمتاز بالإشراق والوضوح ، فهي رمز الإنسان المحارب والمناضل من أجل تغليب الحق على الباطل ، ومن أجل تقليص نفوذ الإستعمار ، ومعاونيه من العملاء التجار والبرجوازية ، وهو رمز وحدة النضال وصورة التضامن من أجل دفع التاريخ البشري إلى غايته وطموحه الوردي .

المصادر والإحالات :

أولا - المصادر :

1 - الطاهر وطار : رواية اللاز ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، الطبعة الثانية ، سنة 1978.
2 - الطاهر وطار : رواية جميلة .. اللاز العشق والموت في الزمن الحراشي ، مخطوط مطبوع على ستانسيل .
3 - الطاهر وطار : الشهداء .. يعودون هذا الأسبوع (مجموعة قصص) ، منشورات وزارة الإعلام العراقية ، الطبعة الأولى ، عام 1974.
4 - الطاهر وطار : الطعنات (مجموعة قصص) ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الطبعة الثانية ، (د.ت) .

ثانيا - الإحالات :

1- هي : اللاز ، جميلة .. اللاز العشق والموت في الزمن الحراشي ، والطعنات ، والشهداء .. يعودون هذا الأسبوع .
2- صرح بذلك أثناء أمسيته القصصية في جامعة عنابة ، بمناسبة الأسبوع الثقافي (م.خ.خ.م)
3 - الطاهر وطار ، رواية اللاز ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع - الجزائر - الطبعة الثانية
ص 16 .
4 - المصدر السابق ، ص 42 .
5 - الطاهر وطار : مجموعة الشهداء .. يعودون هذا الأسبوع ، منشورات وزارة الإعلام العراقية ط 1 ، ص 120 .
6 - رواية اللاز ، ص 78 .
7 - المصدر نفسه ، ص 78 .
8 - المصدر نفسه ، ص 135 .
9 - رواية اللاز ، ص 135 .
10 - رواية اللاز ، ص 135 .
11 - رواية اللاز ، ص 135 .
12 - الطاهر وطار ، الطعنات ، ص 41 .
13 - المصدر السابق ، ص 96 .
14 - رواية اللاز ، ص 82 .
15 - رواية اللاز ، ص 74-75.
16 - المصدر نفسه ، ص 75 .

17 - المصدر نفسه ، ص 75 .
18 - المصدر نفسه ، ص237.
19- مجموعة الطعنات ، ص 40 .
20 - رواية اللاز ، ص 261 .
21 - رواية : جميلة .. اللاز العشق والموت في الزمن الحراشي ، مخطوط، مطبوع على ستانسيل ، ص 65 .
22 - رواية : جميلة .. اللاز العشق والموت في الزمن الحراشي : ص 67.
23 - رواية اللاز ، ص 116 .
24 - المصدر نفسه ، ص 116 .
25 - الشهداء .. يعودون هذا الأسبوع ، ص 88 .
26 - اللاز ، ص 43 .
27- رواية اللاز ، ص 43 .
28 - الطعنات ، ص 44 .
29 - المصدر نفسه ، ص 197 .
30 - رواية اللاز ، ص 205 - 206 .
31 - رواية : جميلة ... .. اللاز العشق والموت في الزمن الحراشي ، ص 206.
32- نفس المصدر ، ص 67 .
33 - رواية اللاز ، ص 254 .
34 - الشخصية الثانية في رواية اللاز .
35 - رواية اللاز ، ص 254- 255 .
36 - المصدر نفسه ، ص

5 - الشاعرة أحلام مستغانمي
الالتزام ، الجرأة ، الجدية(*)

لا أبالغ إذا سمحت لنفسي أن أصدر حكما عن الشاعرة أحلام مستغانمي : إنها تمثل جرأة جديدة في القصيدة العربية الحديثة في المغرب العربي ، رغم أن عمر تجربتها الأدبية مجموعتين شعريتين : الأولى صدرت عن الشركة الوطنية للنشر والتوزيع - سناد - سنة 1972 تحت عنوان : على مرفأ الأيام [1] ، والمجموعة الثانية صدرت عن دار الآداب - بيروت ، في شهر شباط - فبراير سنة 1976 تحت عنوان : الكتابة في لحظة عري [2] ، بالإضافة إلى مجموعة مقالات نثرية ، وقصائد شعرية منشورة في المجلات والجرائد الوطنية والعربية . والشاعرة أحلام من مواليد 1953 ، كما أنها تكون أحد الأركان الأساسية ، والهامة لبناء الحركة الأدبية الشابة في الجزائر المستقلة ، وتقف إلى جانب الشعراء الشباب : أزراج عمر وأحمد حمدي ، وعبد العالي رزاقي ، وهم الذين يتزعمون في الجزائر تيار القصيدة العربية الحديثة ، الذي يعتمد أساسا على وحدة التفعيلة، والبحور الصافية، والمضمون الواعي والملتزم ، والذي كانت بغداد مسقط رأسه سنة 1947 .

وأحلام كغيرها من الشعراء تستمد مواضيعها من معاناتها اليومية . وانفعالاتها مع ما يحدث في هذا العالم المملوء بالحب ، والفرح ، والموت ، والولادة ، والصراع ، وباختصار فإن أحلام تصرخ بملء فيها : إنني بينكم، وأينما كنتم فأنا ظلكم العنيد .

وقد تراءى لي وأنا أنظر إلى مجموعتيها ، وإلى رزمة من الصحف والمجلات أنني أستطيع أن أقسم نتاجها إلى ثلاث دوائر كلية ، على أن كل دائرة تشتمل مجموعة من القصائد :

1 - الدائرة الوطنية ..
2 - الدائرة السياسية .
3 - الدائرة الذاتية .

---

* - صدر هذا المقال في مجلة الطليعة الأدبية العراقية ، العدد الثاني ، السنة الخامسة ، شباط 1979

1 - لقد كتبت الشاعرة عن وطنها ، وأنشدت له طويلا ، كتبت عن الفلاح ، وهو يزرع الأرض قمحا وشعيرا ، وعن الطفل ، وهو مبكر إلى المدرسة ، وعن العامل ساعيا نحو معمله ، وتغنت بأعياد الوطن ، مثل عيد أول نوفمبر ، وعيد الاستقلال و" 24 فبراير عيد التأميم " . ولا يعني هذا أن أحلام تتحين الفرصة لتكتب قصائدها ، وبذلك تسقط في حبال أدب المناسبات . إن الالتزام في الفن في رأيي لا يعتبر الكتابة عن منجزات حققها شعب بفضل إيمانه بحتمية العمل المتواصل لضمان سيادة كلمات صغيرة ، ولكن ذات أبعاد كبيرة حرية ، أمن ، عدل ، كرامة .

صحيح أننا وعينا الأدب الأرستقراطي ، وشعر التكسب ، وأننا الآن نصرخ ونعلن احتجاجنا بعنف لكل شاعر عربي يرفع أشعاره إلى ملك عربي أو حاكم ، تغافل عن واقع الشعب العربي .

أنا شخصيا مع الشاعر الذي يغني للحقول والأطفال ، والأشجار ، والحب ، والعدل والسلام ... أنا معه حتى الموت .

تقول الشاعرة مخاطبة ثورة أول نوفمبر : الموعد الحادي والعشرين :

توزعي على خريطة العالم المنهار

كوني رغيفا لجياع افريقيا

وبندقية في الشيلي

وفدائيا على حدود الجولان

وغطاء في البنغلادش

وتأميما في صحراء العرب .

إن هذه الكلمات : (الرغيف ، البندقية ، الشيلي ، حدود الجولان ، التأميم) تحمل أسماء معاني الوعي ، والتحام الثورة الجزائرية بالنضال الإنساني ضد الجوع ، الموت ، الاستبداد ، وما أكثر "وما أوحش جرائم الامبريالية وحلفائها ؟ " . إن الجزائر قطعة افريقية وقد عبر عنها الاستعمار الفرنسي ببوابة القارة السمراء، تعتبرها الشاعرة معجزة امتدت على صدر إفريقيا ، وحلما سوف يتحقق في بناء ألف قرية اشتراكية، تزهر الريف الجزائري ، وتقيم فيه مدائن أنوار ... ويكبر هذا الحلم الوطن في أعين أطفال الفلاحين والطلبة :

أيتها المعجزة الممتدة على صدر إفريقيا

أيها الحلم الذي يخرج من الذاكرة ليسكن ألف قرية اشتراكية

ليكبر في عيون أطفال الفلاحين ، وهم في طريقهم إلى المدرسة لأول مرة

ليكبر على سواعد الطلبة ، وهم يتطوعون بالآلاف لحماية الثورة

ولأن أحلام تحب وطنها ، كما أحبه المجاهدون ، والمناضلون ، وكما أحبه الفلاحون والطلبة ، والعمال ، والأطفال ، فإنها أبت إلا أن تقدم مجموعتها الثانية : الكتابة في لحظة عري هدية متواضعة من شاعرة أحبت وطنها بعنف :

لأنني لم أمنحك غير الكلمات

تذكري أنني أحبك جدا

إنني أشعر أحيانا بالخجل ، وأكاد أطلب منك العفو

لأنني لازلت على قيد الحياة ، ولست ضمن قائمة الشهداء

إليك يا جزائر أمتع سنواتي الإحدى والعشرين في عيدك الواحد والعشرين

يعتبر وجود المغتربين الجزائريين في فرنسا من مهمات الوطن الكبرى ، وهناك مشروع وطني لعودتهم ، وإدماجهم في الحياة الوطنية والمشاركة في بناء حضارة الوطن ، والمساهمة في إنجاح أعمدة البناء الوطني ..

ولعل فرنسا قد وجدت بديلا لأكثر من 800 ألف مغترب جزائري ، يعملون الأعمال الشاقة التي يرفض المواطن الفرنسي العادي أن يقوم بها ، أو لعلها وجدت من يكنس شوارع باريس ، ومارسيليا ، ونيس ، وليون .. ؟ إنه لشرف لكل موطن أن يأكل "الشعير" فوق تراب أسلافه وبين أهله ، وأبناء وطنه من أن يأكل "بيفتاكا" في أفخم مطاعم مدينة باريس . إن للهجرة في الأدب الجزائري الحديث اهتمامات واسعة وخاص ، فإن الشعراء قد نددوا ، والقاصون احتجوا ، والمخرجون صوروا بكاميراتهم ؟ وكلنا غضبنا .. وشتمنا .. و ...

وأحلام مواطنة جزائرية هي أيضا نددت ، واحتجت ، وصورت بقلمها هموم ومآسي المغترب الجزائري ، وكانت قصيدتها " من أجل الهوية " دعوة لأن تعاد هوية المغتربين ، أبناء الوطن الرائع التي اغتصبتها مدن فرنسا :

منحتهم فرنسا شوارعها المتسخة

فتوزعوا على خارطة الجوع ، يجمعون القمامة ، ويكنسون زبالة الناس المحترمين " الأوربي أشرف من أن يقوم بمثل هذه المهن القذرة " !!

لقد سقط خمسة عشر جزائريا هذا الصباح في مرسيليا

وسقط قبلهم العشرات في ظروف اغتيالات بشعة

ذنبهم أنهم يحملون هوية الأرض المعجزة

الأرض التي تحطمت عليها أسطورة فرنسا الاستعمارية .

ويتحول يوم 24 فبراير ذكرى التأميم : نغمة ووترا لكل المبدعين ، لأنه ميلاد إنسان آخر ، إنه إنسان الرفض ، ثورة الجوع ، وأخيرا : وحدة تصرع هذا " الغول " الذي تسميه قواميس السياسة - الاستغلال -

فلترتفع الأيدي تحية للبدل الزرقاء

وللأيدي القوية الخشنة

وضد الاستغلال

دائما ضد الاستغلال

إن الشاعرة تدرك جيدا أن الفقراء يجب أن يتحدوا ، نعم يجب أن يقاتلوا - غول الاستغلال - والجزائر تفتخر لأنها منارة للفقراء . والذين أضاعوا سبيلهم في ساعات الليل ولا - عيب - أن يتبادل الثوار تجارب النضال والكفاح ضد الإستبداد والاستغلال ، وأن يتعلموا من بعضهم كيف يزرعون ورد الحرية والتقدم في ربوع الأوطان ...

3 - البعد الإنساني في شعر أحلام :

تمثل القصائد التي تنتمي إلى هذه الدائرة معاناة الشاعرة ، وتفاعلها مع أحداث العالم . المذابح الجماعية ، وقتل الأطفال في فلسطين ، إبادة المواطن العربي الفلسطيني ، غارات الطيران الأمريكي الهمجية في الفيتنام، اغتيال الييندي ، لبنان الحرب ، القتلى ، الجرحى ، نسف العمارات ، الخيانة .. والمهرجين والوقوف ضد معامل الغرب ، سرقة بترول العرب وذهبهم ، ونحاسهم وفواكه أشجارهم .. والصراخ بشدة ضد الاستبداد ، وخنق الأصوات الحرة .

هذه باختصار المواضيع التي كتبت عنها أحلام ، واعتبرتها منارة قصائدها تراءت لي وأنا أقرأ إنتاجها . يقول الأستاذ الشاعر محمد الأخضر السائحي في هذه المواضيع (... ومواضيعها مليئة بالحياة لأنها مستمدة من الحياة ذاتها ، تلتقطها من الأشياء الصغيرة القابعة في الظل التي لا نوليها عناية ، لأننا لا نراها بمثل تلك الدقة ، ولا ذلك التركيز) ...

وتصرخ الشاعرة حين تفتح أبواب ساحة الإعدام لتجمع أمهات الضحايا رؤوس أبنائهم ، ويغمض الصغار عيون آبائهم :

افتحوا أبواب ساحة الإعدام

وفي قصيدة " كلمات خجلي لرجال رائعين " ترفع أحلام مستغانمي قصيدتها إلى شهداء عملية بيسان الذين أحرقتهم نازية إسرائيل القائمة على العنصرية والطغيان ، وتكتب عنهم والخجل يرسم صفرة برتقالية فوق خديها :

مخجل أن أكتب عنكم وأنتم تموتون

جل أن أتحدث باسمكم عن الثورة وأنتم تسقطون

مخجل أن أكون في سريري الليلة ورمادكم لم يجمع بعد من الساحة العمومية

ولا يمكن لنظام يفوق فيه، السلاح الذي يملكه الشعب سلاح الجيش أن يحافظ على الأمن

وحرب لبنان كانت تديرها أيد خفية-وتحركها أجهزة مخابرات تتحكم فيها الأمبريالية والصهيونية ..؟

لأن التاريخ لا يكتب من الشوارع - الأنيقة

ومن واجهات - الإغراء - بشارع الحمراء

وأنا من المدن القصديرية أيضا

ومن مخيمات الفلسطينيين

ومن الجنوب الذي نسيت بيروت طويلا أنه جزء من لبنان ...

لكل هذا تحاول - الكتائب - اليوم أن تقتل الفقراء ، والتقدميين

وأن تفرض حصار الجوع ، على اللاجئين

لكن التاريخ لن يستسلم لهذه المؤامرة

وهناك عناوين كثيرة سقطت فيها أحلام في ذاتية : سفينتي ، القصيدة الأخيرة ، أيامنا، حكاية .

تجب الملاحظة هنا أن أحلام مستغانمي كثيرا ما تقع في المباشرة والخطابة ، بل أحيانا تقع في حبال النثرية اللافنية ، وتظهر هذه الملاحظة بشكل جلي في مجموعتها الأولى على مرفأ الأيام ، وربما سبب ذلك أنها لا تزال في طور التجريب ، ولم تتمكن من السيطرة على أدواتها الفنية بعد ، ولم تعمق تجربتها الشعرية بالقراءة الجادة والدراسة ... فكان أن وقعت في سطحية تقريرية ...

الجرأة والتجديد في شعر أحلام :

سبق لي في بداية هذه الدراسة أن قلت أن أحلام تمثل جرأة القصيدة العربية الحديثة في المغرب العربي ، وأنها تكاد تقترب من غادة السمان صاحبة ليل الغرباء ، وأعلنت عليك الحب ..

إن الجرأة والثوب الجديد اللذين برزت بهما أحلام من خلال مجموعتها : الكتابة في لحظة عري أعتقد أنها أدهشت الكثير من قراء العربية ، خاصة الذين يعرفون عادات وتقاليد الأسرة الجزائرية .

إن أحلام قد اجتازت في كتابها " الكتابة في لحظة عري " كل الحواجز بتفوق رائع ، ولم يوقفها ذكاء شرطة الحدود ، ولم تلق عليها القبض عيون الموانئ ، والمحطات ، وها هي أحلام تقف عارية في الشاطئ الآخر تقول :

يوم كنت أحبك .. قالوا شاعرة

تعريت لأحبك .. قالوا عاهرة

تركتك لأقنعهم .. قالوا منافقة

عدت إليك قالوا جبانة ..

وتقول أحلام في قصيدة : كلمات غير موزونة لأرض أفقدتنا الاتزان :

انفجري يا خارطة العالم المنهار

انسفي التضاريس الملكية ، وحطمي كراسي الكارتون المستورد

افتحي أبواب المحتشدات والسجون

دعي الجموع الجائعة تشبع

ودعي الفقراء يملأون جيوبهم شمسا

ابعدي العملاء عن مسيرة المتمردين

فأقدام الأقزام لم تخلق لتواكب الثوار

إن هذه الجرأة موظفة توظيفا رائعا ، فهي دعوة لنسف كل الأنظمة المتعاونة مع أعداء الإنسان لاضطهاده وتعذيبه ، وتجويعه ، ودعوة للعنف لا من أجل العنف ، ولكن ليبتعد العملاء عن مسيرة الثوار ، ويتركون لهم كل الطرق التي توصل إلى بلاد الشمس ... / ... والشيء الجديد الذي أتت به أحلام ، هو أنها هدمت الجدار التقليدي للقصيدة العربية ، ورفضت أن تكتب كما يكتب الشعراء الرواد ، لقد تمردت على الشكل والمضمون ، ولم تعد تؤمن بهما ، بل أصبحت تعتبرهما وجبة جاهزة ، وهي تريد أن تقدم للإنسان العربي المواد الخام.

وسر هذه الجدة أربعة قصائد أن جازت لنا هذه التسمية هي : قراءة في جريدة يومية تمرين للمبتدئين ، فراغ يملأه القارئ ، حديث الجدران العربية ..

إنها جرأة واعية رافضة كل الأطباق الجاهزة ، وكراسي الكارتون، وشاعرة مغامرة هوايتها ركوب الخيل في اتجاه الصحراء العربية.

إشـــارات :

1 - كلمة التقديم كتبها الشاعر الجزائري محمد الأخضر السائحي (مجموعة على مرفأ الأيام) .

2 - مجموعة على مرفأ الأيام ، نشر الشركة الوطنية للنشر والتوزيع سنة 1972 م .

3 - الكتابة في لحظة عري ، نشر دار الآداب فبراير 1976 .

4 - بالإضافة إلى مجموعتي الشاعرة اعتمدنا في إعداد هذه الدراسة على الأعداد التالية من الشعب الأسبوعي ، ملحق ثقافي لجريدة الشعب، والأعداد هي : 18 - 20 - 23 - 28 32 - 41.

6 - ديوان الحب في درجة الصفر (*)

مقدمــة :

أحقا عندنا حركة أدبية شابة ؟

وإذا كان الجواب : نعم ماهي المنابع التاريخية لهذه الحركة ؟ ومدى ارتباطها بواقع المجتمع الجزائري الذي عرف وبدون شك تطورات كبيرة منذ فجر الاستقلال ؟ وما مشاريع هذه الحركة ؟ هذه أسئلة قليلة من جملة عشرات الأسئلة التي تزدحم ، وتتحرك بسرعة شيطانية في رأسي ، كلما قرأت مجموعة شعرية ، أو قصصية ، أو قصيدة .

والذي يقلقني أكثر أنني أحيانا أقسم بكل الكتب نافيا وجود حركة أدبية شابة في الجزائر تحمل هموم الأدب الطلائعي ومعاناته ، والذي يكون هويته الحضور الإيجابي ، لا الحضور السلبي مبدؤه الوقوف إلى جانب المعاناة اليومية للإنسان الجزائري الجديد ؟

لقد تفرغت خلال شهري جانفي ، وفيفري 1978 لقراءة ما تيسر لي الحصول عليه من مجموعات شعرية ، وقصصية ، وروايات ، مجلات وطنية كآمال ، والثقافة ، والمعرفة ، والأثير - قبل توقفها - والملحقات الثقافية لجريدتي النصر والشعب ، والمجاهد الأسبوعي ... بعد قراءة كانت فعلا متعبة ، ولكنها كانت ذات فائدة أرغمتني أن أعلن بصوت مرتفع جدا : لدينا حركة أدبية شابة تحمل هموم الإنسان الجزائري ، ولكنها تحتاج إلى رحلات سندبادية شاقة .

وخلال هذه القراءة أوقفتني عدة أصوات شابة يرجع إليها الفضل في بناء سور عظيم يضمن تبرعم الحركة الأدبية الشابة ، والتصاق أعضائها بالأرض والإنسان أمثال : عبد العالي رزاقي ، أحمد حمدي ، عبد الحميد شكيل ، جروة علاوة وهبي ، وإدريس بوذيبة ، وهؤلاء وغيرهم في الشعر ، أما القصة نجد : أحمد منور ، بقطاش مرزاق ، بشير خلف ، محمد الصالح

حرز الله ، عمار بلحسن ، زنير جميلة وغيرهم .

---

* - صدر هذا المقال في مجلة آمال (الجزائر) ، العدد 44 ، مارس - ابريل 1978.

وهذه الأسماء - وغيرها - أعترف منذ البداية أنها لا تمثل خطا واحدا ، بل عدة خطوط من حيث الشكل والمضمون في القصة والشعر .

وأقدم هذه المرة إلى قراء مجلة - آمال - أحد أعمدة حركتنا الأدبية الشابة الشاعر الشاب عبد العالي رزاقي ، صاحب ديوان : الحب في درجة الصفر .

صدر هذا الديوان في أواخر سنة 1977 ، عن مطابع الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ويضم بين غلافيه 27 قصيدة ، بالإضافة إلى كلمة الإهداء ، وكلمة التقديم التي كتبها الكاتب الجزائري الدكتور : عبد الله ركيبي ، وصفحة الفهرس ، ومجموع صفحات الكل 167 صفحة.

وبعد قراءات عديدة لديوان الحب في درجة الصفر ، تراءى لي عبد العالي رزاقي شاعرا موهوبا ، يسيطر سيطرة كبيرة على لغته الشعرية ، وموضوعاته ، ويستخدم أحيانا القاموس التراثي لمعالجة مشاكل انسان عصره خاصة قصيدته : قراءات ..! حيث وردت فيها هذه الكلمات (قابيل وهابيل ، الشنفرى ، أبو در الغفاري ، أبو نواس) ، وفي قصيدة : من يوميات مواطنة من الدرجة الثانية نجد : (العنترية ، الجاهلية ، زليخة ..) .

وهو بهذا يكون امتدادا لآخر تقليعة تتمشط بها القصيدة العربية الحديثة في المشرق العربي وأخذتها الجادة من تراثنا ما هو الخالد لتوظيفه وتسييسه تسييسا واعيا خاصة قصائد الشاعر السوري : فايز خضور ، والشاعر المصري : أمل دنقل وغيرهما .

ورزاقي بصراحة يحب وطنه كثيرا ، وأيضا فإن الانسان الفقير ، والفلاح وحبه للمعول ، والمنجل ، والمحراث ، والحقل أهم مواضيع شعره.

يقول في قصيدة : الحب في درجة الصفر .

سأحجز كل الفنادق ، كل الشوارع ، كل المقاهي .

لكل المساكين والفقراء .

أليست هذه إنسانية مثلى ينفرد به الذين يحبون أبناء وطنهم ، ويقتسمون معهم باقات أزهار الربيع ، ويحملون إليهم أشعة الشمس .

إن كلمة - الفقراء - تتكرر كثيرا في شعره ، ربما لأنه يريد أن يلفت انتباه أصحاب القصور ، وأمراء البترول العرب إلى أن الملايين من إخوتهم غول الفقر يهدد حياتهم ، أو ربما أنه يعتبر أن الفقر هو عدو الانسان الثالث.

ويتضح سبب هذا التكرار عندما يدعو للثورة واسقاط عروش الأغنياء ، كفاهم ؟ لقد فرحوا وحزنا ، وجعنا وشبعوا ، وتعبنا واستراحوا ، وعشنا طويلا أشقياء ، وعاشوا طويلا سعداء لنحطم أبواب قصورهم ، وسوف نعرف عز موتنا جوعا .

أخي لماذا لا ننزع عن وجوهنا الغطاء
ننفض كالإعصار ..
على قصور الأغنياء
لعلنا ندرك ما خلف الستار .

ولن يبارك انتصار الفقراء والمظلومين على الأغنياء الظالمين إلا بوحدة تضم الطالب ، والعامل ، والفلاح ، إنهم الصخرة التي تتحطم عليها تيارات البرجوازية ، وهم ثالوث اختيارنا الإيديولوجي :

أخي ..
أخي الطالب والعامل والفلاح
تعال نبحث عن إطار
عن مبدأ يقاوم التيار
تعال .. هذه يدي أمدها إليك من جزائر الثوار
هلم نتحد
يداك في يدي إلى الأبد .

وفي مقطع من قصيدة : رسوم على معول يدعونا الشاعر إلى أن نوزع قلبه الحب على كل أحبائه ، ورفاق دربه الذين يدعوهم إلى ولادة قوة المطر :

وزعوا قلبي على كل الأحبة
وكونوا عرق الجبهة والساعد ..
كونوا الماء والضوء معا
والساعد المفتول جسر
يمتطيه الفرح القادم
يعشوشب في القلب قصائد

ويرى الشاعر في وحدة العامل، والفلاح، والطالب قوة للفقراء لأنهم زعماؤنا الشرعيون :

وحدوا الطالب بالعامل والفلاح يشد الفقراء
وحدوهم ..
وحدوهم ..
وحدوهم نحن لا نرضى سواهم زعماء .

ويفضح الشاعر الوصوليين ، والانتهازيين ، والفرصيين ، ويرى أن الذين لديهم أكتاف - تعبير مجازي - يبنون أعشاشا قبلية ثم يغلقون كل الأبواب ، لأنهم استولوا على كل المفاتيح !!

لك الكتف العائلي
وأسماء أهل النجوم
ومن يرفعون العصا في وجوه اليتامى
ويحتفلون بتنصيب لص جديد
لك المال ، والجاه ، والشرف القبلي
وعيناك مازالت ، كالخنازير في صدر
هذه المدينة

وكلما يكثر الذين يملكون - شيكات - في كل بنوك العالم ، وتمتد بطونهم كالنساء الحوامل ، فإن هناك من يتعب جريا بحثا عن مسكن أو منصب شغل ..

إن الشاعر هنا يعني المتآمرين المتعاونين لاستنزافنا ، فنرفع دعوة للموت للإسراع بنا إلى ظلمة القبر ، عند ذلك تزرق السماء لمهربي دمائنا وتخزينها في بنوك الغرب !

وبطنك يكبر ..
يكبر كامرأة حامل
والشيكات تحول باسمك في كل بنك
وغيرهم يسكب ماء الجبين
ليعثر يوما على عمل أو سكن

وفي قصيدة من سنابل الحقيقة ، حقيقة لا يمكن أن ينكرها أي مؤرخ للثورة الجزائرية وهي أن مفجري ثورة نوفمبر 1954 ، انطلقوا من الحقول والبيادر يحملون بنادق الصيد والخناجر .

وهذه الحقيقة لا يعرف الشاعر سواها ، إذ يقول في قصيدة : سنابل الحقيقة :

كل ما أعرفه عن وطني
قصة ثائر
كان فلاحا .. على كتفيه
محراث ، وفأس .. وبشائر
دمه في جدول الأوراس
عيناه بيادر

ويسافر الشاعر في كل الأزمنة ، والأمكنة يبحث عن المدينة الحبيبة ليقبلها قبلة طويلة وتكون هذه الحبيبة الفاتنة هي الجزائر .

هكذا يتحول الوطن إلى حبيبة ، فيتشكل وينمو جسدا رائعا يملأ عين الشاعر ويستحوذ على قلبه .

سافرت في كل ذاكرة المكان والزمان
أبحث عن مدينة أحفر بين شفتي اسمها
وتنمو في عروقي شهقة الشمس على واجهة ابتسامة بريئة
فكانت الجزائر

ولأن الشعر تفاعل ، فإن رزاقي يمتد تفاعله ، وتضامنه الواعي ، ووقوفه إلى جانب النضال والكفاح .

ومثلما تضامن بالأمس مع شعب الفيتنام ، واللاووس ، وكمبوديا ، فإنه يتضامن اليوم مع كفاح الشعب الصحراوي ، والفلسطيني الذي تمر اليوم قضيته بالتمييع ، ولعب الملفات ، وتجاهل بعض الأنظمة العربية حقوقه .

إن نازية إسرائيل تحرق اليوم ، وتبيد كل زرع يقول : أنا فلسطيني، قتلت أبناء فلسطين ، أسكنتهم مدائن الغربة والمغامرات ، يمتطون الريح والجوع ، والبرد :

شردوا أطفالنا
حرقوا أكواخنا
قتلوا حتى النساء
خلقوا النكبة فينا والرياء ..

يقول الدكتور عبد الله ركيبي : إن الشاعر رزاقي يتمتع بوعي واضح فيما يعاني منه الإنسان العربي من ضغوط داخلية أو خارجية ، ويدعو إلى تحريره من هذا كله ، حتى يصبح إنسانا قويا بأتم معنى الكلمة .

إن الحقيقة التي نحملها مشوهة ، أفقدنا ساساتنا ذاكرتنا ، كما ضيعوا شمسنا، فاندهشنا ، لم نعد نرفض أي مشروع للسلام تقدموا به إلينا:

نحن لم نرفض لهم أي قرار

ولذا ضاع منا كل شيء

غير إيمان العجائز .

إلا أن الشاعر لا يسيطر عليه اليأس والقنوط ، بل يؤمن بأن نهاية المسرحية ستضحكنا ، ونصفق كثيرا ، لأنا ! :

مع الفجر الغد نأتي

مع تاريخ يشع النور منه

سوف نأتي

لنعيد القدس

أو نمحو آثار الهمجية

ويلتحم تفاعل الشاعر مع نضال وكفاح شعب الصحراء الغربية ضد الغزاة في قصيدة رائعة رثى بها الشهيد الوالي مصطفى السيد قائد جبهة البوليزاريو :

أيها الراحل في أول صف الشهداء

يعجز الشاعر عن وصفك

فالأوصال لا تحمل في الأعماق نبض لثورات

إن الكلمات الشعرية تعجز أن تصف زعماء رسموا لشعبهم طريقة التحرر والنضال ، وعلموه معنى حب الوطن ، ونغمة الاستشهاد فوق تراب الوطن ، وأن الوصف لا يمكن أن يعبر عن عمق معاني الثورات ، لأنها تسمو عن الوصف والتعبير بالكلمات .

هذا هو الشاعر الشاب رزاقي عبد العالي ، كما تراءى لي ، وأنا أقرأ ديوانه : " الحب في درجة الصفر " ، إنه صوت قوي ، ذو موهبة شعرية ، يحمل هموم غيره ويناضل من أجل أن تزهر الأرض ، ويبتسم الإنسان ، وأيضا أحد أعمدة حركتنا الأدبية الشابة الواعين الملتزمين بقضايا الجماهير الكادحة وتطلعاتها .

فإليك يا أخ رزاقي تحية من شاب مثلك يحب وطنه مثلك ، ويبكي إذا بكى البؤساء والفقراء ، ويبتسم إذا ابتسموا .

جامعة عنابة (العيايدة) في 1978/02/09

7 - متى يطبع تراث
الأديبة المبدعة زليخة السعودي (*)

لقد تطورت الكتابة النسوية في الأدب العربي المعاصر تطورا ملحوظا ، ويرجع ذلك إلى ظهور جيل من المبدعات بعد الحرب العالمية الثانية ، يمارسن الكتابة والإبداع في شتى أجناس الإبداع ، مثل الرواية ، والقصة القصيرة ، والشعر - الذي تعد الدكتورة نازك الملائكة أحد الرواد حركته التجديدية المعاصرة - والمسرح ، والسينما ، والفن التشكيلي ، والبحث العلمي ... الخ .

ويتبين من ذكر الأسماء التالية قوة حضور المرأة العربية المعاصرة في مختلف مجالات الخلق والإبداع ، ومدى فعالية مشاركتها في تطور مختلف حقول الحياة العربية المعاصرة : نازك الملائكة ، أم كلثوم ، سهير القلماوي ، زهور ونيسي ، جميلة بوحيرد ، نوال السعداوي فاطمة المرنيسي ، زينب الغزالي الجبيلي ، غادة السمان ، أحلام مستغانمي ، ماجدة الرومي ، فيروز ... الخ .

كما تؤكد البحوث ذات المنحى السوسيوثقافي أن إبداعات المرأة تبدأ من مرحلة تأليفها المبكر للأغاني والأناشيد ، التي تترنم بها أثناء مناسبات الأعياد ، وأثناء هدهدتها للأطفال . ويمكن للباحث أن يعثر على أشعار وأغاني كانت المرأة الجزائرية تترنم بها أثناء مواسم الحصاد ، ومواسم جني الزيتون ، وكذلك أثناء قيامها بشؤون المنزل .

* * *

وتعد الأديبة المبدعة زليخة السعودي من أهم وأبرز الأدباء الجزائريين الذين أسسوا جيل الستينات الأدبي .

ولدت الأديبة زليخة السعودي أبنة الحاج محيو بقرية بابار بالقرب من مدينة خنشلة، وذلك سنة 1944 . تلقت تعليمها القرآني بمسقط رأسها في مدرسة حرة أسسها الشيخ عبـد

---

* - نشر هذا المقال بجريدة السلام (السلام الأدبي) ، العددان 1517 و1518 سنة 1996.

الحميد بن باديس سنة 1939 . وحصلت على الشهادة الابتدائية في عام 1956م ، في مدرسة التربية والتعليم بمدينة خنشلة .

ولم تتمكن من إتمام دراستها بسبب الظروف الصعبة للتعليم آنذاك ، وإقبال الإدارة الاستعمارية على غلق جميع المدارس الحرة ، ومدارس جمعية العلماء على الخصوص ، وذلك بعد أن أيدت جمعية العلماء اندلاع الثورة التحريرية ، والتحاق العديد من رجالها بصفوف الثورة مثل الشيخ العربي التبسي ، والأديب محمد بن العابد الجلالي .

إلا أن عمها الأستاذ أحمد السعودي قد فتح لها مكتبه ، وشجعها على المضي في المطالعة والتحصيل ، كما كان أخوها المرحوم محمد السعودي سندا لها ، فقد زودها أثناء إقامته في القاهرة للدراسة بالعديد من الروايات ، والمجموعات القصصية ، والمؤلفات الأجنبية المترجمة إلى اللغة العربية .

وبعد الاستقلال ، تزوجت الأديبة زليخة السعودي بأحد أقاربها بمدينة عنابة ، ودرست أثناء المدة التي أمضتها في مدينة عنابة بمدرسة وادي الذهب .

إلا أن ظروفا اضطرتها للعودة إلى مدينة خنشلة ، ثم انتقلت بعدها إلى مدينة باتنة . وفي أواخر عام 1971 انتقلت إلى مدينة الجزائر لتعمل محررة بالإذاعة الوطنية . وقد وافتها المنية في أواخر ديسمبر من سنة 1972 ، أثناء عملية وضع بأحد مستشفيات العاصمة .

تركت المبدعة زليخة السعودي تراثا أدبيا غزيرا ومتنوعا ، فهي قد جمعت بين كتابة القصة ، والمقالة النقدية ، والمقالة الاجتماعية ، والخاطرة، والسيرة ، بالإضافة إلى أنها كانت خطيبة بليغة .

نشرت زليخة السعودي كتاباتها في جل المجلات والصحف الوطنية التي صدرت بين عام 1958 وعام 1972 ، مثل جريدة (الأحرار) ، وجريدة (الجماهير) ، ومجلة (الفجر) التي أصدرتها اتحادية الأوراس بجبهة التحرير الوطني ، ومجلة (الجزائرية) ، ومجلة (آمال).

وما ميز تجربتها الأدبية داومتها على لكتابة في جريدة (الأحرار) التي أصدرها الكاتب الجزائري الطاهر وطار بمدينة قسنطينة عام 1962 ، وقد تمكنتُ في عام 1985 ، أثناء إحدى زياراتي لمدينة قسنطينة أن أطلع على جميع أعداد مجلة (الأحرار) ، وذلك بمساعدة الصديق الفنان فريد الأطرش الذي قام بتصوير جميع الكتابات التي تحمل توقيعها وتسليمها

إليّ. وهذه الأعمال هي التي تضمنتها مجموعة أعداد جريدة (الأحرار) ، والتي تحمل توقيع الأديبة زليخة السعودي :

أولا - مقالات ضمن سلسلة " من أدب الثورة " :

1 - عاشقات الليل
2 - المرأة في الأدب الجزائري
3 - الحب الكبير
4 - نحن والإبداع
5 - المنفى ومالك حداد
6 - أغصان الزيتون
7 - سنلتقي

ثانيا - كتابات مختلفة :

1 - العاطفة والحياة
2 - اليوم الآخر
3 - الذوبان ، وهي قصة طويلة ، نشرت الحلقة الأولى منها في العدد رقم 24 ، وهو آخر عدد يصدر لجريدة الأحرار .

وقد قدمت هيئة تحرير الجريدة هذه القصة بقولها : « باقتراح كثير من القراء ، حذفنا " وجها لوجه " الكتاب المتسلسل الذي يعالج أسس المجتمع العربي ، وقد عوضناه بقصة "الذوبان" لأخت من أسرة الجريدة ، أصبح لها قراء كثيرون أملنا أن تروق القصة لقرائنا الكرام ، وأن يناقشوها باعتبارها أدبا جزائريا محضا » .

وتوجد كتابات أخرى للأديبة زليخة السعودي نشرت مجلة (آمال) نماذج منها في العدد الأول الصادر في شهر أفريل سنة 1969 ، إذ تضمن هذا العدد قصتين بقلمها ، الأولى بعنوان " من البطل ؟ " ، والثانية تحمل عنوان " من وراء المنحنى " .

كما نشرت لها مجلة (آمال) قصة أخرى بعنوان " عرجونة " ، وهي قصة طويلة تقترب في بنيتها من شكل الرواية .

وإذا أخذنا بما ورد في جريدة (الأحرار) ، وبما ورد في العدد الأول من مجلة (آمال) فإن الأديبة زليخة السعودي تكون قد تركت مجموعتين قصصيتين ، بالإضافة إلى عشرات الكتابات المختلفة : بين القصة ، والخاطرة ، والمقال النقدي .

أ - تحمل المجموعة القصصية الأولى عنوان : " أحلام الربيع " ، وقد ورد ذكرها في مقدمة قصيدة صدرت بها هيئة تحرير جريدة الأحرار قصة " اليوم الآخر " ، وهذا نص التصدير : « تلفت (الأحرار) نظر القراء الكرام إلى تعدد الأبواب التي طرقتها الكاتبة ، فبعد المقالات ها هي القصة ، مع الملاحظة أن للكاتبة مجموعة أقاصيص تحت عنوان (أحلام الربيع) ستفاجئ قراء العربية في كل مكان بميزاتها القيمة ، وهي في مكتبة الأحرار في انتظار بروزها إلى النور » .

ب - أما المجموعة الثانية ، فقد وردت الإشارة إليها في التعريف الذي قدمت به هيئة تحرير مجلة (آمال) قصتيها : قصة " من البطل ؟ " ، وقصة " من وراء المنحنى " ، ولكن دون ذكر لعنوان المجموعة القصصية، ولا لعدد قصصها ، رغم أنها أشادت بقصصها وأسلوبها ، كما يبين نص التعريف احتفاء هيئة التحرير بقصصها : « زليخة السعودي أديبة جزائرية ناشئة ، من نواحي خنشلة ، وقد زاولت دراستها باللغة العربية .

وقد اهتمت بكتابة القصة القصيرة ، ولديها الآن مجموعة سوف ننشرها . وقد أخذنا لها قصتين (من البطل ؟) و(من وراء المنحنى) ، وتمتاز قصص السعودي بدقة الوصف ، وبتصوير جميل لأشخاصها .

وقد رأينا أن نترجم لها قصة (من وراء المنحنى) ، وننشرها باللغة الفرنسية ، حتى يستفيد منها قراؤنا بهذه اللغة ونضع بذلك لبنة أولى في خدمة الأدب الجزائري وربط الصلة بين كتابنا بالعربية وكتابنا باللغة الفرنسية » .

نحلص مما سبق إلى هذه النتيجة ، التي نوردها في صيغة سؤالين :

- هل تركت زليخة السعودي مجموعتين قصصيتين معدتين للطبع ، تمتلك المجموعة الأولى هيئة تحرير جريدة (الأحرار) ، وتمتلك الثانية هيئة تحرير مجلة (آمال) ؟

- هل هما مجموعة واحدة ، انتقلت من هيئة تحرير جريدة (الأحرار) إلى مكتب هيئة تحرير مجلة (آمال) ، والتي أغفلت ذكر عنوانها ؟

أعترف أنني لا أملك الإجابة عن هذين السؤالين حاليا ، ومن يدري فلعل طبيعة البحث ، وحب أسرتها ، وأقاربها ، معارفها ، والنزهاء لتراثها الذي يعد - في رأينا - تراثا وطنيا ، ومن حق جميع القراء والمهتمين بقضايا الأدب الجزائري الحديث الاطلاع عليه ، وقراءته ، ودراسته ، وموقعته ضمن المسار التطوري للإبداع الجزائري المعاصر .

وإننا نأمل من جميع أفراد أسرتها الكريمة ، ومن جميع معارفها ، وممن يمتلكون أعمالها ودفاترها ، ورسائلها أن يبسطوا إلينا يد العون وعين الثقة من أجل جمع تراثها وإعداده للطبع ضمن لسلة الأعمال الكاملة.

- نموذج من أدب المرحومة زليخة السعودي :
قصة " عازف الناي " :

نشرت هذه القصة في مجلة الفجر التي أصدرتها اتحادية الأوراس بجبهة التحرير الوطني ، في بداية الاستقلال الوطني ، العدد رقم 5 الصادر في يوم 15 / 12 / 1962م .

وقد تضمن هذا العدد نصين آخرين ، النص الأول عبارة عن مقال مطول بعنوان "المرأة والحرية ، تكوين الشخصية" يمتد من الصفحة ستة (6) إلى الصفحة سبعة (7) ، ويبدو أنه عبارة عن نص خطبة كانت قد ألقتها في أحد التجمعات الشعبية ، وتبين الفقرة التالية ذلك : « أنا لا أدعو الرجوع إلى الوراء .. أو أتكلم باسم الرجعية ، لكني أجابه المشكلة بصراحة .. أنا أنكر مثل هذا التقدم أو المسخ .. بعبارة أفضل .. أنا أومن بشخصيتي بعربيتي المتوهجة توهج الشعاع المشرق ، وأدعو إلى البساطة والإيمان والنقاء .. »

أما النص الثاني ، فهو عبارة عن قصيدة ترثي فيها أخاها محمد السعودي ، وهي بعنوان : أغنية جرح : إلى روح أخي الشهيد ، ويتبين من هذا النص الشعري مدى تعلقها بأخيها ، وذلك عن شدة إحساسها بالفراغ الذي تركه رحيله المباغت ، بعد أن اغتالته يد إجرامية بعد أن ترصدته من إحدى شرفات مدينة الجزائر العاصمة ، وذلك في يوم 15 أكتوبر 1962م ، ويعبر المقطع الشعري التالي عن ذلك :

فيا أخي
هل تسأل في خلودك عناء جرحنا الكبير
عن أمواج الحنين
تفيض في ظلمة الليل أنين
وأختك في الدرب جنحها كسير
خلفتها للريح والحزن إذ يثور
لوحشة البرد وحرقة الهجير
مدامعي كيف أصونها ؟
أزهاري السوداء هل أبذرها ؟
هل أسير أم لا أسير ؟
ووحشة الدرب كيف أضيئها ؟

نص قصة : " عازف الناي " :

اسألوا عنه أشجار الصفصاف الفارعة وظلالها التي طالما تفيأها .. والشعب والنهر الكبير يشق القرية في عنفوان يبعث فيها النظارة والحياة .. فيخبركم عن البطولة في بساطتها الرائعة ..

إنه خليفة الفني الوحيد في تلك القرية النائية التي نسيها الزمن ، فأقام حولها تلالا حجبتها عن الأعين ..

عاش خليفة يتمتع بحب الناس له .. ويهب هو حبه للأرض السمراء، الأرض التي أضنت قواه ، وهو فتى ، وسرى ثراها عرقه . كما تغلغل حبها في أعماقه ، فمنحه السعادة والقناعة بما أتاه الله من رزق جعله أكثر الأهل رضاء وعطاء .. رغم الحبوب الهزيلة التي لم تكن تساوي أتعابه طيلة العام .. ورغم بعاضة الضرائب الظالمة التي أخذت قوت الضعفاء وما برحت تتراكم للشقاء والمجاعة ، رغم هذا فهو سعيد .. سعيد بأرضه الطيبة بأغنامه (..) بخيمته الحمراء .. بزوجته رقية الصناع مفخرة القرية في نسج البرانيس والزرابي (..) الذي أشجى كل أبناء عشيرته في لياليهم الباردة الطويلة لولاهم واحد حمله حناياه وكتمه عن كل مخلوف إلا عن الله الذي يتوسل له في كل صلاة وفي كل غدو ورواح ، ذلك الهم هو أن كل ما أنجبه بنات ، أما الذي يحمل اسمه ويحفظ ذكره العزيز الغالي ، فلم يأت بعد.

ومر خريف ، وذهب شتاء .. ثم أقبل ربيع فاخضرت الأرض من جديد ، ومع أزهارها كان قلب خليفة يطفح بالشر والأمل ، فقد رزق بطفل ،

فتحققت كل أمانيه وكثرت ألحان منه .. وملأ غريره بطاح القرية ، فتمايلت على وقعه أغصان وصبايا .

ومضت الأعوام وأصبح الطفل شابا مكتمل الفتوة ، وأصبح خليفة كهلا وقورا جادا لكنه يحب نايه ، وهذا عيبه الوحيد لدى شيوخ القرية .. وتلك كانت حياتهم لا جدة فيها ولا عبير ، حتى اهتزت الأرض ذات يوم حولهم وأصبح لون وطعم جديدان وتضاربت أنباء حولهم ، فإذا هم في ذهول يكادون أن لا يفهموا ما يقال لهم .. أهوال جسام هم مقبلون عليها ..

ما معنى أن يجتمع الرجال في الجبال ؟ .. إن تجمع البنادق .. ؟ أن تقفر القرى من الشباب .. ؟ هذا ما لا يجهله خليفة إذا جهله الآخرون .. اسألوه ليجيبكم لأجل أن يخرج "الروح" ، ويذهب " القوايد " و" القوارد " و" الجدارمية " من بلادنا .

هو يكرههم ، يتنمى قتلهم ، فهم يقيدونه يسلبونه إنتاج أرضه .. عرق جبينه .. يدوسون كرامته ، فاليوم يومهم ، يوم الخنازير وأذناب الخنازير .

وسار لهب الثورة في الطريق المرسوم .. وعم الوعي كل القلوب .. وأصبحت سمر السامرين من الشيوخ العجزة ، فالقرية أقفرت من غيرهم ، حتى قال شيخ راعيا .. فحدقته الأنظار الصلاة في استغراء وقسوة .. وحمل أحمد الصياد بندقيته الصغيرة عندما رأى طائرة تحوم حول التل القريب ، وقال سأسقطها ، فقال علي .. أيها الجاهل ، بعد شهر ستصبح لنا فلماذا نفسدها .. وسمع خليفة حديثهما ، فضحك للإيمان الساذج ، وقفل راجعا إلى خيمته حيث الموعد موعد لقائه مع المجاهدين ، وحذار أن تقول الثوار .. فهم مجاهدون في سبيل الله والوطن ، دعواته حبه كله أمانيه أصبحت تدعو لهم وحدهم بالنصر والنجاح .. فهو المسؤول الأول في القرية .. والمركز الأول للمجاهدين أيضا ، فأي شرف أكبر من هذا الشرف ، إنه يتحدى قائد من القوات وإذا بحثنا عن نايه سنجده دفينا في أعماق عزاره محرم عليه الغناء والجراح تنزف في كل صدر ، سيغني غدا عندما ترتفع البنود الخضراء حرة مع النسيم مشرقة مع أشعة الشمس .. بدل أن يراها في ظلام الليل وحده ، لكن أمله في رؤيتها خاب .. إذ جاء يوم أقبلت فيه القوافل العسكرية بالدبابات والطائرات والمدافع وجرت موقعة انسحب إثرها الأبطال مكللين بالنصر .. فلم يجد الأعداء سوى أن ينتقموا من العزل والضعفاء .. فتحولت القرية إلى مجزرة رهيبة سالت فيها دماء الأبرياء والنساء .

وكبل خليفة وولده الوحيد .. وخيرهما قائد الفرقة بين الاعتراف أو العذاب حتى الموت ، فهو يعلم أنهما المركز الوحيد " للفلاقة " ، ووعدهما بالإفراج والغنى إذا نطقا بالحقيقة وعرفاه بالمطامير التي يخزن فيها السلاح والحبوب والملابس للثوار ..

ونظر خليفة إلى ما حوله .. إلى السماء الزرقاء والفضاء الرحيب ، إلى ما وراء التلال حيث يعيش رجال عراة حفاة إلا من كساء إيمانهم ونور إرادتهم .. إلى الأرض الطيبة حيث أطلت السنابل تنتظر موسم الحصاد ، ثم إلى رائحة التراب الزاكية تملأ أنفه في قوة .. وبعدها رجع بصره إلى عيني ولده .. إلى وحيده الغالي الحبيب ، فوجد فيهما ضعفا واسكانة وخوفا ، وجد فيهما الهلع من المصير المنتظر والشوق إلى الحياة .. يا إلهي كيف يكون موقفه من الله ، من المجاهدين .. من الأرض التي لم تبخل يوما في العطاء وتطلع إلى ارتعاد وحيده ، ثم عاد فتوجه إلى الكابتن الفرنسي قائلا له ..

إنني أخشى أن أطلعك على الأسرار فيشي ابني هذا الفلاقة فيقتلوني، فاقتله حتى لا يخبرهم . وبرصاصة واحدة أردى مصطفى قتيلا أمام عيني أبيه السابحتين في الفضاء العريض ، وفكت قيوده ، وتوجه به إلى ثكنته ، وقال له الكابتن .. أنت الآن وحدك حرا ، فأطلعنا على كل شيء وستحفظ فرنسا سرك وترعاك وتغمرك بخرها ، فابتسم خليفة هازئا بالضابط الرومي الغبي ، قائلا له : أقتل ابني الوحيد لأجل أن أخبركم .. إننا قوم ، يا كابتن ، لا نخون الأمانة ، فكيف نخون الوطن ؟ فلم أقتله إلا لخوفي من ضعفه أمام وسائل العذاب الجهنمية ، فليغفر لي الله ، فيخون العهد الذي عاهدناه أمام الله ، فو الله لو مزقتموني قطعة قطعة ما بحت بشيء يمكن أن يمس شعرة من شعرهم ، فانشاط الفرنسي غضبا وصاح بجنوده : اقتلوه الكلب العجوز .

وبعد أعوام من استشهاده خفق العلم الجزائري فوق قبره حرا طليقا، وفي كل مساء أمام القبر الحفيد خليفة يعزف على ناي جده البطل ، الذي كل مساء ظل صامتا سبع سنوات كاملة أغنية الحرية والانتصار .


القسم الثاني :
المقالات

1 - أنقد أم فتن (*)

من أي بحر عصي الريح تطلبه إن كنت تبكي عليه نحن نكتبه
يا من يحدث في كل الأمور ولا يكاد يحسن أمرا أو يقربه

هذان البيتان للشاعر العربي المبدع أحمد عبد المعطي حجازي، يرد بهما على الناقد والمفكر الكبير عباس محمود العقاد ، عندما اعترض على مشاركة أحمد عبد المعطي حجازي وصلاح عبد الصبور سنة 1960 في مهرجان الشعر بدمشق ، وهدد بالاستقالة من المجلس الأعلى لرعاية الفنون، ولكن الشاعرين - إرضاء له - شاركا بقصائد عمودية ، وعرف عن العقاد أنه كان من أعنف وأشد الرافضين للشعر الحر ، وكان يؤشر على ما يقدمونه إليه بعبارة مشهورة جائرة " تحول إلى لجنة النثر للاختصاص "، وعلم أن العقاد كان في العشرينات من المتحمسين للتجديد في الشعر ، ومن الداعين الجادين لشكل شعري جديد ، ويتجلى هذا في موقفه من الشعر المرسل ؛ إذ طبل وصفق له طويلا، وتنبأ له بمستقبل رائع مؤكدا على أن الأذن العربية لن تطول وتألفه ، ويقبله الذوق العربي . إن الثورة على القافية تهيء لمذهب جديد في الشعر وتفسح الطريق للأدب من خلال شعر القوافي المرسلة أن يعرف شعر الرواية ، وشعر التمثيل ، متنبئا في الوقت ذاته بأن نفور آذان العرب من هذه القوافي لن تطول .

وقد أكد تقدم الزمن عدم صحة زعمه وادعائه ، إذ انتهى الشعر المرسل بموت رواده أمثال عبد الرحمن شكري ، والدكتور أحمد زكي أبو شادي وغيرهما ، وظهرت في أواخر الأربعينات قصيدة الشعر الحر ، متطورة من شكل القصيدة العمودية ، وداعية إلى الحرية في توزيع تفعيلات البحر حسب الدفقة الشعرية وحسب ما يتطلبه مضمون الشطر أو البيت . من هنا رأينا أبياتا ذات تفعيلتين ، وأخرى ذات أربعة ، وأخرى ثلاثة ؛ مثلا القصيدة من بحر الوافر ينبغي أن تجري على هذا النسق :

مفاعلتن فعولن
مفاعلتن مفاعلتن فعولن
مفاعلتن مفاعلتن فعولن

* - صدر هذا المقال في جريدة النصر بتاريخ 23 ديسمبر 1979 .

مفاعلتن فعولن [1].

غير أن هذا النظام الجديد قوبل بهجوم عنيف وسخط كبير من طرف بعض أدعياء الأدب والنقد مقدمين حججا واهية سقيمة مثلهم، ومروجين في الأوساط الثقافية أن هذا الشعر أمبريالي، وعدوان على الذوق العربي، ومحاولة لنسف هذا الجدار المنيع الذي ألصقوا عليه شهادة شرف واعتراف بالجميل. ورغم هذا الصراخ والاحتجاج، فإن القصيدة العربية واصلت سيرها، والكلاب تنبح؛ وظهرت مجموعات شعرية تؤكد أصالة هذا الشعر وأنه ابن البيئة العربية، وبين يوم الثلاثاء 27 تشرين الأول سنة 1947 ويوم الثلاثاء 11 ديسمبر 1979 عرفت القصيدة العربية الحديثة عدة إغارات، باءت جميعها بالفشل ومنيت بخسارة كبيرة، وفي كل مرة تثبت جدارتها وأصالتها العربية، وأنها تطور للتشكيل الموسيقي في العروض العربي ويؤكد هذا المجموعات الشعرية الكثيرة التي ظهرت خلال هذه الفترة، وظهرت روائع شعرية تقف إلى جانب المعلقات العشر، وروائع فحول العصر العباسي أمثال أبي الطيب المتنبي، وأبي العلاء المعري، والبحتري، وأبي تمام؛ كما ظهرت مسرحيات شعرية في قمة الروعة، أذكر منها: " بعد أن يموت الملك " لصلاح عبد الصبور، أو " العصفور الأحدب " لمحمد الماغوط.

ورغم هذا النجاح الباهر الذي حققته القصيدة العربية الحديثة، فإن بعض الغربان لا تزال تعاديها وتوجه إليها السباب والشتائم، وأصابع الاتهام.

ولدينا هذه المرة وقفة مع الأخ حسن خليفة الذي طرح في المدة الأخيرة فوق صفحات جريدتي النصر والشعب [2] آراء جديرة بالمناقشة؛ وسأحصر مناقشتي هذه المرة على موضوعه "قصائد لا تقول شيئا، ومصير الشعر الحر " [3].

يورد حسن خليفة في مقدمة موضوعه رأيا للشاعر عبد المعطي حجازي يفضح فيه الشعراء الذين خرجوا عن قواعد الشعر العربي المعروفة وزنا وقافية، وأريد أن أقف عند هذه الفقرة من إجابة عبد المعطي حجازي « فأصبحوا يكتبون قصيدة تدور حول الأشياء، تدور حول القواعد والأشجار وحول الكتب والحيطان والشوارع والسيارات »، ثم يقول « لكن قصيدة هؤلاء لا تبحث عن شيء »، والآن؟ نعرف أن الفترة الزمنية التي تلت النكسة تعتبر من أصعب الفترات وأحرجها في التاريخ

العربي ، وعادي جدا أن يسحب بعض الشعراء ثقتهم من المسؤولية العربية التي قادت الشرف العربي إلى هذا العار والتمزق .

ومن نتائج خيبة الأمل هذه ظهور بعض التصدعات في مواقف بعض الشعراء والمفكرين العرب ، فأعلن بعضهم التقوقع والإبحار في عوالم التراكيب اللغوية، وأنشأ لنفسه أبراجا يصعب الاقتراب منها ، وأبرز من يمثل هذا الاتجاه الشاعر السوري علي أحمد سعيد (أدونيس) ، خاصة في نتاجه الذي جاء بعد قصيدته الطويلة "نيويورك" .

وما آخذه على حسن خليفة أن إجابة حجازي لا تعبر عن مضمون هذا الكلام ، فحينما سئل الشاعر أحمد عبد المعطي حجازي - مرة - عن رأيه في المحاولات الشعرية التي تبنت الانفلات من القيود والقواعد الشعرية ، أجاب عبد المعطي حجازي بأنها لا تشير من قريب ولا من بعيد إلى الانفلات من القيود والقواعد الشعرية ، فهي توضح للقارئ فقط أثر الهزيمة على الشاعر العربي الذي لم يقو على تحمل هذه الهزيمة ، وأصيب بخيبة أمل ، فحول اهتمامه إلى التعبير عن أشياء قد تبدو تافهة للبعض ، لكنها ذات أبعاد عميقة ، وربما أنها تعكس صدق المرارة التي انتهى إليها الإنسان العربي ، وليس كل الشعراء العرب أصيبوا بالخيبة وسحبوا إيمانهم بالقضية العربية ؛ فهناك من واصل السير على الدرب يحث الإنسان العربي على اليقظة ويعيد إليه فحولته ويبدل تشاؤمه بالتفاؤل ، ومنهم عبد الوهاب البياتي ، وسليمان العيسى ، ومحمود درويش ، ومظفر النواب ، ومحمد علي شمس الدين . ومهما تكن صحة نسبة هذا الكلام لعبد المعطي حجازي ، نتيجة لهذه الهزيمة التي جعلت كل شيء يختلط بكل شيء وأوقعت الأجيال الجديدة في موقف عدم الفهم وعدم الوضوح ، وارتاحت وركنت إلى إدارة الظهر للوعي .

لا شك أن القارئ يلاحظ في هذا الكلام مبالغة لا نقبلها حتى من الشاعر نفسه ، ذلك لأنه مهما كانت الهزيمة مبكية ومدمرة ، فإن الواقع أكد لنا أن الإنسان العربي تعلم دروسا كثيرة من هذه الهزيمة ؛ فالتمزق والضياع يؤديان إلى هزيمة أشد وجعلته يتعرف على قياداته أكثر ويكتشف الصديق العادل ، والعدو الحقود . أما إذا كان حسن يقصد بتطور التشكيل الموسيقي في الشعر العربي الحديث خروجا عن نظام العروض العربي، فهذا ما لا نقبله منه ، ولا يعني مجرد تطوير العروض العربي انفلاتا من القيود والقواعد الشعرية، وإن الشعر ليس كلاما موزونا مقفى فقط ، بل هذا حد للشعر ولجام للإبداع ، ولا أعتقد أن القصيدة الحديثة ابنة غير شرعية ،

بل هي مولودة عربية صميمية ، نابعة من الواقع العربي ومعبرة عن مرحلة بكل أبعادها الاجتماعية والفنية ، وإن مقولة " ليس في الإمكان أبدع مما كان " خاطئة من أساسها، ومقولة جائرة ظالمة ، وإنها تقف ضد التطور الذي هو واقع مفروض علينا ، شئنا أم أبينا .

وقد مرت القصيدة العربية بعدة مراحل ، وإن كل مرحلة تتميز عن سابقتها بخصائص وفنيات ؛ فالقصيدة الجاهلية تختلف بدون شك ، من حيث المضمون والبناء ، عن قصيدة صدر الإسلام خاصة من حيث المضمون ، ولعلك تذكر معي أن الأعشى والنابغة - وهما شاعران جاهليان - قد تأثرا بالحياة الفارسية ، وضمنا أشعارهما مفردات فارسية ، وهذا الشاعر الجاهلي عدي بن زيد يقول :

من رأيت المنـون خلدن أم مـن ... ذا عليه من أن يضام خفير
أين كسرى ، كسرى الملوك أنوشر ... وأين أم أين قبله سابـــور
وبنو الأصفر الكرام ملوك الـــرو ... م لم يبق منهم مذكـــور
وأخو الحضر إذ بناه وإذ دجلــــه ... تحيى إليـه والخابـــــــور

فالشاعر عدي بن زيد قد ضمن شعره أسماء ملوك الفرس والروم ، وأشار كذلك إلى القصر الأخضر ؛ فالشعر يكون بالضرورة إنسانيا ، وإلا نسجت حوله العنكبوت خيوطا حديدية ، فيعلن عن فقره وإفلاسه .

ولعلك تذكر جيدا أن معظم الشعر العربي الجاهلي لم يتجاوز السبعة بحور كالكامل والطويل ، والوافر ، في حين بقيت بعض البحور مهملة وكذا سميت . ولما جاء العصر العباسي بكل خصائصه وشرائحه الاجتماعية والفنية ، ظهرت أوزان جديدة وأبدع أصحابها ؛ كما نظم الشعراء في مقلوبات البحور ، وكذا فعلوا مع البحور المهملة ؛ ومن الذين جددوا في العروض العربي الشاعر أبو العتاهية الذي أعلن حربا على العروض ، وقال بأنه أكبر من العروض ، ومن أمثلة الأوزان التي لم يعرفها الشعر العربي قبله ، يقول :

للمنون دائرات (ت) يدرن صرفها
هن ينتقيننـا ... واحدا فواحدا

وكذا طور الأندلسيون في العروض العربي وظهروا بالموشح، ولعلك توافقني في أن شكل الموشح يخالف شكل عروض الخليل ؛ ففي الموشح تحرر وانطلاق أكثر ، في حين أن عروض الخليل يمتاز بالتقيد والتعقيد ، والوزن والقافية يساهمان الشعر « إن الوزن والقافية لم يكونا في

يوم من أيام تاريخنا الشعري ، منذ العصر الجاهلي المتأخر حتى اليوم ، حائلا أو سدا يحول دون تسرب الثرثرة اللفظية والتفاهات الشكلية والصور الفجة إلى شعرنا القديم ، بدليل أن كل ما ورثناه تحت اسم "الشعر" وصل إلينا موزونا ومقفى ، ولكن الشعر فيه يشكل نسبته القليلة جدا قياسا إلى تراكماته الهائلة » (4) .

فالشعر الحر إذن ليس بدعة ، وليس موضة ، وليس تغييرا ، بل هو تطور ، والتطور من أهم شروط البقاء والتقدم البشري، وهو دلالة على الخصب والنماء ، وما تقبل الذوق العربي له إلا دلالة أكيدة على شرف نسبه ، يقول صلاح عبد الصبور عنه « مولود عربي صرف » . ورغم أن البعض من الذين لم يستطيعوا استيعاب ثقافة العصر واقتنعوا بالعيش على الموروث جيده ورديئه، وتعصبوا للقديم على أنه قديم فقط ، ونفروا من الحديث على أنه حديث فقط وراحوا يتهمون كل جديد بالغربية والعمالة ، وكأن هذا الغرب غيلان ، يجب أن نتجنبها ونبتعد عنها بقدر الإمكان، ونسوا أن الثقافة المنغلقة إذا نفذ زادها تأكل نفسها ؛ يقول الدكتور محمد غنيمي هلال عن استفادة الآداب من بعضها بعضا ، والضرر الذي يلحق الآداب التي تنطوي على نفسها ، والولاء الأعمى المرضي لكل ما هو سابق : « وفيها يزعم دعاة الوقوف عند القديم أن في الجديد خطرا على الموروث من أدبهم ، وقضاء على تقاليدهم ويفرقون بين الآداب وغيرها من العلوم ، أو المواد أو السلع ، ويرون أن تبادل هذه الأشياء مفيدة طبيعة ، كتبادل نظريات العلم، أما الآداب والفنون فهي وطنية محضة ، وفي نقلها قضاء عليها وخطر على قومية تنتقل إليهم ، وهذه فردية يكذبها واقع الآداب العالمية في عصورها المختلفة، فعصور النهضات هي عصور اتصال الأدب القومي بغيره من الآداب ، وإن عصور الانحطاط هي العصور التي ينطوي فيها الأدب على نفسه، فيكرر معانيه ويجترها ، حتى تصير مملولة من كتابها وقرائها على السواء »(5) .

ولعلمك - يا حسن - أن الشعر الحر هو فعلا شعر مغبون ، وأن الأوساط المبرمجة لم تتجرأ إلى حد الآن ، على إدراجه في البرامج التعليمية لتدريسه لتلاميذ التكميلي أو الثانوي على الأقل، من العار على هؤلاء أن يصل الطالب - خاصة عندنا - إلى المرحلة الجامعية وهو لا يعرف عن ثقافة عصره إلا القليل القليل ، في حين يحشونه بما ظهر في العصور المتقدمة ، ويزودنه بنصوص لا تعبر عن واقعه ولا عن آماله؛ فالطالب عندنا يعيش فعلا اغترابا ثقافيا حقيقيا ! وأريد الآن أن أتوقف قليلا عند هذه الفقرة : « كما جرى الحال عندنا خاصة في وصف كل صاحب رأي

جريء حر بأنه سلفي متخلف » ، أريد فقط أن أشير في البداية إلى مفهوم العصر ، وكيف يكون الإنسان معاصرا . يقول في مفهوم العصر والمعاصرة الدكتور زكي نجيب محمود : « ليس شيئا محددا يشار إليه بقولنا هذا هو، وإنما هو خضم من الأحداث والكائنات تتشابك حينا وتتفكك حينا .. وأقل درجات الحيطة والحذر تقتضينا أن لا نطلق التعميم الواحد يشمل أهل هذا العصر ليس واحدا للجميع ، فقد يعيش رجلان في محيط واحد وفي لحظة واحدة ، فإذا كل منهما قد انصرف بانتباهه إلى جانب غير الجانب الذي انصرف إليه زميله » .

فإذا اتفقنا على أن العصر هو فعلا خضم من الأحداث والمفاهيم، فإن الإنسان -لكي يعيش عصره بالضرورة - يجب أن يعيش روح العصر ويتفهم أبعاده ؛ فالتشبث بالماضي والتعلق به لا يفيدنا في كل شيء، ولا يقدم لنا إلا عصورا من الأطلال والبقايا ؛ فلنعش روح عصرنا أكثر ، ولنأخذ من تراثنا ما نحتاج إليه ، وما نستفيد منه .

والآن ، نتساءل : ما المقصود بأصحاب الرأي الجريء ، والذين اتهموا بالسلبية والتخلف ؟ لعلك تقصد مجموعة من الشعراء الشباب في بلادنا أمثال مصطفى محمد الغماري ومحمد بن رقطان ، وجمال الطاهري، وآخرين ؟ أليس كذلك ؟

إن هؤلاء - بصراحة - لا يمكن أن يسمح لأي إنسان بأن يلغيهم من الخريطة الشعرية الجزائرية ، وأنا شخصيا أعترف بمجهوداتهم ، وهذا لا يعني أنني أصفق لكل ما يكتبونه ، فأنا أصارحك فقط ، أن هؤلاء لا يعيشون أبعاد عصرهم .

فالعصرية خضم من الأحداث ، ومجالات ثلاثة : الزمني ، والثقافي، والفني ؛ فإذا كان هؤلاء يعيشون بيننا ، فهذا لا يعني أنهم ينتمون إلى هذا العصر ، لأن الشرطين الآخرين غير متوفرين؛ فهما ينتميان ثقافيا وفنيا إلى محطات زمنية موغلة ، « الشاعر الأكثر أصالة هو المنتمي إلى حركة المستقبل وليس إلى الماضي ، ولذا فإن أولئك الذين اختاروا الانتماء إلى الماضي من الشعراء ليسوا أكثر من مرتدين فاقدين الثقة بالمستقبل ، ليس على صعيد الشعر فحسب ، ولكن على صعيد الحياة نفسها ، ولهم أن يواصلوا هذه الردة ما شاؤوا ، فالحياة تتقدم »[6] .

ولن أوافق الشاعر مصطفى محمد الغماري الذي يقول عن الشعراء الشباب الذين يكتبون القصيدة الحرة إنهم يصدرون آراء غيرهم ، وأن شعرهم عبارة عن سلخ ومسخ لشعر محمود درويش وعبد الوهاب البياتي

« هناك تيار آخر من مميزاته الغرور والتبجح ومحاولة ركوب كل موجة مهما كانت سخيفة في التفكير والتعبير ، ومن أبرز ملامح هذا التيار روح الانتهازية ، والوصولية ، ومصادرة آراء الغير ؛ أما من الناحية الفنية ، فهو في الشعر دون هضم لمقومات يعتمد أساليب الشكل الحر ، هذا اللون من التعبير ، حيث نجد السلخ والمسخ واقتناص الصورة الشعرية من مصادرها الدرويشية أو البياتية » [7] . بعيدا عن المحاباة والإخوانية يا أيها الأدباء الجزائريون، بعيدا عن الشتائم ، يا أدعياء النضال والجهاد .

إن الشاعر الغماري يقصد ، من دون شك ، هؤلاء الشعراء : عبد العالي رزاقي ، محمد زتيلي ، أزراج عمر ، أحمد حمدي ، عبد الحميد شكيل . والآن ، أيعقل أن ينكر مجهود هؤلاء الشعراء ؟ أيعقل أن نحرق نتاجهم ؟ باسم ماذا ؟ ولماذا ؟ ثم أين الصدق الذي يتحلى به المؤمن؟ وكيف يسمح لنفسه بأن يعلن بأن هؤلاء يصادرون أفكار غيرهم ؟

لحد الآن ، نشرت الشركة الوطنية للنشر والتوزيع المجموعة الشعرية الأولى لأزراج عمر « وحرسني الظل » ، ومجموعة أحمد حمدي « انفجارات » ، ومجموعة عبد العالي رزاقي « الحب في درجة الصفر » . فكل شاعر من الذين يمثلون التيار الذي اتهمته بالمسخ لم يصدر له إلا عمل واحد، أدعو الإخوة القراء لقراءة حديث الغماري ، ثم يوازنون من يصادر آراء غيره ، وهل تصادر أفكاره وآراؤه فعلا أم لا ؟ يقول : « صدرت لي إلى الآن مجموعتان شعريتان، الأولى " أسرار الغربة " ، والثانية " نقش على ذاكرة الزمن " ، ولي تحت الطبع "أغنيات الورد والنار" ، و" قصائد مهاجرة " ، و" ألم وثورة " ، و" خضراء تشرق من طهران " » [8] .

الآن أطلب من حسن خليفة أن يجيبني : من الذي صودرت آراؤه ؟ وكيف يفهم الجرأة والحرية ؟

حسب مفهومي للحرية والجرأة ، فحرية القصيدة العربية تتجسد في تطوير شكل القصيدة العربية من نظام إلى نظام ، وحتى قصيدة النثر ليست حرة ، بل هي في واقع الأمر مقيدة بما يلي الموسيقى الداخلية الناتجة عن اختيار ألفاظ معينة منتقاة ، تحدث جرسا يشد السامع ويطربه .

تأكد أن الوزن ليس هو الفرق الأساسي بين الشعر والنثر ، وإلا اعتبرنا أن ألفية ابن مالك من روائع الشعر العربي ، وإنما الفرق بين الشعر واللاشعر هو كلمة " شعر " نفسها . ومن النقاط الجديرة بالمناقشة قول حسن « إنما هم أدعياء ، أو هم بتعبير أدق وأفصح نساخ يستعيرون

أساليب غيرهم لمعاني غيرهم ، فليس لهم من كتاباتهم إلا الإمضاء وكتابات هذه الزمرة أقرب إلى مواضيع إنشاء التلاميذ منها إلى ثمار القرائح ومبتكرات الأفكار » .

من السهل - يا حسن - أن نتهم الناس ، ونحط من شأنهم ، ونتغافل عن أعمالهم مهما كانت عظيمة ، ولكن تيقن أن هذا الكلام تعتبره كتب النقد مجرد ثرثرة وحذلقة ، وتعرف جيدا أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: « أبغضكم إلي الثرثارون المتفيقهون » . فالنقد ليس معناه الاستهزاء والسخرية ، إنما غربلة الأعمال الأدبية ، والفصل بين جيدها ورديئها ، ويساهم في تنشيط الحركة الأدبية ، ويتجه بها نحو المسار الصحيح لتطور المجتمع ، ونعرف جميعا أن حركتنا الأدبية تفتقر إلى حركة نقدية موازية تأخذ بيدها وترتفع بها إلى الأحسن، وأرى في حديثك عن غموض القصيدة العربية المعاصرة مبالغة كبيرة ، غير متوقعة من طالب جامعي ، لاحظ معي قولك « ومن هنا ، فلا عجب أبدا أن تقرأ قصيدة من تلك القصائد الثلاث عشرة مرة ، أو أكثر من ذلك من غير أن تهتدي إلى معنى يفهم أو مقصود يعرف » . عندما سأل أحدهم أبا تمام: لماذا تقول ما لا يفهم، أجاب: ولماذا لا تفهم ما يقال . والذي نستخلصه من إجابة أبي تمام أن الشعر ليس من مستوى الكلام العادي ، إن شئت هو مستوى كلامي من درجة أعلى ، ويعتمد السامع القارئ في فهم المعاني الشعرية وما يقصده الشاعر على ثقافته وذوقه؛ والشعر الذي يعتبر أداة النداء أساسا له والمباشرة والسطحية ليس شعرا، ويزول بسرعة.

فلنوازن بين هذين النموذجين ، الأول من قصيدة : " تائهة " للشاعرة الجزائرية مبروكة بوساحة ، تقول فيها :

في دروب من ظـلام وضبـاب وغيـوم
سـرت وحـدي لا حبيب لا نجـوم
كلما امتد طريقـي زدت بعدا عن وجودي
هل سأبقى أبدا أمشي بـلا وعد وقـصـد ؟

أقطع الأيام في الظلمة كالمسجون وحدي [9]

والنموذج الثاني من قصيدة " أشجار الإسمنت " للشاعر العربي أحمد عبد المعطي حجازي :

يقبل الوقت ويمضي
دون أن ينتقل الظل

وهذا شجر الإسمنت ينمو
كنبات الفطر
فلا موضع للعشب
ولا معنى لهذا المطر الدافق
فوق شجر المصمت
لا ينبت إلا صدا
أو طحلبا دون جذور (10)

فالبساطة وسذاجة التناول ميزة النموذج الأول ، في حين أن النموذج الثاني ينفرد بعمق الفكرة ودهشة المعالجة .

ليست كل القصائد التي لا نفهمها نهاجمها ونهاب قراءتها ، فالغموض قد يتحول أحيانا في بعض الأعمال إلى عامل فني ، وإلا فكيف نفسر كليلة ودمنة لعبد الله بن المقفع ، والغموض الذي يطغى على بعض قصائد الشاعر العربي أبي الطيب المتنبي ؛ نفهم من هذا أنه ليس كل ما لا نفهمه نلصق به صفة الغموض ونلاحقه . فعدم فهمنا لبعض الأعمال الفنية لا يعني أنها ضعيفة وبسيطة ، ولا يعني أبدا أن أصحابها غير موهوبين وليسوا مبدعين وماذا تقول عن "أزهار الشر " لشارل بودلير C. Baudelaire أليست شعرا ؟ وإليك مثلا قصيدة " الأرض الخراب " للشاعر الإنجليزي ت. س. إليوت T.S. Elliot ، التي يكاد يتفق معظم النقاد على أنها رائعة زمانها، لقد سخر إليوت كل مواهبه ليبدع هذه المجموعة الشعرية بطريقة جديدة خلابة يضع فيها كل مقدرته الفنية واللغوية ، وكل اطلاعاته الأدبية القديمة والحديثة وكل ما يستطيع من رموز وأساطير، ومن اقتباسات كبيرة بسبع لغات مختلفة، هي الانجليزية واللاتينية والإيطالية والألمانية والفرنسية واليونانية والسنسكريتية، ويشحنها بالرموز والأحاجي، وبالغموض الذي يتعذر النفاذ إلى ما وراءه، مستفيدا في كل ذلك من أسلوب مرشده الشاعر الأمريكي عزراباود الغامض المعتاد ، ومن آراء الكاتبة الإنجليزية جيسي ويستون في الرمزية الشعرية (11).

ومن مبالغاتك - يا حسن - قولك: « هي بلا شك تمثل آلاف القصائد التي تنشرها الصحف والمجلات، عدا ما تطرحه المطابع ، من مجاميع عديدة كل شهر ، بل كل يوم » . إن هذا الحكم يخالف الحقيقة كثيرا ، وإن نشاط الطباعة العربية ليس كما خيل إليك ، والحقيقة لا تؤكد زعمك وادعاءك ، فلا المجلات تنشر آلاف القصائد كل يوم ولا المطابع تصدر

المجموعات الشعرية كل يوم ، وخذ مثالا الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، فإن معدل ما تطبعه في السنة لا يزيد عن المجموعتين ، إن لم نقل أقل من ذلك.

والذي يقرأ كلامك « حق إنك لا تجد بين مئات الشعراء واحدا منفردا متميزا لا في القليل النادر يمكنه أن يستخلص أن هناك عددا كبيرا ممن يهتمون بالقصيدة الحديثة ويعبرون بواسطتها عن أفكارهم وأحاسيسهم، وليس بالضرورة أن يكون الجميع في مستوى عبد الوهاب البياتي أونزار قباني أو بدر شاكر السياب ، إنما فقط أنهم صادقوا الشعور » .

وجميعنا يعلم أن شعراء العصر العباسي ليسوا فقط المتنبي والمعري وبشارا وأبا نواس والبحتري وأبا تمام ، فهناك عدد كبير من الشعراء الذين لديهم نتاج لا يقل جودة عن نتاج هؤلاء ، لكنهم لم يستطيعوا أن يتجاوزوا بفنهم ، وظلوا ينهلون من التراث الشعري الجاهلي والأموي .

وتعلم أيضا أننالم نحكم على الشعر الجاهلي إلا من خلال المعلقات العشر وغرر القصائد ولا يمكننا أن ننكر أن هناك قصائد ضعيفة ركيكة ، والحكم نفسه يكمننا أن نمرره على الشعر الإسلامي والأموي والعباسي .

وهذا الحكم نفسه نمرره على الشعر العربي المعاصر ؛ إذ لا يجب علينا أن نحكم عليه من خلال النتاج الشعري الضعيف ، وإنما نحكم عليه من خلال كله ، وهل عبر عن العصر أم لا ؟ وما هي منابعه الاجتماعية ؟ ولماذا تقبله الذوق العربي ، ولم ينفر منه مثلما نفر من الشعر المرسل الذي انتهى بموت أصحابه ؟

وحول الظروف الاجتماعية التي نبع منها الشعر الحر ، تقول الشاعرة العراقية نازك الملائكة، وهي من رواده ، كما أنها أول من نظّر له ووضع له عروضا ، تقول : « ولعل الدليل على أن حركة الشعر الحر كانت مقصودة بضرورة اجتماعية محضة، هو أن محاولات روادها قد فشلت جميعا ، فما زال تيار الشعر الحر يشتد ويتلاطم حتى اضطر مؤتمر الأدباء العرب الثالث في القاهرة إلى أن يعترف به رسميا، ويدخله في أبحاثه الرئيسية ، وهل في وسع المهاجمات مهما قويت وأصرت أن تقتلع حركة انبعثت من صميم الظروف الاجتماعية للفرد العربي »[12].

ومن أبرز النقاط التي أريد مناقشتها هي قول حسن « ألا يدل ما نجده في شعرنا العربي من نماذج تفوق الحصر وتستعصي على الحد، إلى

أن شعراءنا يميلون إلى الاستجابة السريعة لكل دعوة ، وأنهم فوق ذلك يحتذون النماذج الغربية ويميلون إلى التقييد ميلا كبيرا »[13].

إن الذي يقرأ هذا الكلام يفهم منه أن جميع الشعراء العرب المعاصرين هم عبارة عن ظلال لشعراء الغرب ، وأن شعرهم عبارة عن ترجمات مشوهة لنماذج غربية . لكن الذي غاب عن علم حسن أن الشعر الفرنسي يمتاز بخصائص ومميزات عن الشعر الإنجليزي ، وأن شعر "شارل بودلير " ليس هو شعر "بيرون" ، وأن أدب "فيكتور هيجو" ليس هو أدب "شارل ديكنز" أو "ويليام شكسبير" ، وأن شعر "لويس أراغون" ليس هو شعر ت. س. إليوت الأمريكي الإنجليزي .

وهذا لا يعني أن الأدب الإنجليزي أو الفرنسي لم يؤثر أحدهما في الآخر ، بالعكس فالآداب تأخذ من بعضها البعض ، ولا غرابة في ذلك ، وليس من الإلحاد أن يستفيد الأدب العربي المعاصر من آداب الأمم الأخرى مثل الأدب الروسي والياباني والصيني، وقديما استفاد الأدب العربي من الأدب الفارسي واليوناني والهندي ؛ فالاستفادة ظاهرة صحية تدل على خصوبة الفكر العربي وعدم انطوائه وعزلته، وأنت يا حسن نفسك استفدت من آراء الشاعر الفرنسي " مالارميه " ، وهاجمت الشعر العربي ، وهذا الانقياد الأعمى ، إذ كيف تحاول إقحام آراء مالارميه لتطبقها على الشعر العربي ، وتيقن أن أقوال مالارميه تخصه وحده أولا ، والأدب الفرنسي ثانيا .

وفي قولك « وليس صدفة كذلك ألا يوجد بين الأغلبية الساحقة من الشعراء الأحرار شاعر واحد قرأ فلسفة العصور الحديثة أو القديمة قراءة دقيقة » نلمس دعوة لتفلسف الشعر وإنك تعيب على الشعراء المعاصرين أنهم لم يطلعوا على الآراء الفلسفية القديمة والحديثة أسألك أقرأت أنت الفلسفة القديمة والحديثة ؟ أقرأت كل ما كتبه أفلاطون وسقراط وأبيقور والفارابي والغزالي وابن رشد وهيجل وكانت ونيتشه وماركس، ومؤلفات الدكتور زكي نجيب محمود وعثمان أمين وأبي الأعلى المودودي ، وسيد قطب ومحمد عبده ؟ وقد تطول القائمة . أريد فقط أن أؤكد لك لا يوجد إنسان يستطيع أن يقرأ كل التراث الإنساني قديمه وحديثه ، ولو اقتصر على فن الشعر وحده .

ومن أبرز أحكامك المتسرعة أيضا أخذك برأي الدكتور يوسف عزالدين وتسليمك بآرائه ، وكأنها معصومة من الخطأ . فالدكتور يوسف عزالدين لديه كل الحرية لمعاداة الشعر الحر ، ولكن لدينا نحن أيضا كل

الحرية في أن ندافع عنه ؛ لأننا نرى روافده عربية نابعة من أعماق ثقافة عصرنا ومدعمة بماضٍ ثقافي ، وتأمل معي قول هذا الدكتور : « ولهذا فما يسمى الآن بالشعر الحر الذي كان يسمى مرسلا، وكان يسمى عصريا رسمي مركزا أكثر سيموت، لأن أكثر الذين ينظمون هذا الشعر هم من جيل سطحي الثقافة العربية الأصيلة الذين فقدوا الأذن الموسيقية » .

إن مثل هذا الكلام الصادر من إنسان يدعي الثقافة أولى بالسطحية والسذاجة، والأجدر به أن لا يتهم الناس، وهل يصدق أن عبد الوهاب البياتي وصلاح عبد الصبور ومحمد الفيتوري ونزار قباني ونازك الملائكة ... سطحيو الثقافة ؟ بالعكس ، فكل منهم مطلع على الثقافة الإنسانية ، وساهم كل منهم بقدر في إنماء هذه الثقافة ، ولعلمك أن عبد الوهاب البياتي قدمت حول شعره العديد من الرسائل والأطروحات الجامعية .

والنقطة الأخيرة التي أريد أن ألفت نظر حسن إليها أن نازك الملائكة لم تتراجع عن كتابة القصيدة الحرة، وأن ما أشيع حولها عبارة عن فقاعات بعض أدعياء الكتابة . وفرضا أن نازك تراجعت وسحبت عضويتها وصوتها ، أيعني هذا أن التاريخ توقف ؟ فنازك تمثل طرفا في الحركة الشعرية العربية المعاصرة ، وليس كل الجبهات ، وأن الأطراف الأخرى ستظل تقاوم .. وتقاوم. أحب أن أقول أولا أن تراجع الرائدة أو الرائد لا يكون دليلا على إفلاس الشعر الحر وخيبته وخذلانه، فكيف بالأمر إذا كانت الرائدة لم تتراجع مطلقا ؟ وإنما واصلت نظم الشعر الحر من سنة 1947 حتى اليوم بلا انقطاع ، « وإنه ليحزنني أن أصدم أنصار الشطرين - و منهم شعراء أحمل لهم التقدير والإعجاب - حين أصارحهم بأن الشعر الحر حبيب إلى نفسي ، وإنني سأمضي في نصرة مستمرة لا هوادة فيها » [14] .

وتؤكد نازك الملائكة أن الشعر الحر يصلح لمواقف آنية لا يصلح لها الشكل القديم أو العمودي ، تقول : « وأسلوب الشعر الحر قد ساعد على ذلك لأنني كنت أقف حيث يناسب المقام ، ولو كنت استعملت الوزن الخليلي الدارج لاضطررت إلى أن أضفي على القصيدة هيبة ورصانة وشكلية لا يقبلها الوقت، فالشعر الحر إذن مطلوب بالنسبة لموضوعات معينة ، وهذا شيء أكاد أثق منه بعد ست وعشرين سنة ... »[15] .

وفي الختام ، هناك ملاحظات بسيطة أسوقها بسرعة دون مناقشتها، تخص المنهجية . آخذ على حسن أنه لم يلتزم بالأمانة العلمية في كل اقتباساته واستشهاداته ، مثلا رأي الشاعر عبد المعطي حجازي، كان عليه أن يدلنا على أي مرجع أخذ منه هذا الرأي ، وكذلك رقم الصفحة التي نقل

منها ، وذلك للتسهيل على القارئ ، مساعدته على معرفة الحقيقة . وثاني ملاحظة أنني أنبه حسن أن يتجنب المبالغة التي لا تفيده وتسيء إليه مستقبلا وأن يكون موضوعيا في أحكامه ، ويتجنب التكرار في طرق المواضيع ؛ فأنا شخصيا أعتبر كتاباته كلها عبارة عن موضوع واحد بعناوين مختلفة ، يحشرها بسيل من التهم والشتائم .

هذه وقفة قصيرة وسريعة مع موضوع « قصائد لا تقول شيئا ومصير الشعر الحر » لحسن خليفة ، أملي أنني حاولت أن أقترب من الصواب، وهدفي الأول والأخير تنشيط الحركة الأدبية الشابة ومساعدتها على النماء والتطور.

الهوامـــش :

1 - نازك الملائكة ، قضايا الشعر المعاصر ، ط 3 ، منشورات مكتبة النهضة بيروت ، ص 68 .

2 - نشرت له صحيفة النصر مفهوم الحداثة ، أو هوامش في الصميم بتاريخ 9 نوفمبر 1979 وصحيفة الشعب خواطر أولى عن الغموض في القصيدة العربية الحديثة بتاريخ 4 ديسمبر 1979 .

3 - نشر بصحيفة النصر بتاريخ الخميس 6 ديسمبر 1967 ، ص 9 .

4 - الموقف الأدبي ، سوريا ، عدد 99 ، سنة 1979 ، ص 129 .

5 - محمد غنيمي هلال ، دور الأدب المقارن في توجيه دراسات الأدب العربي ، دار نهضة مصر للطباعة والنشر ، القاهرة ، ص 33 - 34 .

6 - خالد أبو خالد ، الموقف الأدبي ، سوريا ، العدد 102 ، سنة 1979، ص 145 .

7 - جريدة النصر ، 14 نوفمبر 1979 ، ص 9 .

8 - المرجع نفسه .

9 - مبروكة بوساحة ، ديوان "براعم" ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، ص 27 .

10 - جريدة الشعب ، الأربعاء 3 أكتوبر 1979 ، ص 11 .

11 - عيسى الناعوري ، أدباء من الشرق والغرب ، من الأدب المقارن، منشورات عويدات بيروت ، لبنان ، ص 158 .

12 - نازك الملائكة ، قضايا الشعر الحر ، منشورات مكتبة النهضة ، 1967 ، ص 42 .

13 - وردت في النص هكذا " تقليد " .

14 - الزهور ، ملحق الهلال ، أكتوبر 1973 ، حوار مع الشاعرة نازك الملائكة ، أجراه عبد العالي الحمامصي ، ص 20 .

15 - المرجع نفسه ، ص 22 .

2 - الشـاب الذي فـقد ظلـه (*)

طالعتنا جريدة النصر في يوم 26-04-1976 بقصة قصيرة للشاب عبد الحفيظ بوالطين بعنوان "الشاب الذي فقذ ظله " . وموضوع قصة الشاب الذي فقذ ظله ، شاب مثقف توكل والدته الأرملة أحد معارفها من الشيوخ ، ليعرض على ولدها رغبة أمه في زواجه من إحدى بنات القرية ، لكن الشاب يرفض لأنه قد وعد حبيبته أن لا يتزوج غيرها ، ثم تنازل عن رأيه ويتزوج الفتاة القروية التي ينتظر أنه يحبها كما أكدت له والدته " الحب يأتي مع الأولاد وطول العشرة يا بني " ، ولكن تجري الرياح بما لا تشتهي السفن ويتحول كل أمل إلى يأس واحتراق ومعاناة " يتألم في صمت ويمتص جراحه في أنواء " وأنجع طريقة يراها صاحب أقصوصة الشاب الذي فقد ظله، هي أن يرحل الشاب من بلده إلى بلد الضجيج والشقروات.

- معضلة اجتماعية :

إن معضلة الزواج تحتل مساحة كبيرة في حياتنا الاجتماعية ، إذ أغلبية فئاتنا المثقفة تتباين نظرتها نحو طريقة الزواج ، فهناك من يرى أن طريقة الحب هي أنجع الطرق لتكوين أسرة هادئة سعيدة ، وهناك من يفضل أن يترك زمام الأمور إلى الوالدين في اختيار شريكة له، والبعض يؤثر الزواج من بنات المدن ، لأنهن على دراية واسعة بحياة العصر ومطلعات على تحديث الأسرة والبعض الآخر يرى أن في بنات المدن فجورا وفسقا وطيشا وعنادا ، لذلك يؤثر أن يتزوج من بنات القرى لأنهن هادئات ، عاقلات ، ومطيعات لأزواجهن ، وهناك من يأمل أن تكون شريكة عمره ذات شهادة مهنية فيرتفع مرتبه ويفوز بادخار القرش الأبيض لليوم الأسود ، والحقيقة أن حياة الزوجية جد معقدة ، إذا دب السوس في جذورها ، وتكون جد بسيطة إذا سادها الوئام ، وروح التعاون والبناء المشترك المثمر .

ويفرض هذا السؤال وجوده ما هي حقيقة مضمون قصة الشاب الذي فقذ ظله ؟ ربما يقول البعض أنه شاب مثقف لذا يجب أن يتحرر من قيود وعادات المجتمع لأن أسرة قصة الشاب الذي فقد ظله هي كل أسرة جزائرية ، والبطل هو رمز للشباب الذي تجدرت فيه شحنة الغرب وسعي

---

* صدر هذا المقال بالملحق الثقافي لجريدة النصر بتاريخ 15 ماي سنة 1976 .

بين الشوارع العميقة يقذف نظراته سهاما ، وأقباسا في ذات الوجه المليح وذات الثوب القصير الذي كشف عن سيقان مكتنزة أنه الجري خلف الشقراوات في شوارع مدينة كثيرة الحانات ، والخمارات ، كثيرة الملاهي الشيطانية .

إننا لا نود في مثل هذه الحقائق التي تسلخنا عن كل مقوماتنا الروحية ، وعن كل عاداتنا وتقاليدنا التي ورثناها عن الأسلاف والأجداد .

إن المجتمع الذي يثور ضد التبعية الأجنبية كانت فكرية أو مادية ، فإنه المجتمع الخلاق البناء الذي يبعث في الجبناء شجاعة ، وفي الضعفاء قوة ويشيد البنيان المنيع وليس كما يقول عبد الحفيظ بوالطين أنه " المجتمع الذي يغتال نسيمات الأمل ويخنق وشوشة القلوب " .

إن بنات البشرة السمراء كثيرات كغيرهن من الشقراوات ، منهن الذكية المثقفة ، ومنهن الغبية الجاهلة ، ومنهن الفاسقة الفاجرة ، وذات الصلح والرشد ، هذه حقيقة لا يمكن أن ينكرها أي مجتمع ، وإن اختلفت نسبتها من مجتمع لآخر في نقاط كانتشارها هنا وهناك ، وذلك طبقا للمذهب والعقيدة لكني أثرت أن مثقفنا يبقى حر في اختيار شريكته ويقترن بمن يحب، لكن بشرط أن لا يطلق ابنة بلده ليرتمي بين أحضاء الشقروات وذوات العيون الزرقاء، والشعر الذهبي ، والحب ليس عندهن فقط " بعيدا ، بعيدا جدا إلى بلد الضجيج والشقروات عله يجد هناك ما ضاع منه " كما يقول صاحب القصة .

إنني يا أخي عبد الحفيظ بوالطين إن خيروني بأن أستمع إلى شتائم غريبة أو قريبة لاخترت شتائم الثانية مهما تكون ، وأحتمل عذابها وقسوتها وجفاءها ، لأني منها وهي فلذة مني ، ولأن ماضيها وحاضرها ومستقبلها أشترك فيهما معها . ولا يمكن أن تنكر ذلك ، وليست كما ترى أنها ملتصقة، ولا تشتهي ممارسة الغزل الحيواني ، والقبلات الطويلة « حاولت أن أجعلك امرأة ولكنك كنت ملتصقة بالتراب دست كثيرا على قلبي » والأم قد عانت آلام الحمل كثيرا ، وأوجاع الوضع كثيرا ، ومرارة الطفولة كثيرا ، فلم ننكر هذا الفضل ولم نتهرب من المسؤولية المشروعة نحوها ، إذا ما غزاها الوهن والضعف ، فلم كل هذا التهرب من الواجب حيث يقول على لسان بطل قصته « لأعيش مع من أحب ، ولأتخلص من مسؤولية أخوة صغار ، وأم منهوكة » .

وبطل القصة ذو نزعة مادية ، يمكن للقارئ أن يتعرف عليها مجرد قراءة الجمل الأولى " أخرج سيجارة فاخرة " كذلك عندما يعرض قيمة

المهر الذي يقدمه لحبيبته إذ يقول : "حبيبتي ؟ عندما نتزوج سيكون مهري مكتبة ومائة كتاب" .

إن قصة عبد الحفيظ بوالطين لم تعالج مشكلة الزواج عندنا أكثر مما زادته تعقيدا وغموضا ؛ لأنه لو كان كل شاب يودع مجتمعه دون أمل العودة إليه من أجل شقروات الحانات والخمارات الليلية ، لكان الوقع الأكبر، ولو بحث القاص عن نهاية لقصته خلافا لهذه النهاية " وحين كانت زوجته تقلب الورقة في حيرة ، كانت الطائرة تنزلق على أرضية المطار حاملة إياه بعيدا ، بعيدا جدا إلى بلد الضجيج والشقروات ، عله يجد هناك ما ضاع منه " لكان أحسن ، ولكان قد قدم شيئا مفيدا .

لكن لما كل هذا البعد ، ولما بلد الضجيج والشقروات بدلا من بلد الثورة والحوريات السمر ذوات العيون السوداء ، لما كل هذا الاسفار ، أمن أجل إشباع الغرائز .

أخيرا فإنني ألح بوجوب الابتعاد عن هذا اللون الذي لا خير فيه ، ولا قطرة ماء فيه ، علينا أن نردد مع الشاعر ماياكوفسكي وهو أحد شباب الثورة الروسية :

وبعد أن تكنس القديم
في قوقعة وحشية
سوف تجلجل في العالم
حكاية كوننا الجديد

3 - المقياس في الميزان (*)

نشرت جريدة النصر في صفحتها الثقافية عدد 1656 الصادر في 10 ربيع الأول 1397 الموافق لـ 28 / 2 / 1977 محاولة قصصية تحمل عنوان "المقياس"، كتبها الأديب الشاب لخضر عيكوس .

وبعد قراءتنا لهذه المحاولة مرات عديدة ، ارتأينا أن نقيمها ، إيمانا منا بأن محاولة تهذيب بعض الإنتاج الأدبي والفكري الذي تنشره صحافتنا ضرورة تفرضها متابعاتنا الدائمة لهذا الإنتاج .

ومحاولة المقياس عبارة عن ثلاثية الحدث :

- لقـاء
- زواج
- انفصـام

والحدث الأول - اللقاء - عبارة عن مشهد يلتقي فيه بطلا القصة ، بالشارع الكبير شارع فرنسا ، وبعد حذلقة ونظرة والتفاتة سريعة ، يتم التعارف بينهما ، وتبدأ جذور الحب تتأصل في أعماق قلبيهما ؛ وكأنهما كانا على موعد تحمله واجهات الشارع الكبير فرنسا .

هذا اللقاء الذي حدا بالبطلين أن يكونا شريطا من اللقاءات النرجسية،وانتهت تلك اللقاءات إلى اتفاق .

الحدث الثاني - الزواج - الذي تم بموافقة البطلين ، حيث واجه الشاب صعوبات مادية لم يأبه لها إذ حمل حبيبته في جولة لقضاء شهر العسل بمنطقة عنابة البحر والمدينة . وخلال مدة قضائهما شهر العسل اغترفا من ينابيع الحب وجداوله كؤوسا وردية ، واستمعـا

إلى أناشيد الأطيار والبلابل، ونعسا لمدة ساعات على رمال شاطئ عنابة المدينة، وقد شد انتباههما مشهد السفن العظيمة الراسية بالميناء والرافعات الكبيرة ، فصور لنا الكاتب كل هذا في الحوار التالي :

- لمن تلك السفن الراسية ؟
- للجزائر ، يا حبيبتي !
- ولمن هذه المصانع العالية ؟

---

* - صدر هذا المقال في جريدة النصر بتاريخ 21 مارس 1977 ، وقد أنجز بالاشتراك مع الزميل بشير كحيل .

- للجزائر ، يا حبيبتي !
- ولمن هذه الرافعات الآلية ؟
- للجزائر ، يا حبيبتي !

والحدث الثالث والأخير - الانفصام - الذي تم بين البطلين، ليكون المقياس فينومولوجيا هو السبب . انفصام كشف عن نوايا سميحة الزوجة ، تلكم النوايا المتمثلة في أنها ما كانت تريد الزواج منه لولا طمعها في ربح مقياس .

- المرفوض والمقبول في المقياس :

1 - المرفوض :

من خلال قراءتنا لمحاولة الأخ عيكوس ، استوقفتنا عدة عبارات ، من بينها :

- استدارت إلى ورائها ، والأفصح أن يقال : واستدارت أو التفتت إلى الخلف .

- وارتعشت شفتاها

- تكاثف لقاؤنا ، والأفصح أن يقال : تكرر لقاؤنا .

- إبان ، والأفصح أن يقال : وقت .

- تم زواجي بسميحة ، والأفصح أن يقال : تم زواجي من سميحة .

- ويقال الطيور والبلابل تشدو ألحان الجزائر البيضاء ، ولا يقال تعزف الطيور والبلابل ...

- غير هذا أفصح من قولك : فوق هذا .

2 - المقبول :

رغم ما أثبتناه سالفا من نقص هذا العمل الأدبي ، إلا أن هذا لا يمنعنا من أن نسجل له عبارات جديرة بالثناء :

- تأخذ من قلبه قطرة دم ، ومن مخه خلية تفكير .

- القارة الجديدة الثائرة (الحجار) .

- وها هم أبناء الثورة الحقيقيون يستثمرون ثرواتهم داخل أرضهم وبأيديهم الكريمة .

ـ وما أن انتهيت من شهر العسل مع سميحة ، حتى أحسست بكفي تقفر وتجدب كالأرض المالحة .

ـ مواقف في الميزان :

إلى جانب المقبول والمرفوض في هذا العمل الأدبي ، مواقف أوردها الكاتب يجدر بنا أن نتوقف قليلا عندها . فمثلا :

عندما كان رؤوف يعرف زوجته ـ سميحة ـ بكل ما تجهله عن المصانع والسفن الكبيرة والرافعات الآلية ، أثناء هذا المشهد الرائع ، كان محتضنا سميحة : « وأنا آنذاك أسير محتضنا خصرها الضيق العاري » ، نراه يعيد هذا المنظر نفسه تقريبا ، وذلك في قوله : « واستطردت أحكي لسميحة عن الجزائر وأنا أضمها إلى صدري ، ونحن ندور دنيا الحجار» .

ورأينا أن هذا التعري والخلع أمام وجه الثورة يتعارض مع الواقع ؛ إذ المعلوم أن الإنسان عندما يكون في حالة انبهار ، وقد أخذت لبه قداسة هذا الوجه ـ أي وجه الثورة ـ لا يتأتى له إلا أن يقف وقفة إجلال وإكبار .

وسميحة ـ الزوجة ـ كما يحدثنا الكاتب هي زوجة عاملة ، وبالتالي فهي إن لم تكن مثقفة فهي متعلمة ؛ واستنادا إلى ذلك فإنها حتما ستكون على دراية بمنجزات الثورة، وحتى وإن لم تكن كذلك ، فهي داخل مجتمع يعيش إحداث وطنه ، خاصة لما انتشرت الوسائل الإعلامية : تلفزة ، إذاعة ، صحف ...

وإذا قمنا بتحليل بسيط لمواقف هذه الزوجة ، فإننا نلحظ أن سميحة ـ الزوجة ـ نموذج رائع لفتاة تخمرت جيدا وانجرفت انجرافا مهولا متأثرة بماديات وأفكار غربية ، وهي امرأة ساخرة متعثرة في أسلوبها ومعاملاتها :

ـ أليس لديك نقود ، وأنت في جزائرك البيضاء ؟ فأنت من أصحاب البطون الصغيرة التي تشبعها قطعة خبز وجرعة ماء ، أنت من أنصار الفقراء والطبقة الشغيلة ، بل أنت من أنصار الثورة !!

فسميحة رفض غاضب لمبادئ الثورة وعصف ريح قالعة لنداءات المساواة والعدالة ، وهذا تعرٍّ جلي لهاته الإنسانة التي ما كانت لتكمل طريقها المزيف لولا تخاذل الزوج -رؤوف- الذي نذكر بعض مواقفه المرفوضة :

ـ تأنيبه لنفسه بالرغم من موقفه المتخاذل وإصراره على أن يدفع بنفسه إلى هوة عميقة ، تمثلت في أن يستلف نقودا ليشتري المقياس .

- انهزام البطل أمام تعري هذه الإنسانة وتهورها وإبحارها العميق جريا وراء إشباع رغباتها الفضفاضة دون النظر إلى ما سيؤول إليه حال زوجها ، ومن اللامعقول تلك العودة المرفوضة إلى مركب الحجار من مدينة الهواء العتيق ؛ إذ نعلم أن البطلين كانا بعنابة ، ولم ينتبها لزيارة الحجار إلا بعد أن عادا ثانية إلى مدينة الهواء؛ وكأنهما لا يعلمان بأن الحجار درة بجيد عنابة المدينة العذراء !!

4 - رأي الأديب عبد الله بن الضيف في قصة " من البطل ؟ " للأديبة المرحومة زليخة السعودي (*)

نحاول في هذه المرة أن نقدم لقراء الجريدة راي الأديب الجزائري الموهوب عبد الله بن الضيف ، الذي ظهر في منتصف الستينات ، وأشتهر لفترة بنتاجه القصصي والشعري ، وكتابة المقالات النقدية .

ولسنا ندري أسباب توقف هذا الأديب الموهوب عن النشر لمدة طويلة ، ونتاجه الأدبي يتوزع بين مجلة آمال ، وجريدة الشعب ، ومجلة الشباب .

ومقالته التي نحن بصدد تقديمها تناول فيها قصة من البطل ؟ للأديبة المرحومة زليخة السعودي المنشورة بمجلة آمال العدد الأول الصادر في شهر أفريل عام 1969 ، وقد نشر هذه المقالة النقدية في مجلة المجاهد الأسبوعي الأحد 29 أفريل 1969 ، العدد 462 ، وقد صدرت هذا المقال هيئة تحرير مجلة المجاهد الأسبوعي بتقديم ورد فيه : « تلقينا في هذا الأسبوع موضوعا نقديا من الأخ عبد الله بن الضيف ، لقصة : من البطل ؟ ... لزليخة السعودي التي نشرت بالعدد الأول من مجلة آمال .. وهذه بادرة صحية تبين لنا اهتمام القراء والمثقفين ببلادنا بكل الإنتاجات التي تنشر سواء في الصحف اليومية أو الأسبوعية ، وفي المجالات الأدبية بمجلة آمال، كما تبين أيضا أن هناك رصيد لا بأس به من الكتاب الناشئين الذين لم يجدوا من قبل مجالا شاسعا للتنفس حتى ظهرت مجلة آمال التي خصصت لأدب الناشئين وعمل كهذا لن يكون له الأثر المطلوب ما لم يكن هناك نقد وتوجيه ومناقشة بين القراء والكتاب أنفسهم حول ما ينشر هنا وهناك من قصة وشعر ومسرحية ».

وفي بداية المقال النقدي الذي احتفظ بعنوان قصة زليخة السعودي يعبر الأديب عبد الله بن الضيف عن شوقه لموعد صدور مجلة آمال التي أعلن عنها في مختلف الصحف الوطنية ، ثم يقول أنه سوف يتوقف عند أول

* - صدر هذا المقال في جريدة النصر بتاريخ 19 مارس سنة 1981 .

قصة نشرت في العدد الأول ، ويعترف بشدة اعجابه بهذه القصة التي احتوت على كثير من عناصر النجاح « أما كتابتي هذه فسوف تتناول أول قصة في العدد ... جذبتني ، وجعلتني أقرأها مرتين بالرغم من أنني متشوق إلى مطالعة بقية ما نشر في هذه المجلة » .

ولكي يستطيع عبد الله بن الضيف أن ينقل للقارئ الموضوع الذي تعالجه القصة ، فإنه يعمد إلى تلخيصها بسرعة ، وهذه الطريقة محاولة لإعادة تركيب العمل الأدبي بسرعة ، بهدف اقتراب القارئ منه ، ويعلق الناقد عن بطل القصة ، الأخضر ،ن زوج ربيعة ، فيقول : « إنه ذلك الإنسان الناقم على الحياة عندما تكشر بأنيابها لتبدي القسوة على الانسان ، وتصور لنا الكاتبة الشوق والحنين على أرض الوطن » .

ويرى الأديب عبد الله بن الضيف أن القاصة زليخة قد اشتغل اهتمامها بنقل المآسي وعذابات الانسان الجزائري حيزا كبيرا من القصة ، فهي تهتم بجزئيات أسرة الأخضر الزوج المهاجر ، وتنقلات زوجته ربيعة، وأيضا مشكلة الزواج التي تتم دون استشارة أي طرف « وتسهب الكاتبة في وصف المآسي ، وهي مشكورة على هذا .

لولا أنها أسرفت في الواقعية ! .. فهي تصور الأسرة التي ذكرها الأخضر وهي أم وزوجة وولدين .. ثم هناك مشاكل حصرتها الكاتبة كالزواج دون الرضاء .. » ويعلق عبد الله بن الضيف عن هذا الاسراف في تصوير الواقع ولاهتمام بحيثياته ، يقول : « كم أشفقت عليها من هذا الخلل الذي كاد يؤدي بالقصة إلى منهج المقالة التحليلية ، لكن بمقدرة فنية ، لوحظت الكاتبة ، وهي تتخلص بسرعة من عقدة إلى عقدة .. وكأن ذلك بواسطة الاخبار التي حملها الطيب إلى ربيعة ، المسكينة ... »

ويرى الأخ عبد الله بن الضيف أن قصة من البطل للأديبة زليخة السعودي تحتوي على إشارات ذكية لبعض الأمراض الاجتماعية كالفسق والخيانة « وهناك أيضا في القصة عنصر الفسق واللاوطنية المتمثلين في الفتاة الإسبانية التي لا تقيم وزنا لمعنى الوطن » .

ويعتبر الكاتب أن الأديبة زليخة السعودي قد وظفت بدايات الثورة الجزائرية المباركة بشكل مدهش وفنية عالية .

فالشعور الوطني تفتحت له أبواب قلوب المخلصين للإنسان والوطن وأخبار مسار الثورة بدأت تبشر بالمستقبل الخصيب بأعياد الفرح .

ويعتبر العجوز أمنة وجدة الأخضر العامل الجزائري المغترب في فرنسا رمزا لموت فترة من الزمن ، أنه زمن الطغيان والاغتيال والدياجير ، - تمهدي الثورة والقضاء على الاستعمار تموت العجوزة ، وأظن أن هذا رمزا لفترة من الزمن ماتت في ذلك الوقت .

وإلى هنا تبدأ حلاوة القصة مع بداية الثورة في - جلال - أي بدأت ربيعة تفهم كلمات اسمها - الاستقلال - والحرية ...

وطريقة عرض الكاتبة للمد الثوري في صفوف شعبنا ، وانتشار الشعور الوطني ، وإيمان كل فرد بمسؤولية اتجاه تحرير الوطن ، وتخليصه من مخالب الصقور ، ونقل الثورة إلى أماكن خلف الحدود والبحار « ولكم أنا معجب أشد الاعجاب بوصف الأخت الكاتبة للمد الثوري الذي شمل قلب - ربيعة - في قريتها وبتعبير فني جذاب وخفيف انتقلت بالثورة إلى ما وراء البحار .. »

ولا يخفي عبد الله بن الضيف إعجابه الشديد بذكاء القاصة حين نقلت مكان المعركة من أرض الوطن إلى قلب بلاد المستعمر ، واختار الأخضر الذي يمثل الطبقة الشغيلة التي عانت الغربة القاتلة ، والضياع وعانى من الصقيع الكثير « إلى المهجر الذي حيث هناك أبناء هذا الوطن يعيشون وفي الأصل يعتبرون - الأم الحرمان والطرد من العمل ، فاختارت الكاتبة مكانا مناسبا للثورة ، وهو مكان عمل العمال ! » وعن اختيار المرحومة زليخة السعودي لشخصية - الحاج أحمد - كرمز للخيانة الوطنية والتواطؤ مع الاستعمار ، فإن الناقد يرى لو أنها اختارت شخصية أخرى لكان أفضل « وتفاجئنا الأخت الكاتبة بمنصر الخيانة المتمثل في - الحاج أحمد - وكان من الأفضل لو أنها اختارت اسما بدلا من أحمد ، لأن القصة لا تشبه الحكاية الواقعية ! »

وعن الصور الايحائية التي ضمنتها الأديبة زليخة عبارات أو جمل قصتها ، فإن الناقد يختلف معها في توظيف هذا الأسلوب ، ويتهمه بالغموض « وكان من الأفضل لو تجنبت الأخت الغموض ، إن كانت تقصده كما يحلو لبعض الكتاب ، وهذه هي الكمات الغامضة - من لا يملك مقومات الحياة عبثت به الحياة » .

ويختلف معها أيضا عندما وصفت وصفا مباشرا عساكر العدو بالدناءة والحقارة ، ويرى أنها لو تركت لحوادث القصة فرصة التعبير وتصوير الوقاحة التي يمتاز بها العسكري لكان أفضل ، خاصة من الناحية الفنية التي هي حصن أية قصة ناجحة « لا داعي كما أرى لأن تكون

الكاتبة صاحبة رأي في هؤلاء العساكر ، مادامت أعمالهم الدنيئة شهادة للقارئ على صفاتهم اللاأخلاقية ، فتتركنا نكرههم من خلال القصة خير من أن تجبرنا على كرههم وهذا هو النجاح القصصي للكتاب كما نعرف » .

وحول ترديد الأديبة زليخة لكلمة - رفاق - فإن الناقد عبد الله بن الضيف يخالفها في توظيف هذه الكلمة التي تحمل مدلولات ايديولوجية ، وقد كان المجاهدون أثناء الثورة التحريرية يوظفون كلمة - أخ - يقول وهناك ملاحظة أردت أن أبديها للأخت : « هي الاكثار من ترديد كلمة - رفيق - ورفاق ، وأهملت كلمة يرددها الثوار الجزائريون وهي - الأخ - فلم نذكرها إلا مرة واحدة في قصة قصيرة ، استهلكت زهاء 25 صفحة من الورق المتوسط .

وفي ختام مقالته يرى الزميل عبد الله بن الضيف أن للواقعية التي تعاملت معها الأديبة زليخة السعودي متأثرة فيها بواقعية بعض الكتاب الروس « ومع ملاحظتي للواقعية التي تسود القصة في بعض المواطن خطر لي أن الكاتبة متأثرة ببعض الكتاب الروس » .

وحول توفيق القاصة في اختيار عنوان " من البطل ؟ " لقصتها ، فإن الناقد يرى أنها أخفقت ولم تحسن اختيار العنوان ، لأنه يدفعنا إلى نقاش طويل ، ومغالطات كثيرة حول من البطل أهي ربيعة - الزوجة أم الأخضر الذي قتل وهو الفرار بعد تأدية لواجبه الوطني حين اشعل النار في معمل فرنسي رفقة زملائه الثوار الذين اختاروا فرنسا ميدانا لكفاحهم ضد الاستعمار وظلمه ، ويرى أنها لو اختارت عنوانا آخر لقصتها لكان أفضل ، يقول « وكان من الأفضل لو جاء العنوان غير هذا التساؤل ، لأن ذلك يجرنا إلى فلسفة ونقاش طويل » .

وفي الختام لا بد لنا أن نشير إلى أن إعجاب الناقد عبد الله بن الضيف بقصة من البطل؟ للأديبة المرحومة : زليخة السعودي لم يمنعه من احترام مبادئ وقواعد النقد ، وتعامل مع هذه القصة بروح نقدية عالية ، وهذا يدفعنا إلى أن نكرر تساؤلنا عن غياب هذا الأديب الموهوب عن الساحة الأدبية طوال هذه المدة الطويلة ، أما توجد لها نهاية يا عبد الله ؟!

ختاما أجدد شكري لجريدتنا النصر التي أمدتنا بكل الرعاية والمساعدة ، ونتمنى لها دوام التطور .

5 - جسر المعاناة ..(*)

إن الأدب الذي يبقى هو الأدب الذي يحي مرحلته ويتوغل في دقائقها ليكون المشاهد والمعبر عن مدى تأثيره على المراحل اللاحقة / عبد الرحمن مجيد الربيعي .

طالعتنا جريدة النصر يوم الاثنين 3 مارس 1980 عدد 2579 في الصفحة العاشرة بأقصوصة ، جسر المعاناة - للسيد سليماني مختار.

قرأت هذه القصة عدة مرات ، وفي كل مرة كنت أردد هذا المثل المتداول كثيرا (يوجد في النهر ما لا يوجد في البحر) .

أعتبر هذه الاقصوصة غيمة منذرة بموهبة خصبة ، وإضافة جيدة لموروث القصة الجزائرية الواعية والناضحة .

يقدم لنا القاص سليماني مختار في أقصوصته ، جسر المعاناة ظاهرة الانتحار والتخلص من عبث الوقت وزيف الوضع .

أثناء سير البطل في اتجاه الجسر لينفذ ماعزم عليه ، ويهرب من عفونة الواقع وصخب الوقت يقدم لنا البطل الأسباب والدوافع التي اضطرته على اختيار الموت بهذه الطريقة ، وذلك باستخدام القاص تقنية - الفلاش باك ، أي استحضار الماضي ، واستدعاء وقائع الماضي للعيش في الزمن الحاضر ، ومن خلال هذه التقنية الحديثة والجميلة ، والتي لا أشك في أن القاص قد أحسن استعمالها وأبدع حقا في توظيفها فقد عرض لنا بواسطتها الغول الذي طارد البطل ، واضطره إلى الانتحار . ويمكن لنا أن نجمل هذه الدوافع في النقاط التالية :

1 - أن بطل الأقصوصة - وهو في طريقه نحو الجسر - يمتد به بصره نحو الأفق، ويستعين بخياله لاستحضار أشياء وأول هذه الدوافع : سخرية الزمن منه ويبرز هذه النقطة قول القاص " فضرب به خياله إلى الآفاق واستعاد سخرية الزمن منه " .

2 - خيبة البطل وفشله في عدة مواقف حياتية ، ويمكننا هنا أن نرد هذا الإحباط إلى أن البطل بلغ به اليأس إلى أقصى مدى ، فبعد أن فتش وجرى

---

* - صدر هذا المقال في جريدة النصر بتاريخ 12 أفريل سنة 1980 .

لم يصل إلى ما كان يريده لذا تراءت له كل الكائنات عبارة عن سراب يخدع، يقول القاص : " فعرف في نهاية المطاف أنه كان وراء سراب تراءى له يوما فظنه بصيص أمل حاول بلوغه دون جدوى " .

3 - أن البطل مر بفترة قطع خلالها صلته بمن حوله من الموجودات ، فأحس بالاغتراب القاتل، واعتقد أن البطل كان متوهما حين ذكره القاص أنه استغاث بمن حوله من أقارب وأصدقاء ومعارف ، لكن هؤلاء جميعهم ولوا عنه وتنكروا له ، ولم يتعاملوا معه ، فالمجتمع هو بالتأكيد الدافع الرئيسي لانتحار البطل ، كما أننا نكتشف أن الطبل قد مر بعاصفة من الحزن العميق والألام ، وصدمات متلاحقة ، فهو في رأي القاص مرغم على ما سيفعله ، يقول القاص : "وطوال أحد المعاناة لم يجد أحدا يقف بجانبه أو يقول له كلمة تخفف عنه عبئا ثقيلا ، جعل حياته حزنا دائما ، وآلاما جارحة وصدمات متوالية " .

4 - رغم أن البطل لم يفقد تمام وعيه عندما وصل إلى الجسر ، فإنه لا يزال مصرا على التملص والهروب من الواقع ، وكان يتطلع إلى كون أرحب مملوء بالحسن والبراءة ، وهذا في رأيي أهم عامل في دفع البطل للانتحار .

فالإنسان عندما يصير يرى كل شيء عبثا ، ويشعر بعدمية الكل ، ويترك اليأس يستولي على كل حياته ، ويوجه اهتمامه إلى العالم الخفي ، فيجد فيه الدفء والحنان ، فهو المكان الذي يمكنه من كل السعادة ، ويوصله إلى كل تطلع ، فهذه المرحلة التي اعتبرها دافعا هاما في مثل هذه الحالات ، وأثناءها لا شك أن الإنسان يمارس البطولة بكل أبعادها الحضارية والإنسانية ، إذ من الصعب أن يقدم الإنسان على اختيار طريقة لينهي بواسطتها حياته ، ويوقف حدا لهذا الغول الذي يلاحقه "وبدا على وجهه وكأنه يصغي إلى همس يناجيه ويناديه من أسفل الجسر ، من الغور السحيق، كأن شيئا يجذبه والقى بنفسه " .

هذه هي نهاية البطل ... لقد اختار أن يموت منتحرا تحت تأثير ظروف خاصة ، وتحت ضربات الواقع الحادة .

والقاص لا أشك أنه قد تأثر تأثرا عميقا بالحوادث التي تتكرر في كل سنة عدة مرات خاصة بالعمليات الانتحارية المؤلمة والمؤسفة في مدينة قسنطينة ، وربما من هنا استوحى موضوع أقصوصته ، وحاول أن يضم صوته لهؤلاء الأبطال الذين حطموا الأسواراواختاروا مصيرا لهم .

والقاص قد أحسن اختيار ميدان حدث أقصوصته ، وهذه النقطة الجيدة تسجل له ، فاختيار الأماكن أراه ليس من السهل كما يتوقع البعض .

والزمن في الأقصوصة بدون شك أنه لصالح الأقصوصة ، فاختيار الليل قد ساعد البطل كثيرا ، ومهد له التحديق في الماضي بأعين مفتوحة ، وترك العنان لخياله ليصور واقعه ، كما أن هوة الجسر بمثابة دعوة للاحتضان .

وزمن العثور على جثة البطل والوضعية التي يعليها موفقة توفيقا جيدا ، فالصباح بنصاعته يعطي الحقيقة للإنسان ، لذا فليس من الغريب أن يكشف المارة جثة الشاب ، وهي مدرجة بالدم .

- وقفة عند نهاية القصة :

لا أريد أن أتدخل في حرية القاص ، وأفرض عليه نهاية معينة، فقط أنا ضد هذه النهايات السلبية ، انطلاقا من هذا كنت أود لو حاول القاص أن يجعل نهاية أقصوصته هذه العبارة : " ثم نهض وكأن شيئا يجذبه ، وألقى بنفسه كأنما صرخة انبعثت لتشق طريقها في سكون الليل" .

وأعتقد أن هذه النهاية لا تفرض على القارئ موت البطل على الأقل، بل تترك له حرية قتله ، أو إحيائه ، ليقف أكثر ، ويقاوم أكثر ، ويغير أكثر من الواقع الذي أقهره ، وأعتبر العبارة التي انهى بها القاص أقصوصته زائدة ، وكان بإمكانه أن يكتفي بالنهاية السابقة التي هي أكثر إيحاء .

ومن النقاط الجيدة أن القاص قد حافظ على التركيز ، والتكثيف، وأجاد في وحدة الموضوع ، وأن لغته لا شك أنها تنم عن قدرة لإنشاء علاقات لغوية أحسن ولا شك أن القاص يمتلك موهبة قصصية تسمح له أن يقدم إضافات جيدة وجديدة للقصة الجزائرية القصيرة ، ولحركتنا الأدبية الطالعة .

6 - حــول " قصة الانتقام " (*)

أولت الصفحة الثقافية لجريدة النصر في المدة الأخيرة اهتماما كبيرا بمختلف الأشكال الإبداعية : قصة ، شعرا ، ودراسات . وللحقيقة أقول أن هذه الظاهرة صحية ، وتبشر بأن الجريدة عاقدة العزم على إيجاد أرضية ثقافية حميمية نابعة من عمق المعاصرة واهتماماتنا الآنية ، وما نتمناه لها أن تواصل نفس الإرادة والعزيمة نحو تحقيق ملحق ثقافي أسبوعي قصد المساهمة الفعالة في القضاء على هموم النشر التي يعاني منها كل كتابنا .

وأثناء هذا التحول الخصب قدمت الصفحة الثقافية عدة أسماء واعدة سيكون لها الشأن في ثقافتنا المعاصرة ، إذا واصلت وعمقت تجربتها بالقراءة والممارسة ، ولدينا هذه المرة وقفة قصيرة مع قصة الانتقام للأخ سليماني مختار المنشورة ي الصفحة الثقافية العدد 2588 الصادر يوم الخميس 10 أبريل 1980 والقاص سليماني مختار سبق لنا أن قرأنا قصته جسر المعاناة منذ أيام قليلة ، وأنذاك تأكد لنا أننا ننتظر منه الأحسن لما تحتوي قصته على موهبة أدبية وتمكنا في اللغة .

وقصته الانتقام تؤكد أنه يهتم بالقضايا الاجتماعية التي يعيشها مجتمعنا من صراع بين ثقافات وأجيال ، فإذا كان بطل قصته " جسر المعاناة " شابا انهزاميا انتشل نفسه من وحل الظروف والمجتمع بواسطة عملية انتحارية ، فإن بطل قصته الانتقام يمثل جيل الشيوخ ، وهذا الجيل غالبا ما يكون هدف اتهام من طرف جيل الشباب وذلك لما يحمل في أعماقه من قهر ولائي يمارسه ضد الأبناء .

فالقاص يقدم لنا سي عمر بطل قصته راكبا في الحافلة متجها نحو المدينة بهدف أن يثأر لشرفه ولشرف قريته .

وأثناء مدة السفر بين القرية والمدينة يقدم القاص لنا :

1- قضية غربية هي محور حديث الجميع ، وكل ينظر إليها من رؤية خاصة نفعية لا تعبر عن تلاحم إنساني لقهر الظلم واغتيال الاستبداد يقول القاص : وهل نعتقد أن السوفيات أفضل من الولايات المتحدة ؟

- طبعا

- كيف ذلك ؟

- لنأخذ قضية فلسطين ، حتى الذي يؤيدهم قولا وفعلا ؟

---

* - صدر هذا المقال في جريدة النصر بتاريخ 20 أفريل سنة 1980 .

- لكنها قضية مصالح

- فأيده شاب ثالث :

- طبعا ، أنه الطمع في بترول العرب .

فالقاص يطرح لنا من خلال هذا الحوار القصير قضية عربية كل يوم تتعرض لأبشع المسخ والتشويه ، ورغم صخب المناقشة فإن - سي عمر - يسافر ، يرحل به خياله إلى ذاكرة الماضي ، الماضي الذي يحتفظ له بكل الصور ، ها هي الآن أمام عينيه كما عاشها ، منذ سنين مضت . عاد مرة إلى بيته ، فتستقبله ابنته بابتسامة ، ثم ينبئها أن صديقه - سي الباهي - قد أرادها إلى ابنه زوجة ترافقه رحلة الحب والأسى ، لكنها لم تبد رأيها ، فهي تحب ابن الشيخ حسين الذي ذهب إلى فرنسا ليعمل ويرجع بالجاه والمال ثم يتزوجها ، أنه فجرها القادم ، وها هي الآن تقف عارية أمام مرآة والدها الذي يجهل هذه العلاقة يزف لها خبر زواجها بمن ليس لها فيه رغبة ، ولا مودة ، وفي الليل ، ولما يغرق الوالد في نوم عميق ، تتسلل وتختفي ، وعندما يستيقظ -سي عمر- لم يجد ابنته فطومة ، فيسأل جارته عنها - صالحة - فلا تدله على أثر لها .

وبعد أيام تظهر الحقيقة ، إذ يتأكد للجميع أن فطومة فرت مع ابن الشيخ حسين ، فهي إذن عاهرة مرغت شرفه في العفونة ، ودنست كرامة قريته .

وبجملة - يجب أن يقتلها - ينتبه ، فيصيح وتلتف إليه الأعين محدقة فيشعر بالخجل ، وعندما يصل إلى المدينة ، ويغادر مقعده يتجه نحو إحدى أحيائها الضيقة ، وهنا ينتقم لشرفه وكرم قريته وسمعتها ، و يشعرنا القاص أن - سي عمر - التقى بفطومة وضربها بعنف حتى علقت دماؤها بعصاه ، هذه باختصار أهم حوادث القصة "الانتقام" ذات الموضوع المستهلك كثيرا وسأحاول أن أسجل بعض الملاحظات :

أولا : إن عودة الشيخ حسين بهذه السرعة هي مفتعلة وغير مقنعة ، بل أخلت بتطور الحدث في القصة ، ولو أبقى القاص ابن الشيخ حسين في القرية لكان هذا أقوى وعامل مقنع ، لكن تفر فطومة بهذه السرعة وبهذه المفاجأة مع ابن الشيخ ، فأعتقد أن هذا غير منطقي وعامل مفسد للقصة .

ثانيا : إن فطومة نموذج الفتاة القروية قد حملها القاص أحداثا فوق طاقتها وبسرعة غريبة .

ثالثا : أن المدة الزمنية التي اختارها القاص لأحداث قصته أضخم من القصة نفسها ومن طبيعة القصة القصيرة ، فتعدد الأحداث والأمكنة والأزمنة من مواصفات الرواية ، وليس القصة القصية ، ولم يوفق القاص من هذه الناحية بل أخفق في اختيار المكان والزمان خاصة إذا علمنا أن القصة اعتمد فيها الأسلوب القصصي التقليدي .

رابعا : أن البطل - سي عمر - رغم أنه تمكن في الأخير من الانتقام لشرفه واسترد سمعة قريته ، فإنه يظل شخصية باهتة تدفعها التقاليد ، وكان بإمكانه أن يترك لابنته فطومة أن تختار شريك حياتها ، وأن يتجنب ارتكاب جريمة قتل .

بالإضافة إلى هذه الملاحظات ، هناك أخطاء تعبيرية ، وأخرى نحوية مثل قوله - كما أنه شاب طيبا ، والصحيح - طيب - لأنه نعت لخبر إن المرفوع وبقت : صحيحها - بقيت - وأن عبارة تسترق النظر : صحيحها - تسترق السمع - ، أفصح لأن الوقت ليلا وأن الرؤية معدومة في الغرفة ، إضافة إلى أن الشخير لا يدرك بخاصة البصر ، بل يدرك بحاسة السمع .

وكذلك قوله ، ولم تنم ليلتها ، فالقارئ يفهم أن فطومة قد بقيت في البيت حتى مطلع الفجر ، في حين أنها فرت حالما استغرق والدها في نوم عميق ، ونقول يخترق الجموع بعصاه المخضبة بالدماء بدل ، الملوثة بالدماء.

ورغم هذه الهفوات ، فإن قصة - الانتقام - فيها إشارات ذكية موظفة توظيفا واعيا مثل إشارته إلى قضية فلسطين وإلى صخب وصياح أطفال القرية ، وهم يجرون خلفه صائحين فطومة ، فطومة .

والقاص يملك ناصية لغوية يكون بها أحيانا جملا جميلة ولديه قدرة طيبة على التصوير مثل قوله : وهي مندسة داخل المدينة - ويترنم ببعض الأغاني الريفية خارج الكوخ الضيق الذي رصفت على جوانبه الأكواخ الطينية، فوجد العجوز - صالحة - التي تقطن بجانبه ، وقد وضعت كومة من الصوف أمامها .

هذه قراءة سريعة في قصة - انتقام - للأخ سليماني مختار، الذي لا أشك في أنه سيقدم لنا في المستقبل أعمالا قصصية أخرى أجود من هذه القصة، وهذا ليس بمستحيل على من يملك قدرة لغوية، وموهبة أدبية خصبة.

7 - ويل للشعب من عزل بعض كتابه ! (*)

يعد كاتب ياسين أحد رموز الأدب الجزائري المكتوب باللغة الفرنسة، والذي خلقته ظروف استعمارية جائرة، ولست مبالغا إذا أقررت بتفوق إبداعاته الفنية - " نجمة "، "القبعة المرصعة بالنجوم"، " الرجل ذو النعل المطاطي " ... الخ - عن كثير من إبداعات كتاب فرنسيين دما ولحما.

كما استقبل النقاد والقراء بعض أعماله، خاصة رواية " نجمة " بحفاوة كبيرة ، لا تقل عن حفاوتهم، حينما يظهر نص إبداعي لكاتب غربي كبير مثل : سارتر، جويس ، فوكنر، ساروت، همنجوي، ماركيز سيمون، وغيرهم ...

هذه حقائق أدبية وعلمية، أعيدها بكل امتلاء واعتزاز، إنه ابن البلد، ابن القرية والزنقة والصلة، إنه الوجه البارز لكاتب ياسين .

والكثير يجهل صورة وجهه الباطن، والذي يحمل حقدا شديدا للغة العربية ، وثقافتها ويشكف عنه، كلما سنحت له الفرصة، لذلك لم أصب بالدهشة ولا يتوقف الدم في شراييني وأنا أقرأ رأيه ، حول اللغة العربية الفصحى المنشور بمجلة الوطن العربي، عدد 354 ، ص 69 سنة 1983، من حوار بينه وبين الصحفي جوزيف كيروز :

- « هل فكرت يوما بكتابة عمل أدبي بالعربية ؟
- لا، أبدا !
- لماذا ؟
- لأني، اعتبرت العربية منذ البداية لغة لم تعد من هذا العصر، مثل اللاتينية تماما .. »

فمثل هذا الرأي غير جديد بالنسبة لكاتب كبير، ينتظر منه شعبه شيئا فنيا يرتقي لمستوى عظمته، فهو يعود إلى السنوات الأولى للاستقلال، وكرره على صفحات مجلة المجاهد الأسبوعية، عدد 742، الصادر يوم الأحد 3 نوفمبر 1974، وقد كان آنذاك في أوج نشاطه المسرحي، حين منحته وزارة العمل، والشؤون الاجتماعية كل الثقة، لقد قال في ذلك الوقت : « فإن الذين يتعصبون للغة الفرنسية، وأولئك الذين يتعصبون للغة العربية، هم غلاة البرجوازيين الذين يريدون الثقافة لحسابهم الخاص، ولا تهمهم الجماهير والطبقات الكادحة .. »

---

* صدر هذا المقال بجريدة النصر بتاريخ الخميس 5 جانفي 1984 .

لقد أخطأ الكاتب الكبير آنذاك خطأين :

1 - عندما اعتبر دعاة التعريب، من غلاة البرجوازيين مثلهم مثل دعاة اللغة الفرنسية وثقافتها في بلادنا، يطالبون بعودة الاستعمار، قصدوا إلى ذلك أم لم يقصدوا أولا، وثانيا لأن هذه اللغة تحفظ مصالحهم المادية والمعنوية الموروثة عن العهد الاستعماري في حين أن دعاة العربية، يطالبون باستكمال الشخصية الجزائرية، واستقلاليتها عن الشخصية الفرنسية الاستعمارية، وقد أكد هذا الاتجاه الميثاق الوطني، الذي هو القاعدة الإيديولوجية للشعب الجزائري.

إن اللغة العربية عنصر أساسي للهوية الثقافية للشعب الجزائري، ولا يمكن فصل شخصيتها عن اللغة الوطنية التي تعبر عنها، ولهذا فإن تعميم استعمال اللغة العربية، وإتقانها كوسيلة عملية خلاقة يشكلان احدى المهام الأساسية للمجتمع الجزائري في مجال التعبير عن كل مظاهر الثقافة، وعن الإيديولوجية الاشتراكية ..

2 - إن اعتقاده بإمكانية إحلال اللهجة الجزائرية، محل اللغة العربية لا يمكن أن يكون إلا كاعتقاد الحالم، لأن اللهجة الدارجة العربية ، ما هي إلا نسخة مشوهة للغة العربية الأصل أولا، وثانيا أي عقل راشد يقدم على حرق تراثه الذي يعد الآن من أهم التراث العالمي في جميع الميادين الإنسانية والعلمية ؟، وحتى اللهجات الجزائرية الأخرى، فإنها غارقة في المحلية، ولا تملك رصيدا تراثيا حضاريا يسمح لها بالرقي لأنها في مجمل مادتها اللغوية، انحدارات للغة العربية الأعلى ، يقول كاتب ياسين : « لكي نتحدث مع الشعب لا بد أولا لن نفهم لغته ، ولغة الشعب هي المحلية اللغة الدارجة التي تفتقت عنها عبقرية، لا الكلاسيكية الفصحى المحفوظة في الكتب ، لغة العلماء - في الأصل العلماء - والمعاجم » .

فإذا كان الأستاذ كاتب ياسين يعتقد أن هذه الدعوة جديدة، ومن ابتكاراته وإبداعاته المهمة، فليعلم أنه قد سبقه إليها بعض الكتاب في المشرق العربي منذ عشرينات هذا القرن، حينما اعتقدوا بقدرة اللهجات الإبداعية وتفوقها عن اللغة العربية الفصحى، وادعوا لأنفسهم شعبية زائفة، سرعان ما انكشف غامضها، واتضح للشعب أن هذه الأدوات، احدى استراتيجيات الاستعمار.

فإذا كان من حق كل كاتب أن يحب شعبه ، ويدافع عن مصالحه ، فمن حق أي شعب أن يرفض غزل بعض كتابه إذا كان على طريقه غزل عدوه .

8 - تداعيات بالمناسبة (*)

تعدّ الملحقات الثقافية التي تصدرها الجريدة اليومية من أهم مصادر الحركات الأدبية ومنابعها ، وذلك لما تمتاز به هذه الملحقات من معايشة دائمة لنمو الأشكال الفنية وتبلور المضامين والتيارات الفكرية وسريانها داخل المجتمعات كما تعد من أهم وسائل الوعي الثقافي المستنير لما تتصف به من شعبية واسعة الانتشار .

إن صلتي بالملاحق الثقافية لجريدة النصر تعود إلى سنة 1973 ، وكنت أنذاك أدرس في تكميلية البشير الإبراهيمي (سكيكدة) ، وأذكر بهذه المناسبة أن الصفحة الثقافية التي كان يعدها الأديب : جروة علاوة وهبي أسبوعيا وقد كان لها دور كبير في تكوين شخصيتي الأدبية ، فقد تعرفت بواسطتها على معظم رموز الحركة الأدبية وبعض الكتاب العرب : كمحمد زتيلي ، ابن الزيتون ، وعبد الحميد شكيل ، وعبد العالي رزاقي ، وعلاوة وهبي ، والقاصين الموهوبين : الطاهر زعرور ، وعبد الحميد تابليت ، والكاتب وأحمد عماميش ، وجميلة زنير وإدريس بوذيبة ، وذو النون الأطرقجي وعبد الله بن الضيف ، وطلال سالم الحديثي والأزهر عطية ، وغيرهم .

وأهم الموضوعات التي كانت تدور حولها معظم النتاجات الأدبية هي الموضوعات : الاجتماعية والانسانية ، فقد نشرت أعمالا أدبية عديدة عالج أصحابها فيها مواضيع اجتماعية كقصة ، التي تحترق في أقصى المدينة، كما عالجت بعض الأعمال القضية الفلسطينية، ومأساة الشعب الفلسطيني ، وثورة الجزائر التحريرية ، والفلاح الجزائري وصلته بأرضه، وموقف الاقطاع من الثورة الزراعية والتطبيق المجاني للعلاج ، والقضايا العنصرية التي يعاني المغتربون منها في فرنسا ، كما قد احتضنت، الصفحة الثقافية ، جل أنواع الكتابة: كالشعر والقصة، والخاطرة الفنية، والمقالة الأدبية ومن أهم المقالات التي لفتت انتباهي أنذاك مقالة الأديب : علاوة وهبي عن تجربة الشعراء السود في أمريكا ، بعد تجربة، الصفحة الثقافية، الرائدة أصدرت جريدة النصر ملحقها الثقافي (النصر الثقافي) وقد استقطب هو بدوره جل الأسماء الأدبية السابقة ، وبعض الأسماء الأدبية الأخرى : كحسان الجيلالي ، والعربي دحو وعبد الحفيظ بوالطين ، وعبد العزيز

---

* - صدر هذا المقال بجريدة النصر ، الأحد 13 جانفي 1985 .

بوشفيرات ، وشريبط أحمد شريبط ، حيث شاركت في تحريره ، وأنا أدرس بثانوية العربي التبسي (سكيكدة) بمقالين الأول عن قصة " الشاب الذي فقد ظله " للقاص عبد الحفيظ بوالطين ، والثاني كتبته حول مجموعة الشاعرة الجزائرية : مبروكة بوساحة " براعم " بعنوان " الحب في شعر مبروكة بوساحة ".

وثالث تجربة ، هي تجربة - الأفق الثقافي - وهي التي نحتفل هذه المرة بعيدها الرابع وأطلب بهذه المناسبة من جميع كتابه وقرائه أن يشعل كل واحد منهم أربع شمعات ، لمدة أربع ليال متتاليات ، وأن يرسل كل واحد منهم أربع باقات لمحرريه وللساهرين على استمراريته .

وقد نشر (الأفق الثقافي) منذ صدوره لأسماء أدبية معروفة ، لها مكانتها الرفيعة وحضورها القوي في الحركة الأدبية الجزائرية كأسماء : أحمد منور ، ومصطفى نطور ، ومحمد الصالح حرز الله ، ومصطفى فاسي ، ومصطفى محمد الغماري ، وإدريس بوذيبة ، واهتم بنتاج أسماء أدبية جديدة ، كسمير رايس ، والأخضر فنغور ، وعبد الله بوخالفة .

كما نشر لبعض الكتاب والأدباء العرب : كالشاعر الدكتور عز الدين المناصرة والدكتور : عبد الرحمن الكيالي ، وحسين أبو النجا (فلسطين)، والشاعر الأستاذ : محمد طالب محمد (العراق) والشاعر أحمد دوغان، والدكتور نسيب نشاوي (سوريا) . كما ساعد (الأفق الثقافي) منذ صدوره مواهب أدبية عديدة ، فأتاح لها فرص النشر والاتصال بالقارئ.

تركنا وراءنا أربع سنوات ، بثوانيها وساعاتها، وأيامها، وشهورها، وفصولها، وأمامنا يمتد الأفق، أفقا، لا قمة له، ولا مستقر له، ماذا قدمنا ، وماذا نأمل أن نقدم ؟ وما موقعنا من مواقع الآخرين ؟ ينبغي أن تكون فرحة العيد مثل فرحة الميلاد : محطة استراحة، ومراجعة، وحساب، وتخطيط، ثم انطلاقة نحو أفق الأفاق .

لقد صارت الملاحق الثقافية بالنسبة إلينا ، كالماء بالنسبة للحوت ، ولذلك نقيم المآتم كلما بلغنا نبأ اختفاء أحد الملاحق الثقافية ، كما أننا نقيم الأعراس كلما علمنا بصدور أول عدد لجريدة ، أو لملحق ثقافي .

وأود بهذه المناسبة الغالية أن أسجل بعض الاقتراحات ، أرجو أن تأخذ ببعضها هيئته التحريرية :

1 - إن ضيق المساحة المخصصة للأفق الثقافي ، لا يخدم بأي شكل كان النص النقدي ، أو النص الإبداعي ، ولذلك أقترح أن يرتفع عدد صفحاته .

2 - أن تصدر سنويا هيئة تحرير - الأفق الثقافي - هدية باسمه ، تضم منتخبات من المادة الأدبية التي نشرت على صفحاته خلال السنة .

3 - استحداث جائزة باسم (الأفق الثقافي) تمنح لأحسن عمل أدبي ينشر .

4 - تخصيص ملفات خاصة تتمحور حول قضايا ثقافية متنوعة : مثل : النقد المسرحي ، والنقد السينمائي ، والفن التشكلي ، وأداب الأمم ، المناهج الحديثة للنقد الأدبي ، وبعض الأدباء الجزائريين : كرمضان حمود ، وزليخة السعودي ، والربيع بوشامة ، وعمر راسم ، وعبد المجيد الشافعي ، وغيرهم .

5 - أرجو أن يعتني في المستقبل بالمادة النظرية ، خاصة النقدية ، فنحن في أمس الحاجة إلى دراسات ، ومقالات نظرية تبدد الظلام عن بعض المصطلحات والمفاهيم الأدبية .

ختاما ، أتمنى للأفق الثقافي عمرا مديدا ، وسنة مفعمة بالتطور والعمل الجاد ، ومزيدا من ترسيخ المفاهيم المستنيرة .

المحتوى

الإهداء

المقدمة .... أ

أولا - الدراسات

1 - فقيدة الأدب الجزائري الحديث المرحومة زليخة السعودي 8

2 - قضايا اجتماعية في الأدب الجزائري المعاصر 36

3 - نظرة من الداخل إلى مسيرة الحركة الأدبية الشابة في الجزائر. 57

4 - صورة الفرنسي في أدب الطاهر وطار 91

5 - الشاعرة أعلام مستغانمي : الالتزام ، الجرأة ، الجدية 102

6 - ديوان الحب في درجة الصفر 109

7 - متى يطبع تراث الأديبة زليخة السعودي 115

ثانيا - المقالات

1 - أنقد أم فتن ؟ 124

2 - الشاب الذي فقد ظله 138

3 - المقياس في الميزان 141

4 - رأي الأديب عبد الله بن الضيف في قصة " من البطل ؟

" لزليخة السعودي 145

5 - جسر المعاناة 149

6 - حول قصة الانتقام 152

7 - ويل للشعب من عزل بعض كتابه ! 155

8 - تداعيات بالمناسبة 157

رقم الايداع : 2007 ـ 649

ردمك : 978-9961-901-50-2



منشورات : المكتبة الوطنية الج